AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

N. MAKHOUL
BINDERY
4 NOV 1972
Tel. 260458

892.78
Z39aba2A
C.1

العباسة اخت الرشيد

او

نكبة البرامكة

رواية تاريخية غرامية

هي الحلقة العاشرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام
وتشتمل على نكبة البرامكة واسبابها وما يتخلل ذلك من وصف مجالس
الخلفاء ومجالستهم وملابسهم ومواكبهم وبيان ما بلغت
اليه الدولة من الحضارة والابهة في عصر الرشيد

تأليف

جرجي زيدان

منشئ الهلال

مطبعة الهلال بالفجالة بمصر

سنة ١٩٠٦

مقدمة

روايات تاريخ الاسلام

تدرجنا باثناء هذه الروايات في بسط تاريخ الاسلام ووصف احوال العرب وسائر المسلمين في جزيرة العرب و بلاد الشام والعراق ومصر وغيرها من زمن الجاهلية فصدر الاسلام فايام بني امية في الشام والاندلس فايام بني العباس الى عصر الرشيد وهو موضوع هذه الرواية . فضمناها اشهر حادثة من حوادث ذلك العصر واغربها نعني نكبة البرامكة التي اختلف المؤرخون والرواة في اسبابها وتفاصيلها و بذلنا الجهد في استطلاع تلك الاسباب من سياسية وادبية وتاريخية و بسطناها في سياق قصة غرامية تواتر ذكرها في كتب التاريخ والادب مختصرة واليها ينسبون تلك النكبة فجعلناها مدار هذه الرواية وتوسعنا فيها ووشحناها بما بلغ اليه عصر الرشيد من الثروة والرخاء والابهة والحضارة وما كان من رسوم الخلفاء في مجالسهم ومواكبهم والآداب المرعية في مجالستهم ومخاطبتهم وما انغمسوا فيه من الترف والبذخ في الملابس والاثاث والرياش وما تفشى بينهم من اسباب الجاسوسية مع تكاثر الجواري والسراري

فرسمنا ذلك العصر في صورة مكبرة جمعنا فيها ابهى مناظره واهم مظاهره . فاذا لم تكن هي الحقيقة بعينها فانها كثيرة الشبه بها . واذا كان بعض حوادثها لم يقع فعلاً فوقوعه ممكن . لان الروائي المؤرخ لا يكفيه تقرير الحقيقة التاريخية مجردة وانما هو ينمقها بما يوضحها ويزيدها رونقاً من آداب العصر واخلاق اهله وعاداتهم حتى يخيل للقارىء انه عاصر ابطال الرواية وعاشرهم وشهد مجالسهم

وشاهد مواكبهم واحتفالاتهم — شأن المصوّر المتفنن في تصوير حادثة يشغل ذكرها في التاريخ سطراً او سطرين فيشتغل هو في تصويرها عاماً او عامين . فمقتل جعفر البرمكي مثلاً عبر عنه المؤرخ ببضع كلمات اما المصور فلا يستطيع تصويره الاَّ اذا كان مطلعاً على عادات ذلك العصر وطبائع اهله واشكال ملابسهم والوانها وضروب الفرش واشكال الاسلحة ليمثل كلاًّ من القاتل والمقتول بقيافته وشكله . وينبغي لهُ ان يكون عالماً بانفعالات النفس وما يبدو من آثارها على الوجه أَو في حركات الجسم ليمثل غضب القاتل او شراسته وخوف المقتول او كآبته . غير ما تقتضيه الصناعة من تصوير مكان الواقعة ان كان غرفة او شارعاً او بادية او حديقة والزمان الذي وقعت فيه ان كان صبحاً او اصيلاً اوعشاءً . ولكل من هذه الاحوال اشكال والوان لا يتم جمال الصورة الاَّ باتقانها

وذلك شأن الروائي بالنظر الى التاريخ فهو يمثل تلك الاحوال ويصور اشكالها والوانها بالالفاظ من عند نفسه فيوشّح الحادثة التاريخية بخلاصة درسه الطويل في آداب القوم وعاداتهم واخلاقهم وادابهم والتفطن لآثار العواطف في مظاهرهم مع بيان ما يحفُّ بتلك الحادثة من الشؤون المعاصرة ويطبق وصفهُ على نظام الاجتماع واحوال العائلة في ذلك العصر . واذا رجع المطالع الى تحقق الحوادث التاريخية على اجمالها وجدها حقيقة ثابتة — ذلك ما توخيناه في سائر رواياتنا والله المستعان في تتميم هذه السلسلة بمنه وكرمه

الفصل الاول

مدينة بغداد

كانت عاصمة الاسلام في ايام الراشدين يثرب (المدينة) تبركاً بقبر النبي فجعلها بنو أمية في دمشق مقر احزابهم من قبائل العرب . فلما انفضت الخلافة الى بني العباس وقد ساعدهم عليها مواليهم الفرس جعلوا عاصمة ملكهم على حدود بلاد الفرس . وكانوا اولا في الكوفة اذ بايعهم اهلها ثم انتقلوا الى الانبار على الفرات وفيها توفي السفاح اول الخلفاء العباسيين وخلفه المنصور . واول شيء باشره قتل ابي مسلم خوفاً منه على منصبه ففتك له غيلة كما تقدم في رواية « ابي مسلم الخراساني » فاصبح المنصور بعد قتله يخاف على نفسه من اصحاب ابي مسلم وأشياعه وخصوصاً بعد ان ثار عليه منهم جماعة الراوندية وكادوا يفتكون به لو لم يدافع عنه معن بن زائدة . وقد فتك رجال المنصور بالراوندية وقتلوهم لكنه ما زال خائفاً من مثل هذه الثورة . فعمد الى بناء حصن يأوي اليه بأهله ورجال حكومته فبنى بغداد بشكل مستدير سمي مدينة المنصور جعل قصره في منتصفه وسماه قصر الذهب وجعل قصور الامراء ورجال الدولة وابنية مصالح الدولة حوله وبينها الاسواق للبيع والشراء . وبنى حول المدينه سوراً في ثلاثة اسوار الواحد داخل الآخر الاول او الداخلي محيط بالابنية ووراءه فراغ فيه ابنية كالقلاع ونحوها ووراء الابنية سور ثانٍ متين وراءه فراغ للمرور حوله ووراء هذا الفراغ سور ثالث ووراء هذا السور خندق فيه الماء . وجعل للمدينة اربعة ابواب سماها باسماء المدن التي تتجه نحوها وهي ابواب البصرة والكوفة والشام وخراسان (راجع الخارطة) وافتتح فيها أربعة شوارع كبرى تمتد من الابواب الى مركز المدينة

وكان المنصور يقيم اولاً في قصر الذهب في منتصف مدينته ثم اطمأن باله وازدحمت المدينة فابتنى قصراً خارج باب خراسان على شاطيء دجلة سماه قصر الخلد (رقم ٣٢ في الخارطة) وظل القصران مقر الخلفاء بعد المنصور الى ايام الرشيد وكان الرشيد يفضل الاقامة في قصر الخلد واكثر اقامته فيه

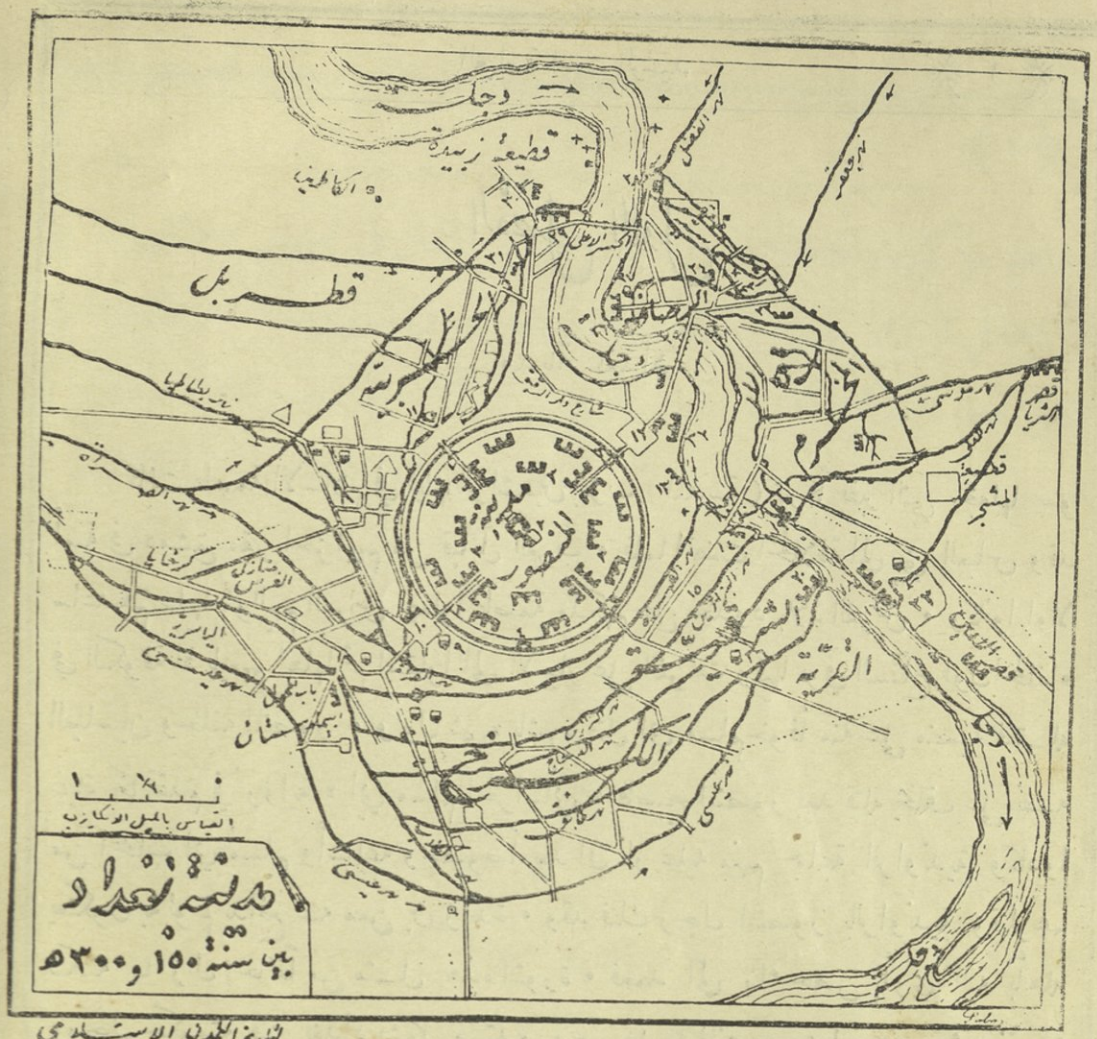

تاريخ المدن الاسلامي

١ قصر الذهب او القبة الخضراء
٢ جامع المنصور
٣ ابنية الحكومة لمصالح الدولة
٤ المطبق
٥ باب البصرة
٦ باب خراسان
٧ باب الشام
٨ باب الكوفة
٩ جامع المسيب
١٠ ديوان الصدقة
١١ سجن باب الشام
١٢ الميدان وبجانبه الاصطبل
١٣ دار القرار (قصر زبيدة)
١٤ دار حميد بن عبد الحميد وباب الشعير
١٥ جامع معروف الكرخي
١٦ مشهد علي
١٧ قصر جعفر البرمكي ثم صار من قصور الخلافة
١٨ قصر التاج
١٩ قصر الفردوس
٢٠ دار عيسى
٢١ قصر ابن الخصيب
٢٢ قصر المعتصم
٢٣ دار الروم (البطرخانة)
٢٤ قصور البرامكة
٢٥ باب الطاق
٢٦ قصر المهدي
٢٧ جامع الرصافة
٢٨ باب الشماسية وقصر موسى
٢٩ قصر الحريم الطاهري
٣٠ قصر زبيدة
٣١ دار الرقيق
٣٢ قصر الخلد
٣٣ حدائق القصور او البساتين

على ان مدينة المنصور لم تكن وحدها كافية لاقامة الجند ومن يلحق بهم من الباعة والاهل وغيرهم ناهيك بمن تقاطر الى تلك العاصمة من المسلمين وغير المسلمين فابتنوا المنازل خارج المدينة فرأى المنصور ان يقلل الازدحام فرغب الناس في السكنى على البر الشرقي في مكان سمي الرصافة وانشأ فيه جامعاً وقصراً فابتنى الناس حولهما المنازل . واتفق ان ابنه المهدي جاء بجيشه من خراسان فنزلوا في الرصافة لانها آخر طريقهم براً من خراسان فامرهم المنصور ان يبقوا هناك واقطعهم القطائع فابتنوا المنازل واصبحت الرصافة بلداً كبيراً . وكانت في بادىء الرأي معسكراً يعرف بمعسكر المهدي ثم امتدت جنوباً وشمالاً فتولدت احياء المخرّم والشماسية . واقام الخلفاء الدور على ضفاف دجلة شرقاً وغرباً يهمنا منها في هذا المقام قصر الخلد (٣٢) وقصر زبيدة (١٣) وكلاهما على الضفة الغربية وقصر جعفر البرمكي (١٧) ووراءهُ قصر الامين على الضفة الشرقية

ونشأ حول مدينة المنصور احياء أخرى على الجانب الغربي اهمها الكرخ وفيه كان يقيم التجار من الاجانب وخصوصاً الفرس . وحي الحربية في الشمال واكثر سكانه من العرب . فكانت بغداد في ايام الرشيد قسمين قسماً شرقياً وقسماً غربياً يوصل بينهما ثلاثة جسور اهمها الاوسط ويعرف بالجسر او جسر بغداد وهو يوصل بين مدينة المنصور والرصافة رأساً . وكان في بغداد على عهد الرشيد وما بعده عدة انهر مجرورة اليها من دجلة والفرات تخترق احياء المدينة وقد بنى الناس قصورهم على ضفافها او فيما بينها . اشهرها نهر عيسى ونهر طابق ونهر الدجاج ونهر البزازين ونهر الصراة ونهر الفضل ونهر جعفر وغيرها

وكانت بغداد في ايام الرشيد آهلة بالقصور والحدائق وأهلها في رغد ورخاء والاموال تنصب في خزائنها بالملايين والخليفة يهب ويجيز والناس يتقاطرون الى بغداد التماساً للتكسب بما يرضى الخليفة او رجاله من اسباب الارتزاق وفيهم العربي والفارسي والرومي والتركي والكردي والارمني والكرجي والسندي والهندي والصيني والزنجي والحبشي على اختلاف الملل والنحل بين صانع وناحر ونخاس وشاعر ومغنٍّ وأديب ونحوي وراو وفيهم المسلم والذمي والحر والمولى والعبد والغلام والجارية . وكلهم يحومون حول دار الخلافة او دور الامراء يبيعونهم السلع او يتملقون اليهم بالمديح او يدسون اليهم اسباب الزلفى استنزافاً للاموال . وهؤلاء يبذلون الاموال بسخاءٍ يأنفون ان تعد عطاياهم بمئات الدراهم وانما يعدونها بالالوف وألوف الالوف وكيف يعرفون للمال قيمة وهو ينصب في

خزائنهم انصباب السيل اذ كانوا يشاطرون اهل الارض غلاتهم فضلاً عن الجزية والغنيمة . فاذا صار ذلك الى الخليفة وأمرائه استكثروه فانفقوه في من يحوم حولهم من المقربين

الفصل الثاني

ابو العتاهية

وكان في جملة المرتزقين بالشعر على ابواب الخلفاء ابو العتاهية واصله من الموالي مثل اكثر شعراء ذلك العصر وكان ابو العتاهية في اول امره يصطنع الجرار ويحملها في قفص على ظهره ويدور في الكوفة ليبيعها وكان ذا قريحة شعرية فقدم بغداد وما لبث ان ارتقى بشعره الى مجالسة الخلفاء . وأول من قربه منهم المهدي بن المنصور وقد فتن به وبشعره حتى كان المهدي يصحبه في الصيد او النزهة ويكرمه ويجيزه . وكان ذلك شأنه مع الهادي بن المهدي ولم تطل مدة حكم الهادي ولكنها على قصرها اثرت في قلب ابي العتاهية فلما مات الهادي عاهد ابو العتاهية نفسه ان لا يقول شعراً بعده

فلما تولى هرون الرشيد طلب اليهِ ان يقول شعرًا فابى فغضب عليه وامر بحبسه في بيت مساحته خمسة اشبار في خمسة فاستعطفهُ وقال شعرًا غنى به الموصلي المغني المشهور فامر لهُ الرشيد بخمسين الف درهم . وحظي عند الرشيد حظوة كبيرة حتى كان لا يفارقه في حضر ولا سفر الاَّ في طريق الحج وعين لهُ الرشيد راتبًا سنوياً غير الجوائز وغير ما كان يناله من رجال الدولة وجوائزهم يومئذٍ بالوف الدراهم فجمع مالاً كثيرًا . لكنه كان مع ذلك طماعًا شديد البخل يجمع المال ولا ينفقه ولا يذخر وسعًا في حشده بأية طريقة كانت وخصوصاً بعد ان نذر الزهد وعاهد نفسه ان لا ينظم شعرًا فقلّ تكسبهُ من الشعر فاخذ يغتنم الفرص للاكتساب من ابواب اخرى

وكان ابو العتاهية في خلافة الرشيد حوالي سنة ١٨٧ هـ يحضر مجلس محمد الامين بن الرشيد وهو يومئذٍ في السابعة عشرة من عمره وكان الامين ميالاً الى القصف واللهو منذ نعومة اظفاره لايخلو مجلسه من المغنين واهل الخلاعة والجواري والغلمان وهو اول من استكثر من الغلمان والخدم وتفنن في انتقائهم وتزيينهم — وكان يشهد مجلسه كثيرون من الشعراء ولا سيما اهل القصف والمجون منهم كالحسن بن هاني الملقب بابي نواس . وكان ابو العتاهية

مقرباً من زبيدة ام الامين فكان يحضر مجلس الامين لعله يصيب كسباً او جائزة بسبيل من السبل وكان الامين كريماً مسرفاً لا يعرف للدراهم قيمة

وكان لا يشهد مجلس الامين من اهل الجد والدهاء الاَّ من كان له غرض سياسي لايرى الوصول اليهِ الاَّ على يد الامين أو تقرباً بهِ الى امه زبيدة وهي احب نساء الرشيد اليهِ لانها ابنة عمه ولها كلمة نافذة عليه وكان اكثر نساء الخلفاء يومئذٍ من الجواري المعتقات ولذلك لم يكن بين العباسيين خليفة امه وابوه هاشميان الاَّ الامين . فكان الذين يحبون التقرب من الرشيد بالدالة اوالوساطة او الدسائس يتزلفون اليها بالثناء على ابنها مع اعتقادهم انهُ ليس اهلاً للخلافة و يطعنون باخيه المأمون لان امه جارية فارسية ويحطون من قدره عندها وهو بالحقيقة ارقى من ابنها عقلاً وادباً

وكان اكثر الناس سعياً في هذا السبيل الفضل بن الربيع لان اباه كان وزيراً للمنصور والمهدي وكان هو يرشح نفسه للوزارة فلما تولى الرشيد الخلافة قرب يحيى بن خالد البرمكي وفوَّض الى ابنهِ جعفر بن يحيى الوزارة بكل معانيها لان اباه يحيى كان سبباً في نيله الخلافة فشق ذلك على الفضل بن الربيع وثارت في نفسه عوامل الحسد ولم يدخر وسعاً في استنباط الاسباب للايقاع بهِ ولم يجد سبيلاً الى ذلك الاَّ بالتزلف الى زبيدة وابنها لعلمهِ انها تكره الفرس على الاجمال والبرامكة على الخصوص ولا سيما جعفر بن يحيى لانهُ حمل الرشيد على مبايعة المأمون (ابن جاريتها) بولاية العهد بعد ابنها الامين . فكانت تقرب كل من ينصر ابنها و يطعن بالمأمون ولذلك كان الفضل يحضر مجلس الامين في لهوهِ و يسايره في قصفه و يتملقهُ للغرض الذي قدمناه

فاتفق في مجلس حضره ابو العتاهية تلك السنة ان الامين ذكر عزمهُ على ابتياع بعض الجواري البيض ممن يحسنَّ الغناء يضمهنَّ الى اللواتي في قصره واكثر المغنيات يومئذٍ من الجواري الصفر وكانوا يقتنون الجواري البيض للتسري فقط واول من علم الجواري البيض الغناء ابراهيم الموصلي مغني الرشيد . فاحبَّ الامين ان يتخذ مغنيات من البيض فاخبره الفضل بن الربيع ان بعض كبار النخاسين اتى بجلبة من الجواري الحسان انزلهنَّ عند كبير من تجار الرقيق في بغداد وهو يهودي واسمهُ فنحاس وان الناس معجبون بجمالهنَّ الفتان فيمكن ابتياع بعضهن و يعهد الى الموصلي ان يعلمهن الغناء واخذ الفضل على نفسه ان يذهب من الغد الى ذلك التاجر فينتقي لهُ احسنهنَّ طلعة واطربهنَّ صوتاً . فلما سمع ابو العتاهية ذلك تنسم منهُ ربحاً كبيراً بالتواطوء مع فنحاس لعلمه ان الامين لا يهمه مقدار ما يدفعه من المال في

هذا السبيل

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فرأى ان يذهب في تلك الليلة الى فنحاس يخبره بعزم الامين وانهُ هو الذي حمله على ابتياع الجواري من عنده و يغريه على زيادة كمية كبيرة على الثمن الذي يقدّره هو على ان تكون تلك الزيادة مقابل سعيه في ذلك

الفصل الثالث

غريبان

فهرول ابو العتاهية من ساعته يلتمس دار ذلك التاجر والمسافة بينهما بعيدة لان قصر الامين في جنوبي المخرم في الجانب الشرقي من بغداد ودار فنحاس في اعالي الجانب الغربي بقرب دار الرقيق التي انشأها المنصور لما كان يبتاعهُ من الجواري والغلمان المجلوبين . وكان ابو العتاهية ابيض اللون اسود الشعر نظيف الثياب له وفرة جعدة وهيأة حسنة ولباقة وحصافة . وكان تلك الليلة في لباس بسيط غير ما تعود لبسه في مجلس الخليفة او ابنه ايام كان ينظم الشعر وكان منذ عاهد نفسه على الزهد يلبس ثياب الفقراء وربما ساعده على ذلك بخله . وكان يلبس فوق ثيابه عباءة بسيطة و يعتم بعمامة بسيطة كانه من عامة الناس فالتف تلك الليلة بالعباءة وغيّر شكل عمامته اخفاء لحقيقة امره لانه ذاهب في شأن يحتاج الى التستر

فمشى على شاطئ دجلة وهو يتردد بين ان يصعد في احدى السفن التي تسير في دجلة حتى يصل الجسر وينزل من هناك ماشياً الى دار الرقيق او يجعل طريقهُ كله برًّا وكان يفضل الذهاب ماشياً فراراً من نفقة الانتقال بالسفينة او على دابة من الدواب الاجرة فلما اطلَّ على دجلة رأى بالقرب من الشاطئ شراعاً منشوراً وسفينة تخترق عباب الماء على عجل . فاستبشر وعزم على الركوب فيها . وكان الليل قد سدل نقابهُ وسكنت الطبيعة لبعد ذلك المكان عن الشوارع المزدحمة في الكرخ لان اكثر الابنية القائمة على ضفاف دجلة من القصور الشماء والحدائق الغناء للخليفة او وزيره او بعض اولاده او اهله . فصاح ابو العتاهية بالسفينة ان تقف فلم يجدِ صياحه نفعاً فاعاد النداء فاجابه ربانها انه لا يستطيع الوقوف فاعاد الصياح قائلاً « قف ناشدتك المروءة »

فسمع ابو العتاهية عند ذلك لغطاً ورأى النوتية في حركة عند الشراع فأرخوه بحيث تبطئ السفينة في سيرها ورأى حركة المجاذيف فعلم ان اهلها في عجلة لأمرٍ ما وليس لمجرّد النزهة في مياه النهر على جاري عادة اهل بغداد ولم تكن الليلة مقمرة تصلح للنزهة فاعجبته سرعة السفينة . وبرز رجل حتى وقف على حافة السفينة ونادى «من انت ؟»

فقال «اني غريبٌ امسى عليَّ المساء واحبُّ الطلوع الى الحربية ولا اعرف الطريق»

فلما سمع الربان قوله تحوّل عن حافة السفينة حتى توارى والسفينة تتباطأ في سيرها ولبث ابو العتاهية في انتظاره وبعد هنيهة عاد الربان وهو يقول «مرحباً بك تفضل» وادنى السفينة من الشاطيء ثم امر بعض النوتية فالقى خشبة بين السفينة والشاطىء مشى عليها ابو العتاهية حتى دخل السفينة وحيّا الربان فردّ التحية واشار اليه ان يجلس على دكة بجانب الشراع فجلس واجال نظره فلم يجد هناك غير النوتية وهم اربعة يستعينون على سرعة المسير بالتجذيف . وحانت منهُ التفاتة الى مؤخر السفينة فرأى على نور القبس رجلاً وامرأة عليهما ثياب اهل البادية وقد جلسا الاربعاء واحنيا رأسيهما من النعاس وهما قاعدان وبجانب الرجل نعال غليظة من نعال اهل الحجاز ورأى بين ايديهما غلامين قد توسدا ظهر السفينة وجعلا رأسيهما على حجر المرأة كل واحدٍ من ناحية وعليهما ثياب غير ثياب اهل البادية وقد غطتهما المراة بطرف من الخز الموشي فاستغرب ذلك وجرّه حب الاطلاع الى استطلاع خبرهما

وكانت السفينة تخترق النهر والجوّ هادئ لا يسمع فيه غير مسير السفينة تشق عباب الماء واصوات المجاذيف تنقر سطحهُ بانتظام . وما لبثوا بعد برهة ان اطلوا على ابنية بغداد وقد أُنيرت القصور على الضفتين ثم سمعوا اصوات المؤذنين يدعون الناس الى صلاة العشاء فوجد ابو العتاهية بذلك حيلة لمخاطبة الربان فقال «اليس عندك طنفسة اصلي عليها العشاء»

فنهض الربان وجاءه بطنفسة فرشها على ظهر السفينة بالقرب من اولئك الغرباء . فنهض ابو العتاهية واخذ في الصلاة وعيناه لا تتحوّلان عن ذينك الغريبين والغلامين وهو يتفرس بالوجوه . فعلم ان الرجل والمراة من اهل الحجاز وهما كهلان وخشونة البادية ظاهرة في قيافتهما . واما الغلامان فكان نور القبس قد وقع على وجهيهما فعرف ابو العتاهية من خلال خفقان نور القبس انهما اخوان احدهما في الخامسة من العمر والآخر في نحو الرابعة وفي وجهيهما جمال اهل المدن بلون ابيض مشرب حمرة ولهما عيون طويلة الاهداب كانها مكحولة بالاثمد قد زادهما دفء الغطاء اشراقاً وحمرة وهما مستغرقان في النوم . ورآهما أصغر

سناً من ان يكونا ابني ذينك البدو بين فازداد رغبة في معرفة خبرهما وما صدق ان رجع من الصلاة حتى اقترب من الربان وساله قائلاً « لم اعرف رفاقنا الليلة فهل هم غرباء مثلي »

فقال « نعم »

قال « من اين اتوا ؟ »

فقال الربان « مالك ولهذا السؤال ؟ »

قال « لان الغرباء انسباء »

فضحك الربان ضحكة اغتصابية وقال « لا يهمك الاطلاع على اخبار الناس دع عنك الفضول فاني لم اسالك من اين اتيت او الى اين ذاهب ولا ما هو اسمك ونسبك .. » قال ذلك وتركه وتحوّل الى حافة السفينة وكانت قد تجاوزت الجسر السفلي وكان مفتوحاً وفتحه سهل لانه مؤلف من السفن السابحة متصلة بعضها ببعض بالسلاسل وفوقها ألواح من الخشب لمرور الناس والدواب . وبعد ان تجاوزت السفينة الجسر اطلت على مدينة المنصور واقتربت من الجسر الاوسط و يندر ان يكون مفتوحاً فقال الربان « قد اقتربنا من الجسر وهذا آخر شوطنا فتفضل وانزل »

وكان ابو العتاهية قد استاء من خشونة الربان وهمّ ان يطلعه على حقيقة حاله لانه لو عرفه لاحترمه لما كان للشعراء من النفوذ في دور الخلفاء ولكنهُ فضل الكتمان . ولما سمعه يناديه وقف واسرع الى حافة السفينة فاذا هو بقرب قصر الخلد حيث يقيم الرشيد وقد اضيءَ القصر بالشموع الملونة وانبعثت الانوار من النوافذ على اغراس الحديقة وتضوعت الروائح الزكية فاختلطت رائحة البخور والطيب بشذا الازهار والرياحين وتذكر ابو العتاهية المهمة التي هو ذاهب بها وما يتوقعه من وراء نجاحها من الكسب المالي فاغضى عما كان يبعثه عليه حب الاستطلاع وقال للربان وهو يضحك « هل ننزل في قصر امير المؤمنين ؟ »

قال « سننزلك وراءه بالقرب من الجسر »

قال « حسناً » وعاد الى التفكير في تدبير ما ينبغي ان يقولهُ لفنحاس صاحب دار الرقيق اذا لقيه وأخذ يعد نفسه للمسير على قدميه المسافة الباقية وما هي قليلة وودّ لو ان هذا الجسر مفتوح مثل الجسر السفلي ليتم سفرته بالسفينة فاصلح عمامته وشد منطقته فوق القباء وتزمل بالعباءة حتى اذا دنت السفينة من الشاطيء الغربي القوا له خشبة تحوّل عليها وهو يثني على الربان لحسن وفادته وذهنه لا يزال عالقاً بما شاهده هناك ولكن سروره بما امله من الكسب انساه كل شيء

الفصل الرابع

عتبة

فلما وطىء الشاطىء سار مهرولاً نحو الشمال حتى قطع شارع باب خراسان ودخل في شارع دار الرقيق فرأى الحوانيت قد اقفل معظمها والاقدام لا تزال مزدحمة بعابري السبيل . فحدثته نفسه ان يكتري حماراً يركبه فغلب عليه البخل فظل ماشياً وهو يطيل خطواته حتى أقبل على دار فنحاس وهي قصر كبير لان الرجل كان من اهل اليسار والثروة بما كان يكتسبه من تجارة الرقيق وكان اكثر بيعه للخلفاء او أولادهم فاذا وقف على جارية جميلة او غلام جميل أنفذ بعض السماسرة الى دار الخليفة او الامير اوغيرهما يسعون في ترويج تلك السلع وكثيراً ما يكون الوسيط بالسمسرة بعض المقربين من بطانة الخليفة او ولي عهده ممن يحبون الكسب من هذا السبيل وخصوصاً الشعراء والمغنيين ولم تكن هذه اول مرة اكتسب ابو العتاهية بها مالا بالسمسرة

فلما أطل أبو العتاهية على قصر فنحاس انتبه لنفسه وقد مضى هزيع من الليل فخاف ان يكون الرجل قد ذهب الى الفراش لانه قلما يطيل السهر اذ ليس هو مغرماً بالسماع او مجالس الشراب وانما همه ان ينفق سلعته على أهل اللهو ويسره أن يبالغوا بالترف والقصف لتزداد ارباحه . فكانت عادته ان يتناول عشاءه عند الغروب فاذا اذن العشاء ذهب الى فراشه . وكان أبو العتاهية يعلم ذلك ولكنه أمل ان يكون فنحاس ساهراً تلك الليلة — فلما أطل على القصر رأى فيه الانوار على غير المعتاد فانشرح صدره وعدّ ذلك من أسباب توفيقه فتحول من شارع دار الرقيق نحو اليسار في طريق يؤدي الى القصر . فلما دخل الزقاق المؤدي الى بابه رأى عند الباب أشباحاً وسمع عن بعد لغطاً فاصاخ وتفرس فرأى دابتين ترجل عنهما شخصان معهما غلامان فدهش لما علم انهم الرفاق الذين شاهدهم في السفينة وتبادر الى ذهنه حينئذ ان الغلامين من الرقيق جيء بهما للبيع ولكنه لم يجد على الرجل هيأة النخاسين أو التجار وانما هو من اهل البداوة

فتباطأ ابو العتاهية وانزوى في مستتر بحيث يرى ويسمع ولا يعلم به أحد فرأى الرجل الشيخ بعد ان ترجل عن البغلة وهو يحمل الغلام على كتفه امسك بحلقة الباب

ودقها دقاً عنيفاً ووقف ينتظر الجواب فابتدرته المرأة قائلة « هل تظنهم في انتظارنا ؟ »

فاجابها الرجل « لا بد من ذلك . الا ترين الانوار في القصر ... ؟ لا بدّ ان تكون مولاتنا في انتظارنا هنا على احر من الجمر لاننا أبطأنا عليها »

فلما سمع ابو العتاهية كلامهما لم يجد فيه لغة أهل مكة ولا المدينة بل هو اقرب الى لغة اهل بغداد المولدين فزادت رغبته في معرفة سر هذا الامر وما لبث ان رأى خوخة الباب فتحت واطل منها رأس امرأة بيدها مصباح قد وقع نورهُ على وجهها وظهرت ملامحها ظهوراً تاماً فشاهد وجهاً مشرقاً وعينين سوداوين وحاجبين مقوسين ومبسماً لطيفاً وشعراً قد ضفر ضفراً بسيطاً . وتدلّ قيافتها على الاجمال انها من الجواري البيض وانها في نحو الاربعين من عمرها ولا يزال الجمال ظاهراً في عينيها . ولما وقع بصره عليها خفق قلبه لانه تذكر وجهاً يعرفه ويحبه وكان عالقاً بصاحبته منذ بضع عشرة سنة وقد منعت عنهُ وبقيتْ لذلك حرقة في قلبه فأخذ يتفرس بالمرأة ليتحقق ظنه واذا هي تقول بلهفة « جئتم ؟ الحمد لله ... لقد ابطأت علينا يا رياش »

قال « لقد ابطأنا رغم ارادتنا اسألي برّة عما لاقيناه من العوائق في أثناء الطريق ألم نذهب اولاً لعند سيدنا اعزّه الله فابقانا عنده الى ؟ المساء ..... فجئنا من عنده توًّا الى هنا ... هل مولاتنا هنا يا عتبة ؟ »

فلما سمع ابو العتاهية ذلك الاسم بعد ان سمع صوت الجارية بغت وتزايدت ضربات قلبه وتحقق انها الجارية التي كان يهواها في ايام المهدي وقد اكثر من تشبيبه بها وهو لا يجسر ان يطلبها منه فاحتال في عيد النيروز فاهدى الى المهدي برنية فيها ثوب مطيب وكتب على حواشيه بيتين يعرّض بطلبها منه وهما :

نفسي بشيءٍ من الدنيا معلقة ... الله والقائم المهديُّ يكفيها
اني لأيأس منها ثم يطمعني ... فيها احتقارك للدنيا وما فيها

فأدرك المهدي يومئذ غرضه فهمّ بدفع عتبة اليه . فجزعت الجارية وقالت « يا أمير المؤمنين حرمتي وخدمتي اتدفعني الى رجل بائع جرار ومتكسب بالشعر » فأعفاها وقال املوا له البرنية مالاً وأوصاه ان يكفّ عن التشبيب بها فكف ابو العتاهية عن ذكرها ولكن حبها ما زال في قلبه . ولما مات المهدي وتفرقت جواريه لم يعلم اين كان مصيرها فلما رآها في تلك الليلة هاجت في قلبه حرارة الشباب ولكن استغرابه مما يراه شغله عن تلك الذكرى

الفصل الخامس

دار فنحاس

اما عتبة فكانت قد عادت من الخوخة وأمرت البواب ففتح الباب فدخل الرجل (رياش) يحمل احد الصبيين على كتفه راكباً عرضاً وقد القى الصبي رأسه على زنديه فوق رأس الرجل واستغرق في النوم وذؤابتا شعره مرسلتان على كتفيه فوق الدراعة وكذلك كان الصبي الآخر على كتف المرأة. وعتبة تسير بين يديهما بالمصباح في فناء الدار حتى تواروا عن بصر ابي العتاهية . ثم رأى البغلتين في الزقاق عائدتين يسوقهما المكاري فظل واقفاً وهو يفكر في ما رآه وقد نسي المهمة الاصلية التي جاء من اجلها وأصبح همه كشف ذلك السر وخصوصاً بعد ان سمعهم يتساءلون عن مولاتهم فقال في نفسه « من عسى ان تكون تلك المولاة ؟ لعل في الامر سرًّا اكتسب من وراء كشفه مالاً » فرأى ان يؤخر دخوله هنيهة لئلا يلحظ اهل البيت انه عرف شيئاً من امر القادمين فاذا دخل بعد ذلك احتال في كشف السر فتربص حتى سمع صرير الباب ورآه يغلق ثم سمع صوت ايصاده فتقدم نحوه ودقه بالحلقة فسمع رجلاً ينادي « من ؟ »

فاعاد القرع ففتحت الخوخة وأطل رجل من انباط السواد اسمه حيان كان فنحاس قد جعله بواباً وكان يعرف ابا العتاهية وشاهده هناك غير مرة . فلما رآه في تلك الساعة وقد توسط الليل استغرب قدومه لكنه رحب به وفتح له فدخل ابو العتاهية وهو يتظاهر بالتعب وقال « هل مولاك في البيت ياحيان ؟ »

قال بلهجة الانباط وهم يلفظون الحاء هاءً والعين همزة والقاف كافاً « نأم .. هل تريد الدخول أليه ؟ »

قال وهو يمشي في فناء الدار « لم يكن مرادي الدخول عليكم في هذه الساعة لو لم أر البيت مشعشعاً بالانوار على غير المعتاد لاني لم اعهد المعلم فنحاس يظل ساهراً الى ما بعد العشاء فاستغربت ذلك واحببت ان اعرف الباعث على هذه السهرة فارجو ان يكون السبب احتفالكم بزواج او قدوم قادم » قال ذلك وهو يمازح البواب لعله يبيح له بشيء

فاجابه « ليس ثمَّ ما يكلك الراهـة ولكني لا أأرف سبب السهرة .. » ثم بدَّل الحديث حالاً فقال « أتريد ان ترى سيدي الآن ؟ »

قال نعم « اين هو ؟ »

فقال « اني ذاهب لادأُوه لك » واسرع في مشيته حتى دخل في دهليز اتصل منه الى سلم صعد عليه وابو العتاهية يتبعه لئلاَّ يبقى خارجاً ويحدث ما يمنعه عن الصعود وكان الدهليز والسلالم كلها مضيئة بالشموع ولكنه لم يرَ احداً من الخدم او الجواري في طريقه ولم يكن يسمع ضوضاء ولا غوغاء فعلم ان القادم يريد التستر . ثم وصل حيان الى غرفة تعوَّد ابو العتاهية ان يجالس فنحاس فيها وكانت مظلمة فادخل اليها حيان مشمعة فيها عدة شموع ودعاه للجلوس فجلس وذهب النبطي ليدعو مولاه فمكث ابو العتاهية في انتظاره وهو يدبر الحيلة للبقاء هناك تلك الليلة و يودُّ ان يعرف مقرّ اولئك الاضياف في القصر فسمع صوت غلام يضحك فعرف انهم في غرفة قريبة من غرفته يعرف الطريق اليها

ثم عاد حيان وهو يقول « ان سيدي ذهب الى الفراش .. هل ايكظه ؟ »

فاستبشر ابو العتاهية بنومه وقال « دعه نائماً وساقابله في الصباح .. » قال ذلك وتثاءب وتمطى يظهر التعب والنعاس فقال له البواب « هل تريد الرقاد ام آتيك بالطعام قبلاً ؟ » (مع تحريف الاحرف بلفظهِ)

قال « لا حاجة بي الى الطعام ولكنني اشكو التعب فقد كنت في مكان بعيد وتعبت من كثرة الركوب ولما اقتربت من قصركم ورأيت الانوار فيه قلق خاطري واتيت لاقضي ساعة مع المعلم فنحاس فصرفت الدابة والمكاري ولا ادري اذا احببت الذهاب هل اجد دابة بقرب هذا المكان »

فقال حيان « اذا كان لا بد من ذهابك فان في الاصطبل دواب كثيرة ولكني لا ارى حاجة الى السرعة فاستريح عندنا الليلة واذا شئت الرقاد اخذتك الى حجرة فيها فراش »

قال « ولكنني لا استطيع النوم في النور على هذه الصورة »

قال « قد اخذنا في تطفئة الانوار ولا تلبث ان ترى القصر مظلماً »

فقال « اذا كان الامر كذلك فافضل الرقاد هنا اولى من ان اذهب واعود بالغد لاني جئت الى المعلم فنحاس بامر تجاري فيه كسب كثير بحول الله .. »

فازداد البواب رغبة في استبقائه لعلمه ان سيده يتوقع منه ذلك لكثرة جشعه للمكاسب مع ما عنده من الثروة الطائلة . وكان فنحاس انما يهمه كسب المال ولا يبالي بالطريقة المؤدية الى كسبه فكثيراً ما كان يغضي في سبيل ذلك عن امور لا يغضي عنها

الحرُّ وعذره ان الناس على ضلال في امر دنياهم فهم يتمسكون بامور اعتبارية لا طائل تحتها يسمونها الشرف او عزة النفس و يبذلون في سبيلها حياتهم او يضيعون بها اموالهم و يفوتهم كثير من المكاسب الطائلة كأن الشرف يشبعهم اذا جاعوا او يدفئهم اذا بردوا او يرويهم اذا عطشوا . اما المال فهو عنده السلطان او هو الصولجان فمن قبض عليه كان سلطانا تطأطئ له الرؤوس و يخدمه الرؤساء .. تلك هي مبادئ المعلم فنحاس وكان ابو العتاهية يعرف ذلك فيه وكثيراً ما يستعين به في اعمال يكسب بها الاثنان على نحو الكيفية التي جاء عليها تلك الليلة

فلما توسم البواب من ابي العتاهية ما يسرّ مولاه الخ عليه بالرقاد هناك ودعاه ان يتبعه فسارا وابو العتاهية يتنصت و يتلفت لعله يتحقق الغرفة التي تتوق نفسه الى معرفة سرّ اهلها ثم وقف حيان امام باب فتحه ودعاه الى الدخول والمشمعة بيده فدخل فاذا هناك فراش على طنفسة لا باس منها فقال ابو العتاهية « هذا فراش نظيف كثر الله خيرك » واظهر انه يريد الرقاد فتركه حيان ومضى وكان ابو العتاهية قد عرف الجهة التي فيها اولئك الناس فلما ذهب حيان وقد اطفئت الانوار ونام كل اهل البيت نزع عمامته وعباءته وتخفف بطاقية كانت على الفراش وخرج يتلمس الحائط وركبتاه ترتجفان وقد نام اهل القصر واستولى السكوت على المكان واصبحت معرفة تلك الغرفة اقرب من حبل الوريد فاذا لم يدلّ عليها الصوت دلّ عليها النور المنبعث من شقوق بابها

الفصل السادس

التلصص

فما عتم ان وصل الى الغرفة وهو يسمع اناساً يتكلمون همساً كانهم يحاذرون ان يسمعهم احد فوقف بالباب ونظر من ثقب فيه الى الداخل فرأى امرأة عليها ثياب الملوك وهيبة الملائكة جالسة على سرير في صدر المكان وفي حجرها ذانك الطفلان وقد ضمتهما الى صدرها واخذت تقبلهما وعيناها تتلألأ الآن بالدمع وفي ملامح وجهها مزيج من علامات السرور والحزن فلا تدري أهي تبكي فرحاً او حزناً . وتفرس ابو العتاهية بتلك المرأة فاذا هي بين الخامسة والعشرين والثلاثين من عمرها في وجهها جمال وهيبة لم يشاهد مثلهما مع كثرة ما

رآه في عمره من الجواري الحسان في دور الخلفاء او ولاة العهد ولا في دار جعفر البرمكي او غيره من البرامكة . ورأى فرقاً كبيراً بين ما يعرف من جمال اولئك وما في جمال هذه من الهيبة والوقار . ولو تاملت في تلك الهيبة لرأيت مصدرها العينين ولم تكونا كبيرتين ولا واسعتين ولكنهما ترسلان اشعة براقة . ولم يكن فيهما ذبول مثل سائر عيون الغواني بل كانتا حادّتين يشعر الرجل اذا نظرتا اليه انهما اخترقتا صدره واصابتا قلبه واستطلعتا خفايا سرّه . ولم يكن لون الفتاة ابيض مع تفاخرهم يومئذ بجمال ذلك اللون بل كانت حنطية مشربة حمرة . ولها مبسم ينطق بغير كلام و يدل على عواطفها كما تدلّ المرآة على ما يقابلها . ورأى ابو العتاهية على جبينها عصابة مكللة بالجوهر فدُهش لهذه العصابة على الخصوص لانه لم يكن رأى مثلها من قبل واول من اتخذ العصائب المكللة بالجوهر علية بنت المهدي (اخت الرشيد) فعلت ذلك اذ كان في جبينها فضل سعة شوّه جمالها فاحدثت العصائب المذكورة لتستر ذلك العيب فكان من اجمل الاختراعات . ولم يكن ابو العتاهية رأى ذلك لانه لم يكن شائعاً

وكانت قد صففت شعرها تصفيفاً بشكل جمة تعرف بالجمة السكينية نسبة الى سُكينة بنت الحسين لانها اول من صففها . و رأى ابو العتاهية في مقدم تلك الجمة طرة مرصعة بالماس على شكل طائر عيناه من الزمرد وفي اجنحته فصوص من الياقوت الاحمر مرتبة بين فصوص الالماس ترتيباً عجيباً وقد اشترك تلألؤها باشعة النور حتى توهم ابو العتاهية ان الغرفة مضيئة من نور تلك الطرة وليس من الشموع . وقد غطت رأسها بخمار من الحرير عنابي اللون مزركش بالقصب . وفي اذنيها قرطان كل منهما لؤلؤة واحدة بقدر بيضة الحمامة وفي عنقها عقد من الجوهر في غاية التناسب . واما ثوبها فمن اثمن المنسوجات ولكنه كان في غاية البساطة لونه سماويٌّ على حواشيه وشي دقيق . فذهل ابو العتاهية لمنظر تلك الفتاة وقال في نفسه « لا شك ان هذه الحورية من اهل بيت الرشيد ولا بدَّ لها من شان سري اذا اطلعتُ عليه ابتزت الاموال بهِ »

ونظر في جوانب الغرفة فرأى الرجل والمرأة لا يزالان بثياب اهل الحجاز وقد قعدا على الارض باحترام وتهيب وخصوصاً الرجل وكان كهلاً قد وخطه الشيب . وتفرس ابو العتاهية في وجهه فلم يرَ فيه ملامح اهل البادية فعلم انه تنكر بذلك اللباس لغرض ما واما المرأة فلما رأى وجهها بالنور تبين له ان اصلها جارية من الجواري وقد كبر سنها — واما صاحبته عتبة فاستلفتت انتباهه على الخصوص وكانت جالسة بين يدي

السرير تخفف عن مولاتها وتلاطفها . وتأمل ابو العتاهية في عتبة فرأى الجمال لا يزال في وجهها وقد تغيرت عما كانت عليه من قبل فازدادت سمناً وبضاضة . وكانت في تلك الليلة مكشوفة الرأس وقد ضفرت شعرها بضع عشرة ضفيرة علقت في طرف كل منها قطعة من النقود او المصاغ وفي عنقها عقد ثمين وفي زنديها الاساور والدمالج وعليها ثوب لونه احمر مشجر بعروق خضراء

فدهش ابو العتاهية من تلك المناظر واصطكت ركبتاه من التأثر واتعبه الانحناء لانه لم يكن يستطيع النظر من ذلك الثقب الا اذا انحنى . على انه كان صابراً يتنصت لما دار من الحديث هناك واول كلمة طرقت أذنه ساعة وصوله الى الباب عبارة عرف من غنتها انها لصاحبتهِ عتبة وهي قولها « لا بأس عليك يامولاتي .. لماذا تبكين ؟ »

فرفعت تلك الفتاة رأسها الى عتبة وضمت الطفلين الى صدرها وهي تقول وصوتها مختنق من البكاء « قلبي يحدثني يا عتبة انها آخر مرة اراهما فيها »

فصاحت « معاذ الله يا مولاتي بل ارجو ان تريهما مزاراً في كل عام كما كنت تفعلين الى اليوم . وهذا رياش حفظه الله لايدخر وسعاً في القدوم الينا كلما امرتِ ... وعسى ان يقضي الله باطلاق حريتك فيكونان معك في كل حين »

فتنهدت الفتاة وقالت « آه يا عتبة انك تتمنين محالاً ... لان غريمنا ظالمٌ مستبدٌّ له السلطة المطلقة وقد انغمس في ملذاته وتمتع بكل ما تشتهيه نفسه واصبح لايبالي بسواه هلك عطشاً او مات جوعاً او ذاب لوعةً .. انه رجل لا شفقة عنده ولا رحمة وانما يهمه ملذات نفسه » قالت ذلك وهي تستخرج من كمها منديلاً من الحرير مزركشاً بالقصب مسحت دموعها به

فقالت عتبة « تلك حال الرجال على الاطلاق يامولاتي فانهم اصحاب السيادة وقد فضلوا انفسهم على المرأة فحللوا لانفسهم ما حرموها منه وتمتعوا بما حظروه عليها . يتزوج الرجل عدة نساء ويقتني الجواري والسراري ويمنع المرأة من ان تتزوج برجل تحبه ويحبها .. ولكن ... »

فقطعت الفتاة كلام الجارية وقالت « ليس بين الرجال من عمل عمل اخي ولا بين النساء من اصيب بمصابي ... زوّجني برجل هو جمعني به وحبيني اليه وعقد لهُ عليَّ ثم حرَّم علينا من ثمار ذلك العقد ما حلله الله لاحقر خلقه . وهو مع ذلك يخطر في قصره وحوله مئات من الجواري الروميات والتركيات والفارسيات والسنديات وفيهن البيض

والصفر والحمر والسمر والسود .. » ولما بلغت الى هنا غصت بريقها وشرقت بدموعها . وكان الغلامان في حجرها وكبيرهما ينظر في وجهها نظر الاستغراب وهي تتكلم فلما رآها تبكي شاركها في البكاء ولما رآه آخره يبكي بكى ايضاً وبكت عتبة وعلا ضجيج البكاء في تلك الغرفة

ثم رأت عتبة ان تتجلد وتخفف عن مولاتها فقالت لها « لا يخفى عليك يا مولاتي ان اخاك امير المؤمنين حرسه الله لم يمنعك من الزواج بذلك الوزير الاّ لعدم كفاءته فانك بنت خليفة وأخت خليفة يتصل نسبك بعم النبي . والوزير مولى فارسي مثل سائر الموالي فكيف تتزوجينه ومثلك تتزوج احد ابناء عمها الهاشميين ... فأمير المؤمنين مشهور بحبه لك وانما منعك من الزواج تنزيهاً لمقامك »

فصاحت « ويلك ياعتبة ... ألا تزالين مخدوعة بهذه التمويهات .. ؟ اذا كان اخي يعد الزواج بالموالي او العبيد حطة لمقام الخلافة فما باله يتزوج هو بالجواري ويستولدهن ويولي اولادهن العهد بالخلافة ... العل الجارية ارفع مقاماً من المولى ؟ ناهيك بما في قصوره من الجواري للتسري بلا عقد .. فلماذا لا يقتصر بالزواج على ابنة عمه زبيدة مع ما يظهره من حبها واحترامها ولكنه اطاع شهواته ولم يجد من يصده فانغمس واترف ورآني ضعيفة فاستبدّ فيّ . عرّفني بشاب لا اعرف في ابناء عمي من بني هاشم احسن منه وزوجني به ثم منعني منه واصبحنا نعد التقرب خيانة ونخاف ان يطلع أحد على سرنا كانا من اهل الفجور نعوذ بالله ... ولكن من يستطيع ان يقول ذلك لاخي ولا تكون حياته في خطر ؟ .. »

الفصل السابع

العباسة عروس الرواية

وكان ابو العتاهية قد آلمه ظهره وهو منحنٍ عند الباب ينظر من ذلك الثقب ورجلاه ترتعدان وهو يمسك انفاسه مخافة ان يشعر به احد ولما سمع ما دار من الحديث علم ان الفتاة هي العباسة اخت الرشيد . وكان عالماً ان الرشيد عقد عليها لجعفر بن يحيى البرمكي وزيره ليحل له النظر اليها لان الرشيد كان يحب جعفر ويجب الاجتماع به ولا يصبو على بعده

وكان الرشيد يحبُّ اختهُ العباسة ايضاً ويحب ان يراها كثيراً فعقد لجعفر عليها حتى يحل له ان يراها فقط وخوّفه مما وراء ذلك . وعلم ابو العتاهيـة مما رآه وسمعه ان جعفر تزوج العباسة سرًّا وان الغلامين اللذين معها هما ثمرة ذلك الزواج وانها تخاف ان يعرف اخوها الرشيد بذلك فيقتلها . فخفق قلب ابي العتاهية فرحاً بذلك الاكتشاف لما يرجوه من الكسب الكثير بواسطته لعلمه ان اعداء جعفر يبتاعون مثل هذه الوشاية بالوف من الدنانير وخصوصاً الفضل بن الربيع لاسباب تقدم ذكرها . ودمعت عينا ابي العتاهية ليس تأثراً من حالة العبـاسية بل من طول حملقته وتطلعه من ذلك الثقب واحسَّ وهو في تلك الحالة الحرجة ان العطاس يكاد يدهمه فخاف ان يعطس فيفتضح امره فجعل يفرك ارنبة انفه حتى اذهب العطاس عاد الى التلصص والتفرس وكان قد سمع عتبة تخفف عن العباسة وتقول لهـا « دعينا من النوح الآن فقد تكبدت المشقة والخطر لتشاهدي ولديك فانشقيهما وقبليهما ودعي التقادير تجري بما يشاء الله »

فاطاعتها وكان الغلامان في حجرها وهما شاخصان اليها وقد استغربا ما رأياه منها فلما رأتهما ينظران اليها والدمع لا يزال في عيونهما لم تتمالك عن الابتسام وعيناها تقطران دمعاً وتناولت الكبير وضمتهُ وجعلت تقبله في خديه وفي عينيه وجبينه ورأسه وعنقه وصدره وتستنشق ريحه وهو مغرق في الضحك يحسبها تلاعبه او تداعبه — وانىَّ له ان يشعر بما يجول في خاطرها او بما يهيج من عواطفها وهو لا يعرف من ملاذ الدنيا الا الاكل والشرب ولم يكابد من حوادث الزمان الا اللعب بالرمل او بالكعاب او بغيرها من الالعاب وما مطامع الدنيا عنده الا ثدي امه . فاذا فطم كان همه بطنه ومطمعه عجلة يدبرها او كرة يلاعبها وتسليته حصي يبني بها بيتاً أو طينا يصطنع منه تمثالاً . يرى المائت فيظنهُ نائماً ويلقى الثعبان فيحسبه حبلاً . لا يخاف الهجر ولا يحاذر الفقر ولا يعرف نوائب الدهر . ربما احب هرَّةً تلعب بين يديه اكثر مما يحب والديه لانه يحب كل ما تنتهي راحته اليه . ولو عقل لقاس تعلقه بطير عاشرهُ بضعة أيام ثم ذهب عنه كم يكون اسفه عليه فكيف يكون تعلق الوالدة بابنها وهو حشاشة قلبها وبضعة من نفسها ومثال حبيب قلبها . ولا لوم على الاطفال اذا لم يدركوا حب الوالدة لانه سرٌّ مغلق على غير الوالدين ومهما يكن من ارتقاء عواطف الشبيبة واختلاطهم بالعائلات ومشاهدتهم حنو الوالدات فهم لا يدركون حقيقة ذلك الحنو حتى يولد لهم الاولاد فيذوقون مرارة التربية وحلاوتها بين مداعبة ولد يشرق وجههُ صحة ويسيل كلامه لطفاً وتزيده المكنة عذوبة وسهرٍ على طفل يقاسي الالم

ويعجزه التعبير عن موضعه لاحتباس كلامه او يكتمه خوفاً من مرارة الدواء والوالدان بين ذلك يراقبان حركاته ويحصيان انفاسه وقد غلّت ايديهما وتفطر قلباهما وضاقت الدنيا عليهما . ولا سيما الوالدة فانها الصق بولدها في طفوليته اذا مشى مشي قلبها معه او ضحك رقصت جوارحها له واذا تكلم كانت كلها آذاناً لعله يلتمس منها شيئاً يسرّه ويسرّها ان يناله ولو كان في نيله شقاؤها . وهي تزداد حباً له كلما تعذبت في تربيته ويزداد حنوها اليه بزيادة شقائها به . فمن اين لغير الوالدين ان يفقهوا ذلك او يدركوا حنو الوالدة — حتى المتزوجين الذين لم يرزقوا اولاداً فانهم لا يستطيعون ادراك حب الوالدة لولدها الا تخيلاً واين الحقيقة من الخيال

الفصل الثامن

البغتة

فكانت العباسة تستنشق ريح ابنها وهي تجهش بالبكاء وقلبها يتردد بين اليأس والرجاء والغلام يضحك والسداجة الفطرية ظاهرة في وجهه وسلامة النية وطهارة القلب باديتان في كل حركة من حركاته . وقد اصاب المصورون اذ شبهوا الملائكة بالاطفال فانهم مثال الطهارة والقداسة وصدق اللهجة فهم لا يخفون عواطفهم ولا يكظمون ما في نفوسهم ولذلك كانت الشعائر الطبيعية ظاهرة فيهم واقواها حب الذات . فالطفل يحب ذاته ويحب كل ما يرى فيه نفعاً لنفسه . وهو يحسد ولكنه لا يكظم بل يظهر ذلك فيه ولا يستحي من اظهاره — ولذلك فلما رأى احد الاخوين امه تلاعب أخاه وتقبله القى نفسه على صدرها كانه يزاحمه على ما يكنّه ذلك الصدر فقبلته العباسة ثم التفتت الى عتبة وعيناها تتكلمان عنها وما تمالكت ان قالت لها « ما الطف هذين الولدين وما الطف اسميهما (الحسن والحسين) هل يسمح لي الله ان اعيش معهما ولو في كوخ حقير او في خيمة بالبادية »

فابتدرتها عتبة قائلة « ان الله على كل شيء قدير ... الا تظنين ان رجوعك الى قصرك قد آن فان الفجر اصبح قريباً ونخاف ان يشعر احد برجوعك فنقع فيما نتخوفه »

قالت « يعز عليّ الذهاب ياعتبة ولكن لابد منه ... اين الدراهم التي اتيت بها معك ؟ . ادفعيها الى رياش .. »

فتناولت بدرة من الدراهم ودفعتها اليه فتناولها واثنى على العباسة ونهض فقبل يدها وكذلك فعلت برّه فقالت لهما العباسة « لا حاجة بي ان اوصيكما بالحسن والحسين فانهما فلذه كبدي »

وكان الحسن اكبرهما سناً فلما تحقق عزم والدته على الفراق ورآها وقفت ترامى عليها وامسك بيدها واسند خدّه على راحتها وقال وصوته مختنق « تعالي معنا يا ماما ... وقولي لابي يجيء معنا ايضاً .. »

فنظرت العباسة الى الغلام فرأته يرنو اليها وفي عينيه دمعتان تترددان بين المآقي وشفتاه ترتجفان ولا تطاوعانه على الكلام . وكانه يحاول التلفظ ويحاذر ان يسبقه البكاء وقد غصّ بريقه . فلا تسل عن قلب العباسة عند سماعها تلك العبارة ومشاهدتها ذلك المنظر المؤثر وقد كانت من اول اجتماعها بابنيها تتخوف من ساعة فراقهما وتغالب نفسها وتتجلد وقد ضاق صدرها لاحتباس عواطفها . فلما رأت ما رأته وسمعت الحسن يذكر والده ويطالبها به على تلك الصورة غلبتها عواطفها واحست بما تكابده من ألم الفراق وثقل المحاذرة والتخوف فلم تتمالك ان قعدت بغتة وهي تضم الغلام الى صدرها وتصيح « صدقت يا ولداه » وأغرقت في البكاء حتى اغمي عليها

وكانت عتبة واقفة تراعي حركات مولاتها وتشاركها في كل عاطفة من عواطفها وقد همت ان تخفف عنها فلما رأتها قعدت بغتة خافت عليها من الاغماء لانها شاهدت اغماءها على تلك الصورة غير مرة فلما سمعتها تصيح وتبكي تحققت غيبوبتها فتناولت احدى الشموع من المشمعة وهرعت الى الباب وفتحته لتستدعي خادماً يأتيها بالماء لترش سيدتها . وكان ابو العتاهية لا يزال واقفاً ينظر من ثقب الباب . فلما اسرعت عتبة اليهِ وفتحته على غير انتظار والشمعة بيدها بغتَ وارتبك في أمره وكاد الدم يجمد في عروقه فوقف كأنهُ صنم من الاصنام وبصرهُ شاخص كأنهُ لا يرى شيئاً . اما عتبة فظنتهُ لاول وهلة بعض خدم المنزل فصاحت بهِ « هات الماء » ثم علمت من لباسه انه ليس من الخدم فاستغربت وقوفه هناك على هذه الصورة . اما هو فلم يطل جموده الا لحظة ثم انتبه لنفسه وحوّل وجهه وطلب الفرار . فلما تحرك تذكرت انها تعرفه ثم فطنت الى انه ابو العتاهية فاشكل عليها امره وهي في تلك الحال من القلق على سيدتها خوفاً عليها من الاغماء فغلب عليها ذلك القلق فاسرعت الى غرفة الخدم وصاحت بهم فنهض بعضهم وجاءها بالماء فعادت الى سيدتها ورشتها بهِ فافاقت . واخذت تخفف عنها وخاطرها مشتغل بابي العتاهية وادركت من ارتباكه عند رؤيتها

انهُ كان يتلصص لرؤيتهم ولا بدّ انه سمع شيئاً من احاديثهم وهي تعلم انه لا يؤمن على مثل هذا السرّ وان اطلاعه على أمر هذين الغلامين خطر على العباسة . فكانت تخاطب مولاتها وتخفف عنها والقلق والارتباك باديان في وجهها وهي تتردد بين ان تطلع العباسة على هذا الامر او تكتمه عنها ولكنها فضلت كتمانه لئلاَّ تزيد احزانها ومخاوفها . على انها عزمت على تدبير وسيلة تمنع ابا العتاهية من افشاء هذا السرّ فلما عزمت على ذلك ذهب قلقها وعادت الى التهوين على العباسة والتخفيف عنها واشارت الى رياش ان يذهب هو وبرة بالغلامين اولاً فاطاعها ونهض فحمل الغلامين على كتفيه وهو يلاعبهما ويضاحكهما وكانا قد تعوَّدا عليهِ وتعلم هو بما يلهيهما بهِ من المواعيد او نحوها . فسكتا وظلت عتبة بجانب العباسة تشاغلها وتسايرها وهي تتنهد ولا يزال اثر الاغماء باديًا فيها . فلما خرج رياش وبرَّه امرت الخادم الذي كان قد جاءها بالماء ان يستقدم حيان فذهب ثم عاد وحيَّان معهُ وآثار النعاس ظاهرة في عينيهِ لانهم نادوه وهو مستغرق في النوم فجاء وعلى رأسه طاقية لم تستر الاَّ بعض شعره فوقف بين يدي عتبة فقالت لهُ « ان مولاتي تتقدم اليكَ ان ترسل مع هذين من يدبر لها مركبًا يركبان عليهِ الى دجلة »

الفصل التاسع

الهاجس

فاشار بيد يهِ على رأسه اشارة الطاعة وخرج وظلت العباسة وعتبة في انتظاره . ثم اظهرت عتبة انها تحتاج الى شيءٍ من حيان فخرجت لملاقاته وهو عائد فدعتهُ الى خلوة فخاطبته وفي يدها منديل فيه نقود وضعته في كفه وهي تقول « امرتني مولاتي ان اشكرك على الخصوص لعنايتك بنا وهذا المنديل هو لك هدية منها » ثم مدت يدها واستخرجت صرة اخرى دفعتها اليه وقالت « وهذه للمعلم فنحاس »

فاثنى حيان عليها جهد طاقته فقطعت كلامه قائلة « هل ابو العتاهية هنا من زمن طويل » وقد ذكرت اسمهُ تمويهًا على حيان انها واثقة بوجودهِ هناك

فقال « بل جاءنا الليلة »

قالت « اصدقني . . »

قال « قد صدقتك . فانه جاء لمقابلة المعلم فنحاس في هذه الليلة وكان المعلم قد ذهب الى فراشه فدعوته للمبيت عندنا فبات » قال ذلك بغير حذر ولا تردد فتحققت انه يقول الصدق فقالت « اطلب اليك خدمة لا تكلفك تعباً فهل تقضيها لي ؟ »

قال « على الرأس والعين »

قالت « اريد ان تستبقي هذا الشاعر عندكم ولا تدعهُ يخرج قبل ان اعود في صباح الغد »

فاستغرب طلبها وقال « اخاف ان يطلقه مولاي ولا يطيعني في استبقائه »

قالت « قل لمولاك ان امير المؤمنين يريد استبقاءه لامر يهمّهُ »

فلما سمع ذكر امير المؤمنين خفق قلبهُ لانه لم يكن يعلم من امر العباسة سوى انها امرأة من سراة بغداد استأجرت تلك الغرفة في تلك الليلة لامر خاص فقال « سأقول ذلك لمولاي »

قالت « احذر ان تستخفّ بقولي »

قال « سمعاً وطاعة »

فقالت « فاعدد لنا البغال ريثما نرجع » واسرعت الى سيدتها فرأتها في انتظارها وقد استبطأتها فسألتها عن سبب تغيبها فقالت انها ذهبت لايصاء حيان باعداد البغال فصدقتها ثم خرجنا حتى ركبتا ومضتا

اما حيّان فأخذ يفكر فيما سمعه من تحريض عتبة على الاحتفاظ بابي العتاهية فلم يفهم لذلك سبباً معقولاً وقد خوفه ذكرها امير المؤمنين ولكنه عزم على ابلاغ سيده ما سمعه منها في الصباح ليلقي تبعة ذلك عن عاتقه . وكان قد مضى معظم الليل فمضى الى فراشه

اما ابو العتاهية فانه فرَّ من وجه عتبة على تلك الصورة وقد ذعر وكاد الدم يجمد في عروقه من البغتة لكنهُ ظنها لم تعرفه فوصل الى فراشه وركبناه تصطكان فاستلقى بعد ان اغلق الباب ولبث صامتاً يتوقع ان يسمع صوتاً او يشعر بخفق نعال او حركة تدله على ما كان من تأثير تلك المقابلة . فمضت برهة وهو يحبس انفاسه مبالغة في الاصغاء و يصيخ بسمعه والعتمة قد تكاثفت وشبح عتبة نصب عينيه . واخذ يفكر في ماذا عسى ان تكون العاقبة على انه تخوف وغلب عليه الحذر . وكانت الحجرة التي بات فيها تشرف على الزقاق المؤدّي الى باب تلك الدار من نافذة كانت مقفلة فما لبث ان سمع قرقعة اللجم وجلبة السياس فنهض وتطلع من شق في النافذة فرأى رياشاً وبرة قد ركبا ومعهما الغلامان

فتربص ليرى ما يكون من امر العباسة وجاريتها فسمع حركة السياس في اعداد الركائب ورآهما خرجتا على بغلين وفي ركاب العباسة سائس يده على كفل البغلة وقد التفت بعباءة وغطت رأسها بما يشبه العمامة اخفاءً لحقيقة حالها . فتحقق ذهابهما فاطمأن خاطره وعاد الى فراشه واخذ يفكر في ما جاء من اجله الى فنحاس فعزم على ان يبكر في الصباح الى غرفته و يفاتحه بهذا الشأن ثم ينصرف الى بيت الامين او الى الفضل بن الربيع ويجيء مع من ينتدبانه لانتقاء الجواري

الفصل العاشر

طارق

نام ابو العتاهية وهو يهجس ونسي بغلته ولم ينم كثيراً حتى سمع جلبة في ذلك الزقاق يتخللها قرقعة اللجم وصهيل الخيل فذعر ووثب من فراشه الى النافذة ففتحها بلباقة فرأى الصباح قد لاح . واطلّ فرأى عدة رجال على افراس جياد عرف من سروجها وما عليها من اكسية الديباج انها من اسطبل الامين فخفق قلبه وتفرس بالراكبين فرأى بينهم الفضل ابن الربيع وحوله جماعة من حاشية الامين عرف اكثرهم ورأى في ركابهم جماعة من الخدم وسمع الفضل يقول « اظن القوم لا يزالون نياماً »

فأجابه احد الفرسان « لا بأس من ايقاظهم فان المعلم فنحاس لا يهمه الاّ كسب المال ولا يبالي بالنوم »

فقهقه الفضل ثم قال « الاّ اذا ظنّنا قادمين لمصادرته او الى امر يذهب بحياته »

فقال الفارس « لا خوف من المصادرة في ظلّ امير المؤمنين والذهب يتدفق من بيت ماله . ولا خوف من نكبته واهل الدولة في حاجة الى جواريه وغلمانه حتى امير المؤمنين . . »

وفي اثناء ذلك تقدم احد الخدم وقرع الباب واخذ الفرسان في التحوّل عن الخيول واول من نزل الفضل وكان طويل القامة رقيق العضل خفيف شعر اللحية اسمر اللون يخالطه صفرة ولا يزال في عنفوان الشباب وقد غلب عليه المزاج الصفراوي على اصطلاحهم فساعده على كتمان عواطفه والظهور بما يريده من التلبس بالصداقة لاعدائه والسعي في الوشاية عليهم . واهل هذا المزاج من اقدر الناس على الكظم والتظاهر بما يشاؤون من الاحوال

وكتمان ما تكنه ضمائرهم فهم لذلك يصبرون على الضيم ريثما ينتهزون الفرص لنيل مآربهم فلا يخرجهم الغضب عن طور التعقل كما يفعل باهل المزاج العصبي او الدموي الذين اذا غضبوا ظهرت امارات الغضب في عيونهم وجباههم ولذلك ندرت فيهم رباطة الجأش والصبر على المكاره

فلما تحقق ابو العتاهية قدوم الفضل قال في نفسه « لا بدَّ من امر بعث علي تعجله في المجيء ولا بدّ ان يكون الامين قد حمله على ذلك تشوقاً لما وعد بهِ نفسهُ من امر اولئك الجواري لاهتمامه باسباب القصف والترف ورغبته في الغناء . وخاف ابو العتاهية ان يحول قدوم الفضل في تلك الساعة دون ما يتوقعهُ من الكسب وهو لم يقابل فنحاس بعد فتحول عن النافذة وهرع يطلب غرفة فنحاس فرأى اهل الدار في هرج يتقدمهم حيَّان وقد اسرع الى الدهليز لاستقبال القادمين . وكان البواب قد انبأه بقدومهم فلم ينتبه لابي العتاهية . اما هذا فظلَّ سائراً الى غرفة المعلم فنحاس وكان بابها مقفلاً فدقه وهو يناديه قائلاً « العلَّ المعلم فنحاس لا يزال نائماً ؟ »

فلم تمضِ لحظة حتى سمع وقع خطواته داخل الغرفة ثم فُتح الباب واطلَّ منه المعلم فنحاس وهو لا يزال بلباس النوم ليس عليه الا السراويل والدراعة فوق القميص وفي عينيه رمص من ضعفهما وطول الرقاد وقد نبش شعر رأسه وانتفش واختل نظام سالفيه ولحيته . وكانت لحيته شمطاء يخالطها شيب قليل مع ميل الى الطول والاسترسال وهي مقسومة الى شطرين وانفه كبير مستدق قد ذهب طوله باحديدابهِ . وكان لبغتته في تلك الساعة قد نهض وقميصه مفتوح من اعلاه فبان اسفل عنقه واعلى صدره وفيهما تجعد يتخلله شعر اجعد لو رأيته في تلك الحالة لحسبته من المتشردين

اقبل المعلم فنحاس وهو يفرك عينيه ويمسح الرمص عنهما ببطن كفهِ وحالما وقع نظره على ابي العتاهية عرفه فصاح فيه « ما وراءك يا ابا العتاهية ؟ »

فدخل ابو العتاهية واغلق الباب وراءه وهو يقول « قد جئتك مساءَ الامس بمهمة وكنت نائماً فانتظرتك الى هذه الساعة ولما استبطأتك جئت لايقاظك فارجو ان لا اكون قد ازعجتك . »

فقال وهو يصلح لحيته وشاربيه ويقفل طوق قميصه « ليس ثم ازعاج .. قل ما الخبر »

قال « لا تخف فان المسألة رابحة ... قد حرضت مولانا ولي العهد على اقتناء بعض الجواري وان لا يبتاعهن الا من عندك وانت تعلم نفوذ الشعراء عند الخلفاء واهل

الدولة فاطاعني فجئت لاخبرك بذلك على ان لا تضيع تعبي ٠٠ »

فقطع فنحاس كلامه قائلاً « فهمت المطلوب ٠٠ كن مرتاحاً ٠٠ فمتى اتى رسوله بهذا الشأن اضفت نصيبك الى الثمن بارك الله فيك ٠ اليس هذا الذي تريده ؟ ٠ انك رجل غيور على مصلحتي ٠٠ واذا شئت جعلت نصيبك من البيعة جارية جميلة »

قال « لا حاجة بي الى الجواري كما تعلم ٠٠ »

فضحك وهو يفتش عن قبائه وجبتهِ وقال « طيب ٠٠ لا تخف فاني افهم بالاشارة فافهم انت ٠٠ ولا يتم الشرط الا بعد وقوع البيع »

قال البيع يتم في هذه الساعة لان الامين ارسل الفضل بن الربيع وقد وصل الى دارك وأظنهم ادخلوه الى دار الرقيق الان واحذر ان تطلع احداً على ما دار بيننا ٠٠ »

فوضع فنحاس يده على فم ابي العتاهية وقال « لله ما ابسطك ٠٠٠ كنت اظنك انبه من ذلك ٠٠ » ثم عاد الى تسريح شعره واصلاح شأنه فمشط لحيته وفتل سالفيه وشد على خصره منطقة فوق القباء ولبس الحبة وخرج ابو العتاهية في اثره واذا بحيان يسرع نحوهما فلما وقع نظره على ابي العتاهية اجفل وتذكر وصية عتبة فاراد ان يوقف مولاه ليخبره بالقادمين ويبلغه تلك الوصية فابتدره فنحاس قائلاً « فهمت مرادك ها اني ذاهب اليهم اين هم ؟ ٠٠ » وهو يحسبه قادماً ليخبره عن الفضل فقط ٠ فبغت حيان ولم يجسر ان يخبره بغرضه وخصوصاً بين يدي ابي العتاهية فسايره وقال « قد جاء مولانا الفضل بن الربيع فادخلناه دار الرقيق وهو في انتظارك هناك » واجل الخبر الآخر الى فرصة أخرى

اما ابو العتاهية فانه نظر الى حيان وتبسم على جاري العادة وهولا يعلم ما في ضميره فحياه حيان متأدباً ومشى في اثره

الفصل الحادى عشر

دار الرقيق

مشى المعلم فنحاس وهو يتعثر باذيال جبته حتي خرج من دهليز داره الى باب بجانب الباب الكبير هو مدخل دار الرقيق . فاشرف منه على فناء واسع تحيط به غرف عديدة ربما زاد عددها على ثلاثين غرفة . وكان الفناء مزدحماً بالخدم من رجال الفضل وانظارهم متجهة نحو تلك الغرف كانهم يشاهدون فيها شيئاً غريباً . وبجانب الباب من الداخل غرفة مفروشة بالطنافس وفيها الوسائد مصفوفة بين يدي الجدران وقد زخرفت تلك الجدران بالنقوش الملونة . وكان الفضل قد دخل هذه الغرفة مع بعض خاصته ولبث في انتظار المعلم فنحاس . اما هذا فحالما اقبل على الغرفة رأى الفضل في صدرها جالساً الاربعاء وقد اسند كوعيه على ركبتيه فهرع اليه مسرعاً واكبّ على يده ليقبلها وهو يبتسم ويتأدب فضحك له الفضل واجتذب يده منه وهو يقول « اظننا ازعجناك بهذه الزيارة »

قال « كلاّ يا مولاي فان زيارتكم حظ وشرف لنا »

فاشار اليه بالجلوس وهو يقول « ان مولانا ولي العهد رغب الينا ان نأتيه ببعض الجواري الحسان ممن يحسنّ الغناء وقد كان في الامكان ان نبعث اليك بعض خاصتنا في هذه المهمة ولكننا أحببنا زيارتك لمشاهدة دار الرقيق والتفرج بما حوته من اصناف الجواري والغلمان فقد قيل لنا انها تحوي من كل معنى طرب »

فقال وهو يتكمش ويتململ تأدباً « لقد تحملتم المشقة بهذه الزيارة فأوليتموني شرفاً لا استحقه وقد كنتم في غنى عن ذلك باشارة منكم فننقل دار الرقيق بجملتها الى ما بين يدي مولانا حفظه الله ولكن اقبال سعدنا حملكم على تكبد هذه المشقة . اما اذا شئتم ان تشاهدوا اصناف الرقيق التي في هذه الدار فترون فيها ما لا يجتمع في سواها لاني لم أدخر وسعاً في استقدام احسن الرقيق الابيض والاصفر والاحمر والاسود من الجواري والغلمان على اختلاف القدود واللغات والاسنان من المولد في العراق او الحجاز والمجلوب من اقاصي بلاد الترك والروم وطبرستان وخراسان والسند والمغرب وفيهم الصقابي والصقلبية والرومي والرومية والتركي والتركية والفارسي والفارسية والارمني والارمنية والسندي والسندية والبربري والبربرية ... »

فقطع الفضل كلامه قائلاً « هل عندك من الجواري المغنيات ؟ »

قال « كيف لا .. وقد تعلمن الغناء عند مغني مولانا امير المؤمنين نفسه وحفظن الاشعار المطربة واتقنّ الضرب على آلات الطرب وفيهنّ العوادة والطنبورية حتى صاحبة الدف والمزهر .. »

فضحك الفضل وقال « كأني بك تصف جواري امير المؤمنين ... ولكن اظن المغنيات اللواتي اشرت اليهن من الجواري الصفر والسود ومولانا انما يريد مغنيات من الجواري البيض »

فقال « كل ما يطلبه مولاي هو عندي »

قال « ولكن اهل بغداد لم يتعودوا تعليم الجواري البيض الغناء فانهم انما يقتنونهنّ للتسري كما لا يخفى عليك ولم اعرف احداً علم الغناء للبيض الاّ ابراهيم الموصلي مغني امير المؤمنين .. »

قال « الم اقل لمولاي انه يجد عندي كل ما يطلبه ؟ »

الفصل الثاني عشر

اصناف الرقيق

فتحفز الفضل للقيام فنهض المعلم فنحاس ونهض سائر الحاشية ومشى هو بين ايديهم حتى خرجوا من الغرفة الى فناء الدار فتسارع الخدم الى الانزواء وفتحوا الطريق للفضل فمشى والمعلم فنحاس يمشي بين يديه متأدباً وفي اثر الفضل رجال حاشيته . حتى اذا قطعوا الفناء وصلوا الى الغرفة الاولى من جهة اليمين وكان بابها مفتوحاً قليلاً ففتحه فنحاس بيده فرأى الفضل جماعة من الفتيات البيض صغيرات لا تتجاوز اكبرهن العاشرة من العمر وكلهن عاريات لا يكسو ابدانهن الا ما يستر العورة من الاطمار البالية . وخشونة البداوة ظاهرة عليهن بارسال شعورهن ساذجة لم يمسها المشط منذ خلقن . ولكنه رأى الجمال الطبيعي يتجلى في اشراق وجوههنّ بالبياض المشرب حمرة الدال على صحة البدن . ناهيك بجمال العيون وفيهن شقراء الشعر زرقاء العينين وسوداء الشعر والعينين وما بين ذلك . اما هنّ فحالما فُتح الباب ورأين الفضل ورجاله نفرن نفور الظباء من الصيادين

وظهر الخوف في وجوههنّ . ولكن الحجرة اضيق من ان تتسع لفرارهن فجعلن يتسترن بعضهنّ وراء بعض وعيونهن شاخصات وبعضهن اخذن بالبكاء واستغثن بلغة لم يفهمها احد من الوقوف . فدهش الفضل لذلك المشهد الغريب ونظر الى فنحاس فابتدره هذا قائلاً « لا تعجب يا مولاي لما تراه في هؤلاء من الوحشة فان معظم اللواتي في قصور الخليفة وسائر الامراء من الجواري الحسان والقيان المطربات كنّ في باديء الرأي مثل هؤلاء وقد اتيت بكم الى هذه الحجرة اولاً لاريكم حال الجواري عند اول قدومهنّ لتعلموا كم نقاسي في تربيتهن وتعليمهن حتى ينبغ منهن الجارية التي تباع بألف دينار او عشرة آلاف أو عشرين الفاً »

فقال الفضل « بالحقيقة انه عمل شاق .. هل كانت فريدة ومنة ودينار وام الخال وغيرهنّ من الجواري الفائقات في مثل هذه الخشونة ؟ »

قال « نعم . ان اكثرهن مجلوب على هذه الصورة »

قال « من اين تأتي بهنّ »

قال « ان النخاسين يخترقون بلاد الترك والصقالبة والروم ويتحملون المشاق والاخطار حتى يأتونا بهنّ »

قال « وكيف يجدونهنّ هناك ؟ »

قال « يأخذون البعض بالغزو والبعض [illegible] من والديهن او بعض اقاربهن بثمن بخس ويبيعونهن لنا باغلى الاثمان »

فقال الفضل « اليس حراماً ان يفصل هؤلاء عن آبائهن ويحملن الى ديار الغربة وهنّ صغيرات على هذه الصورة ؟ »

فضحك فنحاس وهو يحتشم بضحكه وقال « كلاّ يا مولاي فان استرقاقهن من اكبر اسباب سعادتهن لانهن ينتقلن به من خشونة البداوة وشظف العيش الى المدنية والترف وقد يبلغن من رخاء العيش مالا يبلغه بنات الامراء وخصوصاً من كانت منهن جميلة الوجه رخيمة الصوت وليس كل واحدة منهن تبلغ الى ذلك النعيم الاّ اللواتي ينجبن ويبرعن فهؤلاء نبيعهن بثمن غال ... فربما نبغ واحدة من كل خمسين او ثمانين . فمن انجبت وكان فيها ذكاء ولها صوت رخيم علمناها الغناء وحفظناها الاشعار . ونعلم الباقيات بعض الصنائع البيتية وغيرها على قدر الطاقة .. وسترى في ما تمرّ به من الغرف اصنافاً من الجواري على اختلاف الطبقات .. »

فاستغرب الفضل ما سمعهُ واظهر الاكتفاء من رؤية تلك الحجرة وحوَّل وجههُ فسبقهُ فنحاس الى الغرفة التالية وفتحها فرأى فيها بنيات سود البشرة جعد الشعور فطس الانوف فعرف الفضل انهن من بنات الزنج وهن اقرب الى القذارة والوحشية من اهل الحجرة الأولى والسواد اقبح الالوان يندر اجتماعهُ مع الجمال . ولحظ فنحاس ان الفضل ميال الى سرعة الانتقال من هناك فمشى امامه وهو يقول « هؤلاء صغار الزنوج يحملهن الينا النخاسون من اقاصي السودان والغالب في اخذهن على سبيل السبي بلا ثمن ونحن نبتاعهن بثمن بخس واكثرهنَّ يتعلمن الخدمة أكثنة و يغلب ان نجعلهنَّ في خدمة الجواري البيض »

وقبل ان يصلوا الى الحجرة الثالثة قال فنحاس « وفي هذه الحجرة بنات من البربر يحملهن النخاسون من بادية افريقية . واكثر هذا الصنف من الجواري ينقلن الى بغداد بدلاً من الجزية كما لا يخفى على مولاي . وفي الغرفة التي تليها جوار صفر من بلاد السند وفي التي بعدها جوار حمر من بلاد الروم وفي الغرف الاخرى طبقات من اولئك الجواري بين سرارٍ ومواشط وحواضن وطباخات وخبازات ونحو ذلك من ضروب الخدمة وفي بعض هذه الغرف طبقات من اصناف المماليك البيض والسود قد تدرَّبوا على الصنائع المنزلية بين طاهٍ وخباز وفراش وسائس . وفيهم من اتقن الادب وحفظ الشعر والعربية ومنهم المغنون والندماء والمضحكون وغيرهم بين بيض وسود على اختلاف الاسنان »

الفصل الثالث عشر

الجواري المولدات

فرأى الفضل ان الفرجة على هذه الصورة يطول امرها فقال « أرنا امثلة من اغرب ما عندك ودعنا من هذا التفصيل فان الوقت لا يساعدنا على رؤية كل من في هذه الغرف »

فقال « هل تريد ان اريك الغلمان الصغار من البيض والسود فانهم في مثل ما رأيته »

قال « بل ارنا الجواري الصبيات »

فتجاوز فنحاس عدة غرف حتى وصل الى حجرة فتح بابها فاذا فيها فتيات بيض بين الخامسة عشرة والعشرين من العمر وهن مع ذلك في حال السذاجة عليهن اكسية من

الاثواب البسيطة وشعورهن مرسلة او مجدولة وفي آذانهن الاقراط وفي اعناقهن عقود من الخرز الملوّن وفيهن جمال النساء وحياؤهن . ولما رأين الفضل ورجالهُ غلب عليهن الحياء وتولاهن الخوف فوقع نظر الفضل على واحدة منهن رأى في عينيها سحراً وفي قامتها رشاقة وقدزادتها السذاجة جمالاً وهيبة فوقعت من نفسه موقعاً حسناً فناداها بالعربية فلم تفهم مراده ولكنها ا ركت انه ينـاديها فنفرت واختبأت وراء جارتها وحوّلت وجهها وغطتهُ بذراعها فاعجبه ذلك النفور فقال « اين ابو العتاهية او ابو نواس يصف لناهذا المنظر ببيت من الشعر »

فتذكر فنحاس ابا العتاهية والتفت وهو يتوقع ان يراه الى جانبه فلم يجده واوشك ان ينطق باسمه لو لم يتذكر تكتمه فتجاهل وقال « صدق مولاي باعجابه فان هذه الجارية من طبرستان اشتريتها في جملة جواري من نوعها وليس فيهن اجمل منها . ولكنك سترى ما هو اعجب من ذلك . فكيف لو رأيت الجواري المولدات من البصريات والكوفيات ذوات الالسن العذبة والقدود المهفهفة والاوساط المخصرة والاصداغ المزرفنة والعيون المكحلة وحسن زيهنّ وزينتهنّ وفيهنّ الطويلة البيضاء والسمراء اللعساء والصفراء العجزاء وبينهنّ من اذا صببت عليها جرة ماء وهي قائمة فلا يصيب ظاهر فخذيها شيء لعظم عجيزتها مثل ما يتحدثون عن عائشة بنت طلحة التي كانت اذا همت بالنهوض يساعدها عليهِ اثنان »

فضحك الفضل لمهارة فنحاس في وصف جمال النساء مع ما يظهر من شيخوختهِ وقال لهُ « اراك ماهراً في وصف الحسان يامعلم فنحاس »

فأجابه على الفور ويده على لحيته « واين قضيت هذه الشيبة يامولاي ؟ »

فقال الفضل « اذهب بنا الى الجواري المولدات »

فاشار اشارة الطاعة وتحوّل الى الجانب الآخر من الفناء فتبعهُ الفضل ورجالهُ وفنحاس يقول « يظهر انكم تعبتم من الوقوف فها اني ذاهب بكم الى الجواري المغنيات اللواتي قد حفظن الاشعار واتقنّ الضرب على العود وغيره من آلات الطرب » حتى وصل بهم الى غرفة فتح بابها ووسع للفضل مدخلها فنظر الفضل فرأى الغرفة مفروشة بالبسط وفيها الوسائد وفي بعض جوانبها ثلاث من الجواري البيض جالسات وقد فاحت رائحة المسك منهن . على احداهن ملحفة معصفرة فوق غلالة حمراء وعلى رأسها عصابة مزركشة وقد ارخت تحت العصابة سالفتين علقت في طرف كل سالفة ياقوتة حمراء وارخت شعرها كانه الليل وتبخرت بالعود وتعطرت بالمسك وكانت مقدّمة على صاحبتيها لانها اجملهن خلقة على ان صاحبتيها كانتا في مثل هيأتها من حيث اللباس ولكنها تفضلهما بجمالها ورشاقة قدّها .

وكانت عيناها سوداوين كانهما مكحولتان ولونها ابيض صاف صفاء البلور وفي عنقها عقد من العقيق . وكانت جالسة بين رفيقتيها على وسادة فلما فتح الباب ابتدرها فنحاس قائلاً « قومي يا قرنفلة وقبلي يد مولانا الفضل بن الربيع » وكانت تعرف هذا الاسم وعلاقته ببلاط الخليفة فتحفزت للوقوف وطال تحفزها لثقل اوراكها على حد قول الشاعر :

فقيامها مثنىً اذا نهضت من ثقله وقعودها فردُ

ثم نهضت ومشت وهي تتمايل وسراويلها تتثنى فوق قدميها . حتى اذا دنت من الفضل ابن الربيع هشت لهُ وابتسمت ابتسام التحية بلطفٍ ورقة وانحنت لتقبيل يده فمنعها . والتفت الى فنحاس لفتة الاستحسان فقال فنحاس « خاطبها يامولاي فانها فصيحة اللسان »

فحياها الفضل فاجابت بافصح عبارة فادرك من لهجتها انها بصرية ولكنها تختلف عن اهل البصرة اهلها بلون الوجه وسائر الملامح فنظر الى فنحاس وقال لهُ « العلَّ هذه الجارية من اهل البصرة ؟ »

قال « كلاَّ ولكنها ربيت في البصرة منذ طفوليتها واصلها من بلاد الكرج وقد ابتعتها صغيرة مثل الفتيات اللواتي شاهدتهن في الحجرة الاولى فآنست فيها ذكاءً وجمالاً فارسلتها الى عميل لي في البصرة علمها العربية والقرآن وحفظها الاشعار . ولما عادت اليَّ اعجبني منطقها ورخيم صوتها ورأيت ماعلمتهُ من رغبة رجال الدولة في الاقتداء بامير المؤمنين بتعليم الجواري البيض الغناء فرغبت الى الموصلي مغني الخليفة في تعليمها فلم يقبل الاَّ بعد ان بذلت لهُ المال الكثير وصرت ابعثها اليه كل صباح تأخذ عنهُ صوتاً بعد صوت حتى اتقنت هذه الصناعة واصبحت نادرة بين جواري بغداد لا يوجد نظيرها ولا في بلاط الخليفة »

وكان فنحاس يتكلم والفضل يتأمل جمال تلك الجارية وكانت قد تشاغلت عن سماع اطناب فنحاس بانزال عودٍ كان معلقاً على الحائط فانحسر كمُّها عن يدها فبانت غضاضة زندها وعليه الاساور والدمالج وبان الخضاب في كفها ورأى قرطيها يلمعان في اذنيها . فلما فرغ فنحاس من اطنابه قال لهُ الفضل « قلت انها تحفظ الشعر والعربية »

قال « اسأَلها ما شئت واسمع حديثها او انظر الى عصابتها واقرأ مازركشتهُ عليها »

فتقدم الفضل ونظر في العصابة فرأى عليها بيتاً من الشعر بحروف من الذهب وهو :

ليس حسن الخضاب زيناً لكفي حسن كفي زينٌ لكل خضاب

فأعجبهُ ذلك والتفت الى فنحاس وهو يقول « ما اجمل هذه العصائب لله در

مخترعتها ... »

قال « اظنك تعني مولاتنا علية اخت الرشيد ... فانها بالحقيقة قد أوجدت للحسان سبباً كبيراً من اسباب الجمال »

قال الفضل « هل تعلم السبب الذي من اجلهِ اتخذت هذه العصائب ؟ »

قال « كلاَّ يا مولاي »

قال « انا اخبرك عن السبب . ان في جبين علية فضل سعة حتى تسمج بهِ فارادت اخفاء ذلك العيب فاتخذت العصائب المكللة بالجواهر لتستر بها جبينها فأحدثت والله شيئاً ما رأيت في ما ابتدعته النساء اجمل منهُ » (١)

فتحقق فنحاس ان الفضل سيشتري هذه الجارية لامحالة فأراد ان يرغبهُ في الاخريين فاشار الى احداهما اشارة فهمتها فانزوت في بعض جوانب الغرفة والتفتت الى مرآة معلقة بالحائط بحيث لا يظهر وجهها لأحد وكان الفضل مشتغلاً عن ذلك بمراقبة الجارية الأولى وهي تتلاهى باصلاح العود . فلما علم فنحاس ان الجارية الثانية اتمت وصيته التفت الى الفضل وقال « وانظر الى ما على وجه هذه . تقدَّمي ياسوسنة » واشار اليها فأتت تتهادى بمشيتها وثوبها الارجواني يتموج بلمعانهِ

فتفرس الفضل في وجهها فرآها قد كتبت على خدّها بالمسك « الفضل بن الربيع » فافتتن الفضل بذلك ورغب في هذه الجارية ايضاً

فأدركت الثالثة رأيه وخافت ان تبقى وحدها وهي تعدُّ ذهابها مع الفضل نجاحاً كبيراً لا تطمع باحسن منهُ فانزوت جانباً وبيدها تفاحة عالجتها سرّاً ثم عادت حتى اقبلت على الفضل وقدمت التفاحة له وتناولها واذا عليها بيت شعر مكتوب بالغالية وهو :

اقول والركب قد مالت عمائمهم وقد سقى القوم كأس النعسة السهرُ

فادرك الفضل انها تشير الى مايقولهُ ناظم هذا البيت (ابو دهبل الجمحي) بعده :

ياليت اني باثوابي وراحلتي عبدٌ لاهلك هذا الشهر مؤتجرُ

ان كان ذا قدرًا يعطيك نافلة منا ويحرمنا ما انصف القدرُ

فكانها تعرّض برغبتها في الذهاب مع رفيقتيها فاستحسن الفضل فطانتها وعزم على ابتياع الجميع وكان في عزمه سماع غنائهن قبل البيع ولكنهُ خاف التأخير ولم يكن ميالاً للهو والقصف وانما طاوع الامين لغرض لهُ في سياسة الدولة — فعزم على المسير لوقته »

---

(١) الاغاني ٩ ج ٦٣

الفصل الرابع عشر

المساومة

فتحول عن الغرفة وتبعهُ رجالهُ وفنحاس بين ايديهم وهو يقول « اذا شاء مولاي اريتهُ اصنافاً اخر من الجواري البيض والسمر والحمر والسود ولكنه رأى احسن ما عندي » قال ذلك ترغيباً لهُ بما وقع اختياره عليه . وسار بين ايديهم حتى ادخلهم غرفة الاستقبال فجلسوا فأمر فنحاس بمائدة الشراب فاعتذر الفضل انهُ لا يرى في الوقت سعة لذلك والتفت الى فنحاس وقال « بكم تبيع هذه الجواري الثلاث ؟ »

فوقف فنحاس وقفة الاحترام وقال « وهل على ولي العهد شرطٌ او مساومة فان الجواري جواريه ونحن كلنا عبيده سواء دفع لنا مالاً ام لم يدفع .. »

فلم يجهل الفضل احتيال فنحاس في ذلك فقال « نحن كلنا صنيعة ولي العهد ولكن البيع والشراء حقٌّ واجب »

قال « لا بأس من البيع ولكنني استحي ان اعين ثمناً فافرض ما تراه »

قال الفضل « ذلك اليك فاطلب ما تريدهُ »

قال « ولكن مثلك يعرف قيم الاشياء ومولانا ولي العهد كريم اذا اعجبه امر لا يبالي بما يدفعه ... ونحن نقبل منهُ ان يدفع كما يدفع مولانا امير المؤمنين ... » قال ذلك وابتسم كأنهُ يظهر المزاح او يخلط بين الجد والهزل

فقال الفضل « وكم يدفع يا امير المؤمنين ؟ »

قال « الم يدفع ثمن الجارية ١٠٠,٠٠٠ دينار [١] وهل تلك الجارية احسن من قرنفلة أو سوسنة ؟ » وضحك

فضحك الفضل حتى استلقى وقال « الا تدري ما ترتب على ذلك السخاء .. ألا تعلم انه فعل ذلك في اول حكمه ولما امر وزيره يحيى بن خالد ان يدفع هذا المال اعتذر عن دفعه فغضب امير المؤمنين فاراد يحيى ان يبين ما يتحملهُ بيت المال في هذا السبيل فجعل المال دراهم فبلغت ١,٥٠٠,٠٠٠ درهم فعرضها في الرواق الذي يمرُّ بهِ الخليفة اذا

---

(١) الطبري ١٣٣٢ ج ٣

اراد الوضوء فلما رأى ذلك المال استكثره وعلم انه اسرف ..»

فقال فنحاس «فاذا لم يشأ مولانا ولي العهد ان يدفع كما دفع ابوه فليدفع كما دفع وزيرايهِ ..»

فعلم الفضل انه يشير الى جعفر البرمكي عدوّه فتذكر ما بينهما من المنافسة ولكنه تجاهل ولم يبدُ في وجهه تأثر وقال «ما الذي دفعهُ ؟»

قال «الم يدفع ثمن الجارية ٤٠,٠٠٠ دينار [1] وهل يليق بولي العهد ان يدفع اقل من ذلك ؟. وفي كل حال اني مرسل الجواري الى قصر ولي العهد والذي يدفعهُ مقبول»

فاستاء الفضل من هذه المساومة وشق عليه ان يجعل الامين اقل سخاء من عدوّه والناس يومئذ يكتسبون الاحزاب السياسية بالسخاء وكان فنحاس عالماً بتلك المنافسة مطلعاً على دخائل الجميع ولم يقل ما قاله الاَّ وهو يعلم ان الفضل لا يراجعه حفظاً لكرامة مولاه الامين لعلمه انه يرى من حسن السياسة ان يحفظ منزلته بين رجال الدولة حتى لا يجدوا عليه ما يحقره في اعينهم وخصوصاً في تلك الحال . فنجح فنحاس في رأيه لان الفضل أراد ان يظهر فضل الامين فقال «لو كان جواريك هؤُلاء من طبقة الجارية التي ابتاعها الوزير لحق لك هذا الطلب ومع ذلك فانني سأجعل ثمن الجواري الثلاث معاً ١٠٠,٠٠٠ دينار»

فقال فنحاس وهو يظهر الزهد في الكسب «كل ما يدفعه مولانا كرمٌ منهُ فاننا وما نملك من بعض صنائعه»

ولم يجهل الفضل تملق ذلك اليهودي ولكنه جاراه وقال «بارك الله فيك .. فارسل الجواري الى قصر مولانا مع من تعتمده لقبض المال ..»

قال «سأرسلهن حالاً وليس قبض المال مما يستعجل اليه ..» فلما قال ذلك تحفز الفضل للوقوف فسبقه رفاقه الى النهوض واسرع احدهم الى الخدم في فناء الدار فاشار اليهم ان يسرعوا في اعداد الركائب واشتغل الفضل في مجاوبة فنحاس على عبارات المجاملة والاطراء وهو في اثناء ذلك يتلثم بطرف عمامته اخفاءً لما جاء من اجلهِ

(١) ابن خلكان ١٠٦ ج ١

الفصل الخامس عشر

القبض على ابي العتاهية

ولم يكد الفضل يفرغ من ذلك ويخرج الى باب البيت حتى سمع جلبة ثم رأى جماعة من الرجال يتعاركون وعليهم اردية تغطي اثوابهم كأنهم متنكرون ولكنهُ عرف من قلانسهم الطويلة المدعمة بالعيدان من داخلها انهم من جند الدولة — وأول من ألبس الجند هذا الزي ابوجعفر المنصور[1] ولكن الفضل استغرب تنكرهم بالاردية فوق اثوابهم على انه مالبث ان سمع صوتاً ينادي « اني من رجال الفضل بن الربيع اتركوني وشأني »

فلما سمع الفضل اسمه تقدم فوسع له اصحابه حتى خرج من الباب وأشرف على الزقاق فرأى جماعة من اصحاب القلانس متكاكئين على رجل يوثقونه وهو يحاول التملص من بين ايديهم وحالما وقع بصره عليه عرف انه ابو العتاهية فاستغرب وقوعه في تلك الورطة ونظر يميناً وشمالاً فرأى في بعض جوانب الزقاق امرأة ملثمة تشير اليهم ان يوثقوا الرجل ولما رأته بالغت في التنكر والتستر والرجال يعالجون ابا العتاهية بالوثاق وهو يهددهم بانه من رجال الفضل وهم يقولون « مالنا وللفضل فما عليك الا ان تجيب الخليفة » ووقعت عين الفضل على عين ابي العتاهية فرآه يشير اليه ويستنجده وفي استنجاده معنى توقع منهُ خيراً

فصاح الفضل بهم « اتركوا الرجل .. من الذي امركم بالقبض عليه ؟.. »

فأجابوه وهم مشتغلون بشد الوثاق « انه طلبة امير المؤمنين » ولم يلتفتوا اليه

فقال لهم « ومن ينبئنا ان امير المؤمنين يطلبه وما شأنكم في ذلك ؟ »

فتقدم احدهم اليه وهو عريفهم ونظر الى الفضل فتوسم من بزته انه من كبار اهل بغداد ولكنه انكر تلثمهُ وقال « اننا من جند امير المؤمنين وقد امرنا بالقبض على هذا الرجل »

قال « لا اراكم من الجند وليس عليكم شارة الدولة »

فابتسم الرجل مظهراً الاستخفاف بذلك الانكار وخلع الرداء عنهُ وادار ظهره ليقرئه ما هو مطرزٌ بين كتفيه فقرأ « فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » ثم اشار العريف

---

(١) العقد الفريد ج ١

الى خصره فرأى سيفهُ معلقاً بمنطقته

فضحك الفضل وقال « هـذه ثياب قديمة من ايام المنصور لانه هو الذي أمر رجالهُ بكتابة هذه العبارة [1] على اثوابهم و بتعليق السيوف بمناطقهم فلا يبعد انكم ابتعتم هذه الاثواب من بعض الوارثين لتتحلوا الجندية والاَّ فأين اسم امير المؤمنين الرشيد ؟ »

فمدَّ الرجل ذراعهُ فقرأ الفضل على اعلى الكتف اسم الرشيد مطرزاً بالقصب « هرون ابن المهدي امير المؤمنين » ثم تحوَّل العريف عن الفضل وهو يهزأ سه وتوجه نحو رجاله وهم لا يزالون يعالجون ابا العتاهية واخذ يستحثهم على الاسراع في شد الوثاق وكان رجال الفضل واقفين ينتظرون امره لانقاذ ابي العتاهية ولم يشاؤا الاقدام على ذلك الاَّ باشارته مخافة ان يكون قاصداً التنكر لغرض في نفسه

اما هو فلما رأى استخفاف العريف بهِ ناداه بصوت هادئ يمازجه التهديد قائلاً « ولكنهُ يقول لكم انهُ من رجال الفضل بن الربيع »

قال « ومن ينبئنا بصدق قولهِ ؟ وهب انهُ صادق فنحن مأمورون بالقبض عليه » قال ذلك وهو لا يلتفت وراءه فصاح به الفضل « انا اقول لك ايضاً انه من رجال الفضل فاتركوه »

فلما سمعه يخاطبه بهذه اللهجة تحوَّل نحوه وتفرس في وجهه من وراء اللثام ثم التفت نحو المرأة التي كانت واقفة هناك فرآها تنسلُّ من بين الجماهير فعلم انها تطلب الفرار واستدل من فرارها ان الرجل الذي يخاطبه ممن يخشى بأسهم على انه لم يكترث بقوله وعاد الى رجاله وصاح فيهم « اوثقوه حالاً »

وكان فنحاس في اول الامر واقفاً بجانب الفضل فساءه ما وقع في بيته من القبض على ابي العتاهية ولم يفهم السبب وحدثته نفسهُ ان يتقدم لانقاذه وهو قادر على ذلك لكثرة من في داره من الرجال ثم تذكر ما وعده بهِ من الاجتزاء من ثمن الجواري فتوسم بالقبض عليه باباً للتخلص من ذلك الاجتزاء . على ان حيان مالبث ان جاءهُ واسرَّ اليه ما كان في الامس وما اوصتهُ بهِ الجارية من الاحتفاظ بهِ ريثما تأتي وان سيدتها من اهل امير المؤمنين فاطمأن فنحاس وصمم على السكوت ودخل الى داره يتشاغل بما لا طائل تحتهُ

اما الفضل فلما سمع تهديد العريف تقدم خطوتين بقدم ثابتة وهو يقول للرجل « لا . لا ينبغي ان توثقوه حتى نعرف ما هو ذنبهُ .. والا فأنتم تتحملون تبعة هذا العمل عند

(١) الاغاني ج ٩

امير المؤمنين »

فالتفت العريف نحو الفضل وهو يقول « ومن انت حتى تهددنا بأمير المؤمنين ؟ امض لشأنك . »

فلما سمع رجال الفضل ما في تلك العبارة من الاستخاف كادوا يهمون بالرجل او يصرحون لهُ بالحقيقة ولكنهم تركوا ذلك للفضل ولبثوا يتوقعون امره . اما هو فما زال رابط الجأش وما زاد على انه اشار الى رجاله ان يخلصوا ابا العتاهية فهجموا وكانوا اشداء واكثرهم من القواد فعلت الضوضاء وهمّ الجند بتجريد السيوف فصاح الفضل فيهم « لا حاجة بكم الى السيوف اتركوا الرجل واذا سئلتم عنهُ فقولوا ان الفضل بن الربيع اخذه منكم فاذا كان لامير المؤمنين اوسواه حاجة بهِ فليطلبه مني »

فلما سمعوا ذلك التصريح بغتوا وتوقفوا عن الحركة وجاء العريف الى الفضل وقال له بغير لحن الاستخفاف « ان الرجل طلبة امير المؤمنين فكيف نتركهُ بعد ان قبضنا عليهِ وماذا نجيب اذا سئلنا عنهُ ؟ »

قال « قل لطالبهِ انهُ عندي .. قل انهُ عند الفضل بن الربيع او عند وليّ العهد كما تشاؤون » قال ذلك و يده على اللثام يهمّ بازاحتهِ

فلم يبق عند العريف شك انهُ بين يدي الفضل ولكنهُ نظر الى من حوله من الرجال فسمع احدهم يقول لهُ همسًا « انك تخاطب وزيرًا كبيرًا .. هذا هو الفضل بعينهِ »

فتقدم العريف نحوه وهو يتأدب في مشيته وقال « لماذا لم يقل مولانا ذلك من باديء الرأي فنحن صادعون بأمره » ثم اشار الى رجالهِ فحملوا ابا العتاهية وتحوّلوا فانحاز ابو العتاهية الى رجال الفضل وقد وقعت عمامته عن رأسه وانتفش شعره فظهر قبح منظره وجاؤا بهِ الى الفضل فتواقع على قدميه وحاول تقبيل طرف ثوبه فانهضه الفضل وهو يقول « ما الذي اوقعك هذه الوقعة وانت الشاعر الزاهد .. ؟ » وضحك وهو يحسب سبب القبض عليه مما يخالف اسباب الزهد

فقال « ان السبب يامولاي سأقصه عليك وهو يهمك »

فاشار اليهِ ان يسير معهم وامر رجاله بالركوب بعد ان قدموا له فرسه فركب وركبوا في اثره قاصدين قصر الامين

الفصل السادس عشر

الصولجان والكرة

اما العريف ورجاله فانهم عادوا الى قصر العباسة وكانت قد ارسلتهم للقبض على ابي العتاهية بمشورة عتبة — وذلك انهما لما رجعتا الى القصر في اواخر الليل كما تقدم ظلّ خاطر عتبة مشتغلاً بما علمتهُ من امر ابي العتاهية وقد ترجح في ذهنها اطلاعه على سرّ مولاتها . فلما وصلتا الى القصر دخلت العباسة الى غرفتها تلتمس الرقاد واستولى القلق على عتبة فلم تتمالك عن الدخول عليها باكراً والتصريح لها بما لاحظته واشارت بالقبض على ابي العتاهية سريعاً لئلاَّ يبوح بالسر . فاعظمت العباسة الخبر وخافت ولم تر حيلة للنجاة الاَّ بالقبض عليه واخفاء خبره ريثما تتدبر في امرها . فتقدمت الى عتبة ان تنفذ شرذمة من الجند ممن كانوا في خدمة قصرها ليقبضوا عليه بامر الخليفة . فذهبت عتبة معهم حتى اذا وصلوا الى دار فنحاس كان الفضل قد سبقهم اليها ودخل دار الرقيق كما تقدم . وكان ابو العتاهية عازماً على الخروج خلسة بحيث لا يشعر به الفضل ولا يعرف بوجوده هناك مخافة ان يلحظ تواطؤهُ مع فنحاس ولم يخطر له انه مطلوب . وشعر حيان بذلك وأخذ يشاغله بالحديث ونحوه ريثما يعود سيده من دار الرقيق ليطلعه على وصية عتبة . فلما احسَّ ابو العتاهية بقرب خروج الفضل اسرع في الذهاب وكان العريف قد جاء بجنده فاشار حيان اليهم ان يقبضوا عليه فهموا به ورأى ابو العتاهية عتبة فادرك غرضهم فاخذ يطاولهم حتى أتى الفضل فوجدهم على تلك الحال فانقذه منهم

فعاد العريف الى العباسة وكانت عتبة قد سبقته الى هناك واخبرت مولاتها بتعرض الفضل لهم . فلما عاد العريف وأنبأها بما كان من نجاة ابي العتاهية على تلك الصورة عظم الامر عليها وتحققت ان سرَّها لا يلبث ان يتصل بالفضل فاخذت تندب نفسها . وخلت بعتبة وشاورتها في الامر فقالت لها « لم يبق لنا حيلة يامولاتي الا باستنجاد مولاي الوزير »

قالت « وكيف نبلغهُ الخبر وهو اليوم مع اخي في الميدان يلعبون بالكرة والصولجان » وكان ذلك يوم موعد تلك الالعاب على جاري العادة في الميدان بقرب قصر الخلد

قالت « لا بد من ذلك .. واذا شئتِ فاني اتولى نقل الخبر اليه »

فاثنت عليها وقالت « تدبري بالامر كما تشائين فاني لا اعي شيئاً »

قالت « هل ادعوه اليك الى هنا ؟ »

قالت « افعلي ما ترين لاني اخاف انكشاف امرنا قبل تدبير الحيلة للنجاة ... »

قالت « لك عليّ ذلك باذن الله » وهمت بالخروج فنادتها العباسة وقالت « خذي اليه هذه البطاقة » وكتبت اليه بطاقة قالت فيها « ادركني في اول لحظة تتفرغ فيها لانقاذنا من مخالب الاعداء » ودفعت البطاقة اليها فخبأتها بين ثوابها وخرجت للحال الى غرفتها وتزيت بزي رسول قادم من خراسان وتلثمت لثام السفر وركبت فرساً واسرعت نحو الميدان وكان قصر العباسة على مقربة منه

فوصلت الميدان والشمس قد مالت عن خط الهاجرة فرأت تلك الساحة غاصة برجال الدولة على خيولهم في ساحة كبيرة قد أحاطوها بسور من حبال مزدوجة منصوبة على اعمدة وقام الجند حول السور بالاسلحة يمنعون الناس من الدخول . فوقفت بجوادها بحيث تشرف على اللاعبين حتى تتحقق موقف جعفر ثم تسعى في الوصول اليه . فرأت في بعض جوانب الساحة فسطاطاً كبيراً خرج منه الرشيد على فرسه وقد اعتمّ بعمامة خفيفة خاصة باللعب وبيده صولجان هو عبارة عن عصا طويلة طرفها اعقف ورجال الدولة على افراسهم متأهبين للعب وفي ايديهم الصوالجة وقد اصطفوا صفين احدهما مع الرشيد . ورأت الرشيد يجول على فرسه والعصا مشهرة بيده ثم التقف بها الكرة من الارض وارسلها في الهواء فتسابق اللاعبون لملاقاتها بصوالجتهم واخذوا يستحثون افراسهم وراءها . وفي جملتهم جعفر الوزير على فرس ادهم وعليه دراعة تمنطق فوقها بمنطقة عريضة من الخزّ وعلى رأسه طاقية فوقها عمامة خفيفة . ولاحظت انه لم يكن احد غيره يجسر على الدنو من الخليفة واما سائر اللاعبين من رجال الدولة فكانوا يجولون في الميدان مسايرة للخليفة ولا يجسرون على مسابقته مخافة ان يغلبه احدٌ منهم والمجاملة تقضي بان يكون هو الغالب الا جعفر فقد كان يسابق الرشيد في الكرة ويلاعبه بها والرشيد يجامله فاذا اخطأها ضحك وصاح بجعفر ومازحه وجعفر يتعاجز عن غلبه

وكان صولجان الخليفة من الخيزران المطوق بالذهب ورأسه من الذهب الخالص وصولجان جعفر من الخيزران بلا تطويق وكراتهم كتل من مشاقة الحرير معبأة في اكياس من الحرير المتين وقد شدت باطواق من الاوتار المرنة . فلا يلبث الفارس ان

يلتقف الكرة من الارض بطرف صولجانه الاعقف حتى تطير في الهواء فيستحث الآخرون افراسهم في اثرها وعيونهم شائعة نحوها وصوالجتهم مشرعة في ايديهم يبغون ملاقاتها وافراسهم قد هاجها الاستكداد حتى تصبب العرق عنها واختلط الزبد المتحلب من افواهها بما أزبد من العرق المتقطر من اعناقها وصدورها وهي لا تشكو تعباً لانهم أعدوها لمثل ذلك اليوم وكان الرشيد شديد الولع بهذه اللعبة (١) ورجال الدولة يتقربون اليه باتقانها واللعب بين يديه بها

وكان جعفر قد قضى ليلته الماضية في قلق على اثر مشاهدته ولديه اذ جاء بهما اليه رياش قبل ذهابه الى دار فنحاس فقبلهما جعفر واستنشق ريحهما ولاعبهما مدة فثارت عواطفه واصابه ما اصاب امهما تلك الليلة من استيقاظ الحنو الابوي على ولدين كأنهما الفرقدان مع ما ذكرناه من جمالهما ولطفهما وقد قضت ارادة الخليفة بابعادهما عن حجر والديهما خوفاً من الموت

فبات جعفر تلك الليلة وهو يتصور العباسة معانقة ولديها مع ما قد يجيش بين جنبيها من عوامل الحنو يخالطها خوف الفراق ناهيك بما يعترض ذلك من الهواجس والمخاوف . فعظم عليه الامر وهجره النوم وقد كان على موعد الذهاب الى الميدان لملاعبة الرشيد بالكرة والصولجان في صباح الغد . فجاء بموكبه وحاشيته وهو يظهر الارتياح لعلمه بما يحدق به من الحساد والوشاة . على انه كان مطمئن الخاطر من قبيل الرشيد واثقاً بحسن ظنه به لا يخاف حسد الحاسدين ولا وشاية الواشين . وقد فاته ما يجول في خاطر الرشيد من امره وما يدسه الوشاة اليه ويهيجون نقمته عليه بما يعرضون به من اتساع حال البرامكة واقتنائهم الضياع والقصور واختزانهم الاموال مما لم يكن عند الرشيد مثله . فضلاً عن استبداد جعفر بشؤون الدولة . على انهم لم يكونوا يؤانسون من الرشيد اصغاءً ولم يسمعوا منه غير اطرائه والثناء عليه وقد اطلق يده في اموره العامة والخاصة حتى اباح له الدخول على دوره بلا استئذان وسلم اليه خزائن بيت المال واطلق يد ابيه يحيى في دوره وقصوره وجعل النظر فيها وفي حريمه اليه حتى كان يغلق ابواب القصر وينصرف بالمفاتيح (٢) . ولم يكن الرشيد يصبر على فراق جعفر حتى آل ذلك الى ما تقدم من عقده له على اخته العباسة بحيث يحلّ له النظر اليها فلا يخلو مجلسه منهما فافضى ذلك الى الى ما علمته من زواجهما سرًّا

(١) ابن الاثير ج ٥ (٢) الاتليدي

على ان جعفر لم يكن يعدُّ زواجه بالعباسة الاَّ شرعياً وانما عمد الى التستر خوفاً من غضب الرشيد ولم يخطر له انكشاف ذلك السر لاحد وكأن اقبال الزمان غرَّه فاعمى بصيرته عمن يحدق به من الحاسدين . ولعل له عذراً على غروره بما كان يعاينهُ من تزلفهم اليه وتظاهرهم باحترامه ورعاية جانبه . ولا نظنه كان غافلاً الى هذا الحد ولكنه سكر بما ظهر له من حب الرشيد له واجلال مقامه وما كان يبديهِ من اكرامه والرجوع بالامور اليه

الفصل السابع عشر

قصر العباسة

اما عتبة فجعلت تتفرس باللاعبين حتى عرفت مكان جعفر وهو بعيدٌ عنها ودون الوصول اليه رجال وحبال فوقفت وهي تعمل فكرتها في طريقة لايصال البطاقة اليه بغير ان يشعر بها احد . فوقع بصرها وهي في تلك الحيرة على رجل من غلمان جعفر كان يأتي قصر العباسة ببعض المهام الخصوصية ولها به ثقة فاستغفلت رفاقه واشارت اليه فجاء نحوها على انفراد فنادته « حمدان » وكان حمدان هذا من اقدم غلمان جعفر نشأ في منزل ابيه يحيى منذ طفوليته وقد ربىَّ جعفر على ذراعيه وكان يحبه حباً يقرب من العبادة وقد بلغ الخمسين من عمره ولا يزال نشيطاً وهو فارسي الاصل خراساني الموطن وكان مقدماً عند جعفر يدخل عليه متى شاء ويعامله جعفر معاملة الاقرباء — فلما سمع حمدان عتبة تناديه باسمه عرفها وادرك انها متنكرة لغرض هام فقال لها « ما وراءك ؟ »

قالت « جئت برسالة الى الوزير فكيف اوصلها اليه ؟ »

قال « انهم لايلبثون ان يفرغوا من اللعب ويعود الوزير الى فسطاطه للراحة فيهون ادراكه .. اعطني الرسالة فاوصلها اليه »

فسرت عتبة لذلك ودفعت اليه البطاقة فخبأها في ثيابه وقال لها « اذهبي واطمئني فاني موصلها اليه حالاً »

فعادت عتبة الى سيدتها فرأتها في انتظارها وقد فرغ صبرها فقصت عليها ما كان

وجلستا على مثل الجمر تنتظران مجيء جعفر

وكان قصر العباسة على ضفاف دجلة بالقرب من قصر زبيدة (دار القرار) بينه و بين قصر الخلد (دار الرشيد) وكان لقصر العباسة شرفة مطلة على دجلة وأخرى تطلُّ على طريق يؤدي الى الميدان وهو الطريق الذي عادت منه عتبة فجلست العباسة في هذه الشرفة واطلت من وراء حجاب فلم ترَ في الطريق احداً . وطال انتظارها وعيناها شاخصتان نحو الافق اذا رأت شبحاً ظنته وزير اخيها او هو حبيبها وزوجها ومحط آمالها . حتى اذا مالت الشمس الى المغيب واستطالت اظلال المآذن على اسطحة قصور بغداد وعلت اصوات المؤذنين انزعجت العباسة لصوت الاذان على غير المعتاد لانها كانت تستانس به وتطرب لسماعه اما الآن فقد أزعجها انهُ أنبأها بانقضاء النهار وحيلولة الظلام بينها و بين الافق . وكانت عتبة واقفة الى جانبها لا تقلُّ قلقاً عنها فلما سمعت اصوات المؤذنين ولحظت تذمر مولاتها ابتدرتها قائلة « اظنهُ تأخر الى الليل عنوة »

قالت « ولماذا ؟ »

قالت « حتى يأتيك خلسة فلا يشعر به امير المؤمنين او غيره »

قالت « واي متى كان اخي يراقب ذهابه ومجيئهُ وهو غير متهم عنده ومفاتيح القصور في يد ابيه ... ولكنني اخاف ان يكون لتاخره سبب مزعج وقد اصبحت بعد اطلاع ذلك الشاعر بائع الجرار على سرّنا اعدُّ حياتي في خطر . . » قالت ذلك وغصَّت بريقها

فقالت عتبة « لا يزعجك هذا الوهم يامولاتي فانني لست على يقين من اطلاع ابي العتاهية على سرنا وانما اتهمتهُ فاحببت القبض عليه من باب الاحتياط وهبي انه اطلع هو عليه فهل يجسر ان يذكره لامير المؤمنين ؟ »

فلما تصوَّرت العباسة ذلك اقشعر بدنها خوفاً من غضب اخيها لعلمها انهُ اذا غضب فتك واستبد ولا مردَّ لغضبه ... وهي تعلم ايضاً انهُ ما من احد يجسر على ذكر شيء من ذلك بين يديه ولكنها قالت « اذا كنت لا أخاف ان ينطق ابو العتاهية بشيء من ذلك بين يدي اخي ألا اخاف ان يبوح به لحساد جعفر فيتخذونه وسيلة للايقاع به . . على اني لا اخاف احداً خوفي من تلك المرأة . . »

فادركت عتبة انها تشير الى زبيدة امراة اخيها لعلمها بما بينهما من المنافسة مما يكون بين المرأة و بنت حماتها لا سيما وان الرشيد كان يظهر حبه للعباسة ولا يصبر على

بعدها وزبيدة تفاخر سائر نساء الخليفة بشرف نسبها الهاشمي لانها حفيدة المنصور وابنة عم الرشيد . وكان الرشيد يحبها ايضاً ويحترمها ولا يردُّ لها طلباً فلم يرضها ذلك حتى غارت من حبه اختهُ . ولعل علو منزلتها عند الرشيد زاد اسباب غيرتها وخصوصاً بعد ان علمت بما بين العباسة وجعفر من تبادل العلائق . فلم يكن ذلك كلهُ يخفى على عتبة بل كانت هي اعلم بهِ من مولاتها لان « الخبر يصل الى اذن صاحبه ويقف » ولا سيما في ذلك العصر والناس يتقربون الى اهل المراتب بالاطراء والارضاء ويجتنبون ابلاغهم ما يسوءهم ذكره . وربما ارتكب المرء جناية ظن نفسهُ مبالغاً في كتمانها والناس يتحدثون بها في مجالسهم واندیتهم وهو يحسبهم غافلين ولا يجسر احدٌ منهم ان يطلعهُ على ذلك . فلما سمعت عتبة تصريح العباسة بخوفها من زبيدة قالت « لا أرى مسوغاً لما تخوفين منهُ الآن »

قالت « وكيف لا ترين مسوغاً وانت تعلمين بما في نفس زبيدة مني فكيف اذا اطلعت على هذا السر ؟ »

فابتسمت عتبة وقالت « هل تظنين زبيدة لم تعلم ذلك الى الآن ؟ »

فاجفلت العباسة وقالت « وهل علمت ؟ ومن اطلعها عليه ؟ »

قالت « انت عاقلة حكيمة ومثلك لا تاخذه ظواهر الامور ... كيف يخطر لك ان يبقى هذا الامر مكتوماً عن الناس ومولاي الوزير يدخل هذا القصر متى شاء بلا حجاب ولا حساب ؟ .. »

فقطعت العباسة كلامها وقالت « وهل اهل القصر يعلمون ذلك ايضاً ؟ »

فخافت عتبة على مولاتها فقالت « كلاَّ ولكنني اظن زبيدة علمت به لما تعلمينهُ من تجسسها بواسطة الجواري والاعوان لما يهمها من امرك . على ان اطلاعها على ذلك لا يقتضي ان تبوح به لزوجها فان امير المؤمنين لا يجسر احدٌ ان يذكر له شيئاً مثل هذا ان لم يكن خوفاً منهُ فخوفاً من سيدي الوزير وهو صاحب العقد والحل في الدولة فمن يجسر ان يتعرض لغضبه ؟ »

وكان الظلام قد تكاثف وهما جالستان في تلك الشرفة على العتمة وسائر القصر مشعشع بالانوار والشموع واهله لاهون عن حال مولاتهم لا يعلمون بما يكنهُ ضميرها ولم يكن احدٌ ممن في قصرها من الجواري والخصيان وغيرهم يجالسها او يعلم ما في قلبها الاَّ عتبة لانها صحبتها من طفوليتها وهي في قصر ابيها المهدي ووثقت بها . وكانت العباسة

تباحث عتبة في ذلك المساء وعيناها لا تنتقلان عن الافق وان كان مظلماً . على ان بصرها كان يتحول رغم ارادتها الى الانوار المتألقة في قصر الخلد الى يمينها ودار القرار الى يسارها وفي كل منهما رقيب تخافه . فلما استبطأت جعفر اشتغل خاطرها وتحفزت للنهوض وهي تقول « هلم بنا الى الشرفة المطلة على دجلة لعله يجيء من هناك . . » واذا هما بخفق نعال في الدهليز المؤدي الى ذلك المكان فلما سمعت العباسة ذلك الصوت خفق قلبها لانه يشبه وقع خطوات جعفر فاسرعت وهي تقول « اظنه جاء » فمشت عتبة بين يديها وقالت لها « اذهبي يا مولاتي الى غرفتك البعيدة حتى آتي به اليك فلا يكون عليكما رقيب . . . ولا انا »

فاطاعتها العباسة وتحولت الى تلك الغرفة . اما عتبة فاقبلت على الدهليز وفي جدرانه الشموع فرأت جعفر داخلاً وعليه السواد (الجبة السوداء) والقلنسوة الطويلة وهما لباس العباسيين الرسمي فتقدمت اليه وقبلت يده فابتدرها قائلاً « اين مولاتك ؟ »

قال « هي في غرفتها تنتظر مجيئك منذ عدة ساعات »

فمشى وحده ومشت عتبة في اثره ريثما يصل الى باب الغرفة فتساعده على خلع نعاله ثم تعود الى مكان بعيد على جاري العادة . وكان جعفر يومئذ في السابعة والثلاثين من عمره وهو طلق المحيا ظاهر البشر جميل الطلعة ربع القامة كستنائي لون الشعر خفيف اللحية والشارب لم يخالط شعره الشيب الا قليلاً . وفي مبسمه حلاوة وفي عينيه ذكاء وكان قد ارسل القلنسوة الى الوراء فبان بياض جبينه وظهرت على محياه امارات الاهتمام — ومن كان دقيق الشعور قوي العاطفة ظهرت عواطفه في وجهه فلا يقوى على الكظم ولا يصبر على الضيم وهذا الفرق راجع الى طبيعة الامزجة ففي الناس حاد المزاج سريع الغضب وطويل الاناة واسع الصدر وما بين ذلك درجات كثيرة اما جعفر فلم تكن تخفى انفعالاته على المتأمل خلافاً للفضل بن الربيع كما تقدم

الفصل الثامن عشر

المقابلة

وكانت العباسة واقفة في غرفتها وركبتاها ترتعدان من شدة التأثر تتنازعها عوامل الحب والخوف والعتاب والرجاء وكانت تلك الغرفة على سعتها وبما فيها من اسباب الزينة

من المنائر المنصوبة والصور المعلقة والطنافس المفروشة أضيق في عينها من صندوق صغير ورأت الانتظار تلك اللحظة اطول من انتظارها معظم ذلك النهار . ثم ما لبثت ان سمعت خفق نعالهِ بالباب وسمعت حركة خلع النعال وكانت عتبة تساعده على ذلك فلما خلعها وضعتها على رفّ معدٍّ لمثلها هناك وعادت

اما العباسة فتقدمت نحوه وهي في ثوب بسيط تعودت ان تلبسه عند مقابلته وكان شعرها محلولاً وقد ضفرته ضفيرة واحدة جمعتها في اعلى رأسها بدبوس مرصع والتفّت فوق الرداء بمطرف من الحرير المزركش بأشعار طرزت على حواسيه بالقصب . وقد رسم القلق في اسرتها عبوساً زادها هيبة وجمالاً . ولم تتمالك عند وقوع نظرها على جعفر عن الابتسام وقد نسيت ما اعدته من عبارات الشكوى وذهب من مخيلتها ما تزاحم فيها من اسباب المخاوف واحست بارتياح تعودته في ساعة اللقاء — شأن الحب الصادق فانه غالب على اسباب الشقاء في كل حال فالمحب مهما انتابه من المشاق او اعترضه من العقبات اذا رأى حبيبه نسي كل شيء واشتغل به عن كل شيء . والحب سعادة حقيقية لا يزيدها الشقاء الاّ تمكناً كالذهب لا تزيدهُ النار الاّ صفاءً ورونقاً

وكان جعفر مع ما يراه من استهلاك العباسة في حبه وتفانيها في راحته لا ينسى انها من دمٍ اجمعَ اهل ذلك الزمان على انه أشرف من دمه لانها عربية هاشمية بنت خليفة وأخت خليفة وهو فارسي اعجميٌّ لا يسوّه مع ما بلغ اليه من السيادة ونفوذ الكلمة ان يعدّ في جملة الموالي على جاري اصطلاحهم في ذلك العهد . ولم يجسر على الطمع بمثل ما ناله جعفر احدٌ من الاعاجم مهما بلغ من سطوتهم وعلو مرتبتهم حتى الملوك والسلاطين من ظهور الاسلام الى اواسط القرن الخامس للهجرة . واول من اقدم على ذلك السلطان طغرلبيك السلجوقي فاراد ان يتزوج ابنة الخليفة القائم بامر الله العباسي فانزعج الخليفة لطلبه ولم يعقد له عليها الا مضطرّاً سنة ٤٥٤ هـ والخلفاء العباسيون يومئذ في دور الانحطاط فكيف في ايام الرشيد وهو عصرهم الذهبي — فاذا اعتبرت ذلك هان عليك تخوف جعفر من انكشاف امره واطلاع الرشيد على تزوجه بالعباسة زيجة حقيقية وهو انما عقد له عليها لنحل له رؤيتها وقد حسب ذلك منة كبرى على وزيره وصديقه والقائم بدولته . فجعفر لم يقدم على ذلك الخطر ولا اقدمت العباسة عليه الا لتغلب سلطان الحبّ عليهما

فلما التقى الحبيبان نسي كل منهما الغرض من ذلك الاجتماع لحظة على حد قول الشاعر المجنون

فياليلي كم من حاجة لي مهمة اذا جئتكم في الليل لا ادري ما هيا

ثم انتبهت العباسة لما يهددهما من الخطر فافتتحت الحديث وغلب عليها الدلال فبدأت بالعتاب وهو فاتحة حديث المحبين او هو حجة يتطرقون بها الى التشاكي وما التشاكي الا جلاء القلوب بالاحتكاك فيزداد تجاذبها وتذكو نيران الغرام فيها — فقالت « لم يرق لجعفر ان يجيب طلب العباسة الاَّ الآن ؟ »

فاجابها وهو ينظر اليها نظرة المحب الولهان « ان طلب العباسة امرٌ لا مردّ له ولكن الاحوال قضت بابطائي خوفاً من اعين الرقباء وقد جئتك بقارب على دجلة وبعثت غلامي بالجواد ينتظرني لاعود عليه » فادركت السبب في عدم رؤيتها اياه من الشرفة ساعة مجيئه. فقعدت على وسادة من الحرير المطرز وهي ممسكة يده تدعوه الى الجلوس بجانبها فاحسّ ببرد تلك اليد وارتعاشها وقعد على وسادة أخرى بجانبها وهو يحاذر ان ينتقل نظره عن نظرها ولبث ينتظر ما يبدو منها . فاذا هي تقول وصوتها يرتجف « الى متى هذه المحاذرة يا جعفر ؟ قد آن لنا ان نعيش او نموت »

فظنها تعرض بما يتخوفانه من امر الرشيد فتنهد وقال « ان الاقدار حكمت علينا بهذه المخاوف لانها جعلت بيني وبينك حجاباً من شرف النسب فجعلتك من سادات بني هاشم وجعلتني من الموالي »

فقالت وهي تنظر اليه عاتبة « انه حجاب من الوهم الباطل فانت اسمى نفساً من السادة وارفع في عيني من كل بني هاشم ولكن ... » وسكتت

فقال « لقد دعوتني على عجل فجئت فهل حدث شيء جديد ؟ »

قالت وقد ذهبت دهشة اللقاء وعادت اليها مخاوفها واسرعت الدموع الى ماقيها « نعم ... فينبغي ان نموت او نعيش اذ لا طاقة لي بما نقاسيه من المخاوف »

فاجفل وقال « ما الذي حدث مما نخافه الى هذا الحد .. ؟ اما الموت فاني استسهله في سبيل راحتك »

قالت وصوتها يرتجف « لقد انكشف امرنا ولا يلبث ان يطلع اخي على سرنا » واختنق صوتها

قال وقد بغت « واي سرّ ومن اطلع عليه ؟ وكيف ؟ ومتى ؟ »

قالت « قد انكشف سرنا بالامس وانا في دار فتحاس مع ولدينا اقبلهما وأتودع من رؤيتهما .. »

قال « ومن اطلع عليه ... من تجرأ على ذلك ؟ .. »

قالت « ابو العتاهية اللعين »

فاجفل وصاح « ابو العتاهية ؟ يجب ان يقتل حالاً »

قالت « وقد أردت قتله فبعثت شرذمة من الجند للقبض عليه في صباح هـذا اليوم وهو لا يزال في تلك الدار فتمكن من الفرار »

قال « وكيف يفرُّ من ايدي الجند ؟ تباً لهم »

قالت « انما نجاه عدوك الخبيث »

قال « واي اعدائي تعنين فانهم غير واحد »

قالت « صدقت انهم كثيرون ولكنني أعني اشدهم حسداً منك واكثرهم سعياً في اذيتك ووشاية فيك .. الم تعلم من هو ؟ »

قال « اظنك تعنين الفضل بن الربيع »

قالت « اياه اعني » واجهشت للبكاء

فحمي غضب جعفر لبكائها وكاد يمزق ثوبه غضباً وكيداً وقال « الفضل بن الربيع ! قبحه الله من وغدٍ زنيم ... الم يخف سطوتي ؟ الم يرهب حد سيفي ؟ ما الذي جرأه على هذه الوقاحة ؟ »

فقالت « جرأه انه مقرب من محمد بن زبيدة وانت تعلم نفوذ كلمتها عنـد اخي .. واتفق وجوده في دار الرقيق لابتياع بعض الجواري المغنيات لذلك الغلام الخليع وبينما هو خارج رأى جندنا يشتغلون بالقبض على ابي العتاهية فاستنجده وقد رأته جاريتي عتبة يشير اليه بعينيه كانه يعده بكشف سرٍّ يهمه فانقذه واستعان على ذلك برجاله وهدّد رجالنا فتركوا ابا العتاهية وعادوا فقصوا عليَّ الخبر فكدت اتقد بثيابي ولم اعد ادري ما اعمل فاشارت عليَّ تلك الجارية الامينة ان اطلعك على الواقع وذهبتْ هي اليك بتلك البطاقة وانت تلعب بالكرة والصولجان فعهدت بها الى غلامك حمدان الذي تعودت انفاذه اليَّ وهو اوصلها اليك . وقد قضيت في انتظارك ساعات هي اطول عليّ من الدهر حتى جئت الآن وهذا هوخبري فما رأيك ؟ .. قد اصبحت لا آمن البقاء هنا ساعة ويخيل لي ان احجار بغداد ومياه دجلة عالمة بسري وكانَّ خدمي وجواريَّ جندٌ يهمُّون بالقبض عليَّ ... ولوكان الخطر عليَّ وحدي لهان مصابي لكنني اخاف عليك من غضب اخي وشدة بطشه » قالت ذلك واستخرجت منديلها تمسح به عينيها وقد اغرقت في البكاء

وكان جعفر يسمع حديثها وعيناه شاخصتان اليها وقلبه يخفق بغتة ولحيته ترتعص غضباً . فلما فرغت من كلامها هاجت عواطفه وحمي غضبه فلم يتمالك ان وقف بغتة وقال « لا تخافي ياحبيبتي انهم لا ينالون منك شعرة قبل ان تزهق ارواحهم جميعاً .. »

فامسكت بطرف سواده واجلسته وهي تقول « لا تجعل للغضب سلطة عليك فان الامر يحتاج الى الروية والتبصر لان غريمك الخليفة امير المؤمنين وبنو هاشم وسائر العرب واحزابهم واجنادهم ولك حساد يتوقعون منك كبوة يجعلونها عليك حجة فاخاف اذا أُخذت الامر مصادرة ان تعرض نفسك للخطر »

الفصل التاسع عشر

الرأي الصواب

فابتسم جعفر والغضب ظاهر في شفتيه وعينيه « لا تظني محبك يرسل الكلام جزافاً فاني قد اعددت لكل نازلة دواء ... ان من اشرتِ اليهم من سادات بني هاشم وسائر رجال الدولة ليس منهم مع الرشيد احدٌ لأني غمرتهم بعطاياي وملكتهم باحساني . وانا لم اكثر الجوائز عبثاً ولا بالغت بالكرم والسخاء اعتباطاً ولكنني جعلت ذلك ثمناً لما ارجوه في مثل هذا المشكل واعظم منه . واما الجند فالقواد الفرس كلهم ناقمون على اخيك لمبالغته في مطاردة العلويين وعندي في خراسان الوف من صناديد الرجال يأتمرون بامري وكلهم ناقمون على بني العباس منذ فتك جدك ابو جعفر المنصور بقائده ومؤسس دولته ابي مسلم الخراساني ... اعذريني اذا حرصت لكِ بذلك وان كنت لم اصرح به لاحد سواك بعد ولا يغضبك ان تسمعي ما سمعتهِ عن جدك واخيك وانما احوجتني الى التصريح بما رأيتهُ من تخوفك .. »

فلما سمعت مشروعهُ اعظمت الاقدام عليه واطرقت ولم تجب فابتدرها قائلاً « كاني بك تتخوفين مما سمعته فاذا كنت تنكرين عليَّ مناهضة الخليفة وهو اخوك اخبريني »

فرفعت بصرها اليه وقد بدا الاهتمام واعمال الفكرة في عينيها وقالت « اني لا استحي ان اصرح لك بما في خاطري بعد ما سمعتهُ من تصريحك فاعلم انهُ لا يهدني في هذه الدنيا

احدٌ سواك وكل عدوٍّ لك فهو عدوٌّ لي ... لا استثني احداً ... ولكنني اخاف اقدامك على امر يمكننا الجنوح عنهُ الى امر آخر اقل خطراً منه ... اعلم يا حبيبي اني لا مطمع لي في هذه الدنيا الا بان اكون بجانبك ومعنا ولدانا وثمرة قلبينا (و بلعت ريقها تجنبا للبكاء) ولا يهمني ان يكون ذلك الاجتماع في قصر او كوخٍ فقد عافت نفسي القصور وما يحفُّ بها من اسباب المخاوف ... فانظر في سبيل ننجو بهِ من هذه المدينة الى مكان لا نخاف فيهِ باساً ودعنا من الوزارة والخلافة والسلطة فانها محفوفة بالمكاره والمرءُ مهما طال عمره او اتسع سلطانه لا يبقى لهُ مما يملكهُ الاَّ قيد باع يوارونهُ فيهِ ..» واخذت في البكاء و يداها بالمنديل على عينيها

فلما سمع كلامها ورآها تبكي على هذه الصورة كاد يبكي معها لو لم يتجلد ولكنهُ تأثر مما ذكرتهُ عن ولديهما فاطرق وهو يزيح القلنسوة عن جبينه ثم تشاغل بالقبض على لحيته واعمل فكرته في ما قد يجرُّه اليه تسرعه باظهار العدوان ورجع الى صوابه ورأى قولها اقرب الى السلامة فقال لها وهو يردُّ يديها عن عينيها « لا تبكي يا فؤادي اني فاعل ما تريدين ... صدقتِ ان التؤدة اولى باهل الحزم .. وها اني عارض عليك رأياً اظنك توافقينني عليه .. »

فابتسمت والدمع لا يزال في مآقيها وقد ذبلت عيناها من البكاء وتكسرت اهدابهما ونظرت اليه ولسان حالها يستفهم عن مراده . فابتسم هو وقال « ان خوفك من بلوغ خبر الطفلين الى اخيك بعيد اذ ليس بين رجال الدولة لا الفضل ولا غيره من يجسر على ذكرك بين يديهِ او التعريض بما تخافينهُ وانا اعلم الناس بذلك . فلا خوف علينا من هذا القبيل الاَّ بعد زمن بعيدٌ ندبّر في اثنائهِ وسيلة نبتعد بها عن بغداد ونكون في مأمن .. »

فتطاولت نحوه بعنقها وقالت « وكيف ذلك ؟ »

قال « قلت لك ان خراسان معي واهلها طوع ارادتي فاذا كنتُ فيها لا يستطيع اخوك ولا غيره ان يناوئني .. ناهيك باحزاب الشيعة العلوية فانهم يحاربون بين يديَّ الى آخر نسمة من حياتهم .. اليس كذلك ؟ »

قالت « بلى »

قال « وانا ساع من زمن بعيد في التخلص من الوزارة وابدالها بولاية خراسان وقد لاوعدني اخوك بها ولو اردت الحصول عليها في الغد لاجابني »

قالت العباسة « احق ما تقول ؟ اخاف ان يكون وعدهُ على دخل فانهُ لا يؤمن على وعدٍ مثل هذا »

قال جعفر « قد وعدني واكد الوعد والوشاة من حسادي يساعدونني على ذلك ليبعدوني عن بلاط الخليفة و يتمتعوا بالنفوذ دوني ولا احتاج في تحقيق هذه الامنية الى اكثر من كلمة واحدة »

فابرقت اسرتها و بان البشر في وجهها وقالت « بالله الا اسرعت في تحقيقها فاني لا ارى لنا خيرًا منها .. فاذا كنت انت في خراسان سرتُ انا اليك على عجل واستقدمنا ولدينا وعشنا معًا في رغد وهناء وانا واثقة ان الرشيد لا يطمع بنا هناك لانه يحاف على ملكه »

قال « فاذًا كوني مطمئنة فان الامر لا يحتاج الى صبر طويل »

فقالت « قد شعرت منذ الان بذهاب القلق لاني اعتقد كما قلت انهم لا يجسرون على ذكر خبر الطفلين بين يدي اخي لما يعلمونه من غيرته على العرض وانا على يقين انه قاتل كل من عرف اطلاعه على هذا السرّ .. »

قال « اذًا انت مطمئنة لهذا الرأي ؟ »

قالت « نعم . ونعم الرأي هو ... آه هل تتحقق هذه الامنية واعيش معك وابنانا معنا وتكون انت بعلي على رؤوس الاشهاد كما اني اعتقد انك كذلك ولو كره الحاسدون او انكره اخي علينا ؟ . » قالت ذلك وحرقت اسنانها

فقال وهو يتحفز للقيام « كم احب ان ابقى هنا ولا افارقك يا حبيبتي ولكن لا بدّ من ذهابي على عجل لاني جئت خلسة ... واذ قد صممنا على التستر فينبغي لي ان امضي سريعًا لئلاّ نجعل سبيلاً الى الوشاية »

فامسكت بيده واقعدتهُ وهي تقول « لا .. لا تذهب فاني .. » وغصت بريقها

فقال « اراك قد عدت الى المخاوف .. لا تخافي فاننا سنجتمع قريبًا باذن الله »

فقالت « لا بدّ من ذلك لاننا لم نرتكب اثمًا وزواجنا شرعيٌّ وانما اراد اخي ان يستبد برأيهِ فمنعنا مما حللهُ الله . الم يكن هو الذي عقد لك عليَّ ؟ »

قال وهو يهز رأسه استخفافًا « بلى ... ولكنه لا يرى لغيره حقًا ان يتمتع بذلك »

ونهض فنهضت هي معهُ فامسك يدها للوداع ونفسهُ لا تطاوعهُ عليه فوقف هنيهة وهو ينظر اليها وهي تنظر اليه والعيون تتفاهم بما تقصر الالسنة عن مثله ثم اصاح فلمسوته بيده الاخرى ومشى وهي تطاوعهُ حتى وصل الى الباب فلبس نعاله وودعها وهو يضغط

على يدها و يقول امكثي مطمئنة حتى يأتيك مني رسول الخير »

فاجابتهُ ونفسها لا تطاوعها على اطلاق يده « سر يا سيدي بحراسة المولى وفقك الله الى ما تريد »

فتراجع ونظر اليها نظر العاتب وقال لا تقولي ياسيدي فانما انا مولاك وانت سيدتي بمقتضى شرعهم وعرفهم .. اين انا من اخت امير المؤمنين ؟ »

فلما قال ذلك جذبت يدها من يده ونظرت اليه شذراً وقالت بلحن الدلال والعتاب « دعنا من شرعهم وعرفهم فانك سيدي بشرع الله وعرف المنصفين .. »

فضحك واسرع الى يدها فامسكها وهو يقول « استودعك الله حتى نلتقي وارجو ان يكون لقاؤنا نهائياً لا فراق بعده .. والافضل على ما ارى ان اقتصر عن زيارتك في هذه الايام ريثما ادبر الحيلة للاجتماع في مأمنٍ »

فقالت « يشقُّ عليَّ انقطاعك ولكنني اتحملهُ طمعاً بما ذكرت »

ثم صفقت صفقة تعودت ان تعني بها عتبة فجاءت مسرعة فقالت لها « امشي بين يدي مولاك حتى يخرج من القصر ولا يشعر به احد »

فاشارت اشارة الطاعة ومشت بين يديه في الدهليز وقد طفئت شموعهُ وسار هو في اثرها حتى خرج من القصر وبلغ الى مكان ترك فيها جوادهُ مع غلامه حمدان فركب وسار الى منزله

اما العباسة فلما خلت بنفسها مكثت حيناً وهي واقفة تسمع وقع خطوات جعفر حتى توارى وانقطع صوت وقعها فعادت الى هواجسها واحست باحتياجها الى عتبة . حتى اذا عادت اليها قصت عليها بعض ما دار بينها وبين جعفر واسرت اليها غرضه فوافقتها على ذلك الرأي ثم ذهبت العباسة الى فراشها

الفصل العشرون

قصر الامين

اما الفضل بن الربيع فقد تركناه عائداً بحاشيته من دار الرقيق ومعهُ ابو العتاهية

وكان ابو العتاهية قد امتلأ غيظاً من عتبة وسيدتها • ولو لم تتعمدا أذيته على هذه الصورة ربما قام من نفسه ما يوبخه على افشاء ذلك السر مع ما يطمع به من الكسب المالي بافشائه • اذ قد تأخذه الشفقة على الغلامين او الحياء من العباسة او الخوف من جعفر او الرشيد او ربما توقف عن الافشاء حيناً من الزمن ريثما يجد سبيلاً يتقدم به الى الفضل او غيره بالقاء ذلك السر اليهِ فجاءت تلك الاساءة مسوغاً له على الافشاء وقد مهد السبيل اليه وجود ابن الربيع واطلاعه على تلك المعاملة فلما ركب الفضل ورجاله امر لابي العتاهية بدابة يركبها وقد تاقت نفسه لاستطلاع سر الامر فركب ابو العتاهية وهو اكثر ميلاً منه الى اطلاعه عليه

سار الركب على خيولهم رأساً الى قصر الامين فلم يكن لهم بدٌّ من المرور على جسر بغداد فبعد ان تجاوزوا شارع دار الرقيق مروا بالميدان من شماله ورأوا اهل الدولة يتوافدرن لحضور لعب الكرة والصولجان فتحولوا من وراء الاصطبل في الشارع المؤدي الى الجسر • وكانت الشمس قد تكبدت السماء وتزاحمت الاقدام على ذلك الجسر وهو مصنوع من السفن متحازية متلازة وقد شدت من جوانبها بعضها الى بعض بامراس او سلاسل من حديد والقيت فوقها الواح الخشب يمرُّ فوقها الناس والدواب • وعلم الفضل ان الجسر لا يخلو من حرس سرّي يراقب حركات المارين من اهل الدولة والناس يومئذ يتجسس بعضهم على بعض من كل سبيل • فقبل مغادرته دار الرقيق تلثم وتلثم بعض الخاصة من اتباعه فمرُّوا على الجسر شمالاً الى الرصافة وعرجوا من هناك نحو الجنوب الشرقي الى المخرّم وجعلوا اكثر طريقهم قرب الشاطىء حتى اتوا القصر

وكان الغرض من تبكير الفضل الى دار الرقيق في ذلك الصباح التعجيل في تلك المهمة والرجوع الى الامين حوالي الضحى حتى لا يفوته الصبوح وكان الامين قد وعد نفسه بسماع غِنـاء الجواري البيض في ذلك اليوم والفضل وعده به حرصاً على رضاه وتقرباً اليه بكل ما يسرُّه لعلمه انه ولي العهد وهو لا يرجو لنفسه سبباً في قهر البرامكة الاَّ به لان الامين يكره الفرس لانهم من غير العرب ويكره البرامكة على الخصوص وجعفر الوزير على الاخص لانه ساعد اخاه المأمون على ولاية العهد مع كون أمه جارية وأم الامين هاشمية هي زبيدة الشهيرة

فالفضل لم يكن يرى في نفسه القدرة على سبق البرامكة في ادارة شؤون الدولة اوفي سياسة الاعمال وتسهيل استيفاء الخراج او ارضاء الرشيد فسلم الرشيد مقاليد الدولة الى جعفر

واطلق يده فيها فعمد الفضل الى الحيلة وهو ذو دهاء وصبر فرأى الامين يكره الفرس للاسباب التي قدمناها فانحاز اليهِ وجعل يتقرب منهُ بكل وسيلة برضاها وان كانت ليس من شأنه قضاؤُها حتى مسألة الجواري فقد كان الفضل في غنى عن الذهاب بنفسه الى دار الرقيق لكنه اراد ان يبرهن للامين انهُ يحبُّه ويتفانى في خدمته . على ان اشتغالهُ بمشاهدة اصناف الرقيق ثم ما اعاقه من امر ابي العتاهية والقبض عليه اخَّراه عن الوقت المعين فوصل القصر وقد مالت الشمس عن خط الهاجرة ومع ذلك فقد رأى ان يطلع على سر ابي العتاهية قبل والدخول على الامين — وان كان مزاجه لا يبعثه على التسرع في الاستطلاع لانهُ كما قدمنا من اهل المزاج الصفراوي الذين يصبرون على الامور ولا يقلقون من موعد او يتعجلون في استطلاع سرٍّ بخلاف اهل المزاج العصبي فانك اذا وعدت احدهم بسرّ تطلعهُ عليهِ او خبرٍ ستلقيه اليهِ لا يبرح في قلق واضطراب حتى يبلغ ذلك الوعد . ولذلك فاهل هذا المزاج لا يصلحون للدهاء السياسي او الاقدام على المشروعات الشاقة المشوشة التي تفتقر الى سعي وكظم ومطاولةٍ

فالفضل بن الربيع لم يكن يتعجل في استطلاع السرّ رغبة في سرعة الاطلاع ولكنهُ توسم من وراء ذلك سبباً يساعده على مرامه . فلما اطل على قصر الامين امر رجاله ان يتحولوا بافراسهم الى اماكنهم حتى خلا بابي العتاهية فترجلا في شارع عريض تظلله الاشجار الملتفة من الجانبين ينتهي بساحة كبيرة في صدرها باب القصر — وما هو باب القصر على الحقيقة وانما هو باب الحديقة والقصر في بعض جوانبها من جهة دجلة له سور خاص بهِ . وكانت عادتهم في بناء هـذه القصور ان يجعلوا اسوارها الخارجية متينة عالية اشبه باسوار الحصون وربما جعلوا في اعلى السور مرامي للنبال او نوافذ لحجارة المجانيق لمـا كانوا يتوقعونهُ من تقلب الاحوال وانتقال السلطة بغتةً من حزب الى حزب . وباب الحديقة كبير متين يقفل ويوصد حتى لا يستطاع فتحه الاَّ بقوة الرجال . وكان الحرس لا يبرحون المكان وقوفاً والباب مقفل فاذا قدم احد فتحوهُ له . فاذا كان فارساً ترجَّل خارجاً وترك دابتهُ وسائسها او خادمه يراعيها او يذهب بها الى الاصطبل بجانب ذلك السور وفيهِ المرابط تشدُّ اليها الدواب وهي كثيرة وخصوصاً بباب ولي العهد والناس يومئذٍ يتزلفون اليهِ ويكثرون من التردد عليهِ تمهيداً لما يرجونهُ من نفوذ الكلمة عنده بعد ان تفضي امور الدولة اليه

فلما ترجل الفضل وابو العتاهية تنحيا الى جانب الطريق واخذ الفضل يستطلع الخبر وابو العتاهية يقصهُ عليهِ والفضل مستغرب حتى شك في صدقهِ ولكنهُ مالبث ان جاء على

آخر الحديث حتى ترجحت صحتهُ عندهُ ولكنهُ اعظمهُ ولبث مطرقاً لا يحير جواباً ثم نظر الى ابي العتاهية واراد ان يغالطه فقال « احذر ان تكون قد اختلقت هذا الخبر فاني لا اصدقه وربما كنت مخدوعاً فيهِ لأن مولاتنا العباسة من ابعد الناس عن مثل هذه الشبهة فاحذر ان تذكر ذلك لاحدٍ لئلا تقع في شر اعمالك »

فادرك ابو العتاهية غرض الفضل من هـذه المغالطة فطاوعه وقال « اني اجلُّ مولاتنا عن هذا ولكنني قصصت ما رأيته ولم اكن لابوح به لك لو لم ينفق ما اتفق من نجاتي على يدك ولا ادري مع ذلك اذا كانت عيناي قد خدعتاني فانهما كثيراً ما تخدعان البصير فيقع في حفرة لا يقع فيها الاعمى ... » وهزَّ كتفيه وهو مطرق كأنهُ يقول « وماذا يغنيني من ذلك كله .. »

الفصل الحادي والعشرون

جعفر بن الهادي

ولم يكن الفضل يجهل استهلاك ابي العتاهية في سبيل المال ولم يشك مطلقاً انهُ لم ينقل ذلك الخبر الاَّ وهو يتوقع جائزة كبيرة فاحب استرضاءه لعله يحتاج اليهِ في مثل هذه المهمة مرة اخرى فمدَّ يده الى جيبه واستخرج صرَّة دفعها اليهِ وهو يقول « انك شاعرٌ وقد تعوَّد الشعراء ان لا يقولوا قولاً الاَّ اجيزوا عليهِ وان لم يكن شعراً .. فخذ هذه الجائزة الصغيرة وستنال اضعافها من مولانا الامين فانهُ سيأخذه الطرب لنجاحنا في ابتياع هؤُلاء الجواري البيض فلا يبالي من اجاز وسأخبره انك كنت لنا عوناً في الحصول عليهن .. » قال ذلك وضحك ضحكة لها صوت وليس لها شكل كانهُ يتضاحك وجعل يده على كتف ابي العتاهية وهو يقول « بارك الله فيك » ومشى فاحس ابو العتاهية انهُ يريد الذهاب وحده فودعه وقبل يده وتحوَّل فقال لهُ الفضل « احذر ان تمضي الى مكان يعرفهُ ذلك الوزير فانهم يقبضون عليك و يؤذونك والافضل ان تمكث في هذا القصر مع بعض رجالي او اذهب الى منزلي اقم هناك وانت في مامن وفي كل حال لا تبعد عني كثيراً » فطاطا رأسهُ وتحوَّل

اما الفضل فانهُ مشى وقد ازاح اللثام عن وجهه لانهُ اصبح في أمان حتى اقبل على الساحة بين يدي الحديقة فرأى الباب مفتوحاً فتحاً كاملاً والحرس متشاغلون يحادثون جماعة

من الغرباء عرف الفضل من مجمل حالهم انهم من اهل البصرة واكثرهم من الخدم او السياس بعضهم يتحادثون والبعض الآخر يشتغلون بسياسة الخيول يربطونها او يعلفونها او يصلحون شؤونها . فما لبث ان ارسل نظره الى داخل الحديقة حتى علم انهم رجال جعفر بن موسى الهادي لانهُ شاهده يتمشى مع الامين في بعض جوانب البستان . اما الفضل فلم يكد يقترب من الباب حتى عرفه الحراس فتسابقوا الى خدمته والتوسعة له

وجعفر بن موسى هو ابن الخليفة موسى الهادي اخي الرشيد وكان الهادي قد تولى الخلافة قبل اخيه الرشيد ولم يطل تربعه في دستها لاسباب سيأتي بيانها . وكان ابوهما المهدي قد اوصى بولاية العهد لولديه موسى الهادي وهارون الرشيد على ان يتولى الهادي اولاً وبعده الرشيد . فلما توفي المهدي سنة ١٦٩ هـ خلفه الهادي فحدثته نفسه ان يخلع اخاه الرشيد ويبايع لابنه جعفر هذا ليبقى الحكم في اعقابه . فاعلن فكره لخاصته فوافقوه وخلعوا الرشيد وبايعوا لجعفر ولم يسع الرشيد الاَّ القبول لقصر يده عن المقاومة ورجال الدولة كلهم مع الخليفة وقد سايروه الاَّ يحيى بن خالد البرمكي فانه جاء الى الرشيد وشدد قلبه وضمن له الخلافة واحتمل الخطر على حياته رغبة في استبقاء ولاية العهد للرشيد وخلع جعفر بن الهادي منها . فغضب عليه الهادي وحبسهُ وهدده بالقتل ثم استطاع بتعقلهُ ودهائه وقوة حجته من اقناعهِ ان يقرَّ أخاه الرشيد في الولاية ريثما يكبر جعفر فيخلع الرشيد ويبايع لجعفر ولم تمض مدة على هذه القرار حتى مرض الهادي ومات بغتة ولم يحلم الاَّ سنة وثلاثة اشهر وشاع يومئذ ان أمه الخيزران عجلت موتهُ غيظاً منه لانه أحب اغلال يديها عن التصرف في شؤون الدولة وغيرة على اخيه الرشيد . وذهب يحيى البرمكي في الليل الى الرشيد وبشرهُ بالخلافة واقرَّه على سريرها . ولذلك فالرشيد حفظ له هذا الجميل واطلق يديه في أمور الدولة ولم يكن يقدم على امر عظيم الاَّ بمشورته وجعل ولده جعفر وزيراً اباح له التصرف في كل شيء كما قد علمت

وكان جعفر بن الهادي عند وفاة ابيه غلاماً فلم يقدم على عمل ولم يسعه الا السكوت وفي نفسه من يحيى وأولاده حزازات وهو يعتقد ان الرشيد اغتصب الخلافة اغتصاباً وانه تواطأ هو ويحيى والخيزران على قتل ابيه وكتم ذلك في نفسه اعواماً . وكان يقيم في البصرة وقد اقطعه الرشيد ارضاً واسعة وخصص له الرواتب الكبيرة مثل سائر بني هاشم . فقد كانت السياسة تقضي في ذلك العصر بالاعتماد على الكرم في توقي الشرور فالخليفة اذا تسنم ذروة الخلافة علم ان العيون مفتحة عليه وان اكثر الناس حسداً له وغيرة

منه اهلهُ فاذا كان حكيماً وسع لهم اسباب الرزق واكثر من اكرامهم وسهل عليهم وسائل الترف والقصف لعلمه انها تشغلهم عن الاهتمام بالخلافة وتضعف عزائمهم عن النهوض اذا دعوا اليه • ولذلك رأيت بني هاشم من عهد الرشيد وما يليه من اكثر الناس انغماساً في الترف والقصف لا شاغل لهم الاَّ انتقاء المغنين والتمتع بالمأكل والمشرب في الحدائق والبساتين واقتناء الجواري على اختلاف الطبقات للغناء والتسري والخدمة واكثر ما يكون مقامهم في قصورهم بالبصرة ولا يأتون بغداد الا لقبض مرتباتهم او لابتياع الجواري او بعض الآنية ونحوها ولكن الغالب ان يرسل الرشيد رواتبهم اليهم وهم قعود في قصورهم

وكان جعفر بن الهادي من جملة الهاشميين اهل الرواتب وكان مقيماً في البصرة • لكنه لم يكن يشغله الترف والقصف عما في قلبه من النقمة على عمه الرشيد او على يحيى البرمكي واولاده وقد زاده تقدم جعفر البرمكي في مصالح الدولة حسداً ونقمة • وكان مع ذلك يعلل نفسه برجوع الخلافة اليه بعد وفاة الرشيد فلما رآه بايع لابنيه الامين والمأمون بعده تحقق فشله وعزم على الانتقام ولا سبيل له اليه وليس من يناصره عليه • حتى اذا ظفر بالفضل بن الربيع وتكاشفا وهما متفقان في كره جعفر البرمكي وعدم الرضاء بالهيأة الحاكمة على الاجمال • فجعلا يتساندان في قلب تلك الحكومة ويتواعدان على التعاون • وكان همُّ ابن الهادي في الدرجة الاولى ان يسقط جعفر البرمكي من الوزارة فاذا سقط سقطت ولاية العهد عن المأمون لانه هو الذي دبرها له فلا يبقى بينه وبين الخلافة الاَّ الامين وهو يعلم ضعفه وتهتكه فتقرب منه وعوَّل في نيل بغيته على نفس السياسة التي اتخذها الرشيد في استبقاء الخلافة له باطلاق أسباب البذخ والترف لبني هاشم واشتغالهم بالجواري والغناء عن طلبها • فلما رأى ابن الهادي ميل محمد الامين الى الترف والقصف فبدلاً من ان ينصحه في العدول عنهما جعل يسهل له اسبابهما وينشطه في طلبهما ولو بعثه ذلك الى اظهار الخلاعة أو التهتك في بعض الاحيان والامين غافل عن ذلك لاهٍ عمن يحدق به من اهل الدسائس وارباب المطامع • وكان ابن الهادي قد جاء بغداد منذ بضعة ايام يظهر انه جاء لقبض راتبه ونزل على الامين فاخلى له قصراً خاصاً بجانب قصره يقيم فيه بحاشيته واعوانه ويقضيان معظم النهار معاً في اللهو والقصف من الصباح الى المساء • وكان هو الذي نبهه الى اقتناء الجواري البيض المغنيات وحرض الفضل بن الربيع على المبادرة الي ابتياعهن منذ الفجر على ان يعود بهنَّ قبل انقضاء وقت الصبوح فيتمتعون بالراح على رخيم اصواتهن

الفصل الثاني والعشرون

محمد الامين

فلما ابطأ الفضل قلق الامين فانصرف الى شرفة في قصره تطلُّ على دجلة وجلس وعيناه شائعتان لعلهُ يجد الفضل عائداً في القارب . فلما انقضى وقت الظهيرة ولم يعد ملَّ الامين الانتظار فخرج الى الحديقة ومعه ابن عمه جعفر بن الهادي يتفرجان بما فيها من الاقفاص الكبيرة كانها البيوت وفيها اصناف الطير الملوَّن المجلوب من بلاد الهند واواسط افريقيا والاقفاص المتينة المصنوعة من شبك الحديد الغليظ في بعضها اسودٌ وفي الآخر فيلة او نمور . ولما فرغا من التفرج والتفضل لم يأت امر الامين صاحب كباش المناطحة ان ياتي بها للمناطحة بين يديه ومضى الى مجلس في وسط الحديقة يظللهُ عريش عال . وهو يهمُّ بالدخول اليهِ مع ابن عمهِ اذ جاءه بعض الخدم ان الفضل قادمٌ فأمر باستقدامه الى العريش وهو يظن الجواري معه

اما الفضل فدخل البستان ماشياً وقد شاهد الامين وابن عمه يتحوَّلان الى العريش وهما بلباس المنادمة . والبستان مقسوم الى مغارس بينها طرقات مفروشة بالحصباء الملوَّنة يتخللها اغراس من الاشجار المتنوعة ذات المناظر الجميلة ومنها المولد في بغداد والمجلوب من بلاد الهند وخراسان وتركستان وما بين ذلك من اصناف الرياحين وازهارها البديعة الالوان وكلها في مغارسها على احسن هندام يتعهدها البستاني بالمقراض يقلد بها اشكال الحيوانات فيجعل بعضها بشكل الطاووس او غيره من الطيور الجميلة والبعض الآخر بشكل الحيتان او بعض الوحوش الكاسرة كالاسد والنمر . فيمرُّ الرجل وحواليه الاشجار والانجم والاعشاب من كل صنف ولون ورائحة وهو يحسب بعضها اسوداً رابضة او طيوراً دارجة مما يسحر الالباب . وبين تلك المغارس احواض يرسل اليها الماء بجار مستترة وفيها من الاسماك اجملها لوناً والطفها شكلاً يتعهدها البستاني بفتات الخبز او بقايا الاطعمة مما يكثر في مطابخ الامراء في ايام الرغد والرخاء . ناهيك بما رسموه في طرق الحديقة من اشكال الكائنات الحية وغير الحية بترصيف الحصى على اختلاف الوانها فيصورون بذلك زهوراً بالوانها واسوداً او فيلة باشكالها على نحو ما يفعلون بالفسيفساء . وكانوا يقيمون لكل من هذه الفنون صناعاً من الفرس او الروم او الهند ممن اتقنوا طرق الزراعة وتفننوا في اساليب الهندام

على ان روائح الازهار العطرية في ذلك البستان لم تكن شيئًا يذكر بالنظر الى ما تضوَّع من اثواب ولي العهد من رائحة الاطياب ولاسيما المسك . وكانت عادتهم اذا عزموا على مجلس شراب او غناء ان يخلعوا ثوبهم الرسمي و يلبسوا ثوبًا ملونًا بالحمرة او الصفرة او الخضرة يسمونه ثوب المنادمة وهو في الغالب غلالة رقيقة وملاءة مصقولة . وكان الامين يومئذ لابسًا غلالة حمراء فوقها ملاءة صفراء مصقولة صقلاً شديداً حتى تقوم قياماً من شدة الصقل . وجعل على رأسه بدل العمامة او القلنسوة اكليلاً من ريحان وازهار ضفره له البستاني ضفرًا جميلاً حتى يشبه القلنسوة . ولبس برجليه خفين سندبين . وكان رفيقه ابن الهادي في مثل ذلك ولكن ملاءته كانت خضراء وعلى رأسه طاقية حولها عمامة صغيرة من الوشي الثمين . وقد سوَّى شعره على عادة شبان بغداد في ذلك العصر اي انهُ حدَّفه على جبينه وقصره دون جبهته وسوَّاه مع حاجبيه ودوَّره الى اذنيه واسدله الى صدغيه [1]

وكان الامين ورفيقه قد جلسا في العريش ينتظران قدوم صاحب الكباش والامين اكثر رغبة في مقابلة الفضل اذا كانت الجواري معهُ . واذا هو يسمع وقع خطواته على الحصى بقرب العريش فصاح فيه « ما وراءك يا فضل ؟ »

فاجاب وهو داخلٌ « ما ورائي الاَّ كل خير يا مولاي »

قال « واين الجارية او الجواري المغنيات ؟ »

قال « هنَّ آتيات عن قريب ... » ولما اطلَّ الفضل على الامين ورأى لباسهُ وحالهُ ابتسم رغم ارادتهِ فابتدره الامين قائلاً « كيف تراني بهذا الاكليل وهذه الثياب ؟ »

قال « أرى انك ملاك بصورة انسان » وكان الامين يومئذ في السابعة عشرة من عمره وقد نبت عارضاهُ وظهر عذاراه وتجلى ماء الشبيبة في محياه . وهو جميل الصورة طويل القامة ابيض اللون صغير العينين اقنى الانف سبط الشعر وقد انحسر شعرهُ عن جانبي جبهتهِ [2] وكان قوي العضل حتى يلقى الاسد فلا يبالي به [3] وفيه بطش وشجاعة وفصاحة وأدب و بلاغة . فاذا لقيه الرجل تهيب من منظره . واحبهُ ولكنهُ كان سيئ الرأي كثير التبذير أرعن [3] جعل همهُ اللهو والقصف باقتناء الجواري والغلمان ولعلهُ سيق الى الافراط في ذلك بما اراده اهل الاغراض من تضييع الملك على يدهِ او رغبةً

(١) نفح الطيب ج ٢ (٢) ابو الفداء ج ٢ (٣) المسعودي ج ٢
(٣) فوات الوفيات ج ٢

منهم في استرضائه التماساً لسخائه . اما ابن الهادي فكان رقيق البدن جميل الصورة قصير القامة خفيف العارضين حاد العينين وكان اكبر من الامين سناً واحسن منهُ رأياً وانما سايره في قصفه ولهوهِ لغرض في نفسه كما تقدم

ولما دخل الفضل صاح فيه الامين «عليك بثياب المنادمة واخلع هذا الثوب فان ابطاءك الى هذه الساعة لا ينبغي ان يفسد علينا ما دبرناه من اسباب السرور وان كان الصبوح قد انقضى فنقضي بقية النهار في الطرب والانس» ثم صفق فاتاه غلام تركيٌّ جميل الصورة لم يبد عذاره بعد وعليه دراعة حمراء اللون تمنطق فوقها بمنطقة عريضة من حرير موشاة بالقصب وارسل شعره ضفيرة طويلة وراء ظهره وعلى رأسه شبه طاقية هرمية الشكل مزركشة بالقصب منحرفة الى جانب واحد في قمتها هلال من فضة اثقل راسها فتدلى فاصبح الغلام اشبه بالبنات منه بالفتيان لفرط جماله . ولو سمعته يتكلم لثبت عندك انه فتاة لبعده عن خشونة اصوات الرجال لانهُ خصيٌّ . وكان في قصر الامين كثير من امثاله عني في استجلابهم من اقصى بلاد الترك والجركس جعلهم طوائف لخدمته ولمجالس انسهِ

فلما جاء الغلام وقف متادباً فقال لهُ الامين «من ترى في بابنا من الشعراء ؟»

قال «الحسن بن هانىء (ابو نواس) وابو العتاهية و . . .»

فقطع الامين خطابهُ قائلاً «ما لنا ولأبي العتاهية وهو من اهل الزهد فلا ينفعنا زهده في مجلسنا هذا . واما الحسن بن هاني فانهُ ابن بجدتها وهو شاعر ظريف» قال ذلك وضحك ثم التفت الى الغلام وقال «اصرف الشعراء الاّ ابن هانئ وقل لصاحب الشراب ان يعدّ لنا مجلساً كاملاً . . .»

فقال الفضل «وابو العتاهية لا باس بهِ يامولاي فانهُ شاعر ظريف ولا يهمك ما يقولون عن زهده»

فصاح بالغلام «وابو العتاهية ايضاً .» فمضى الخصي لاعداد ما يلزم

الفصل الثالث والعشرون

مناطحة الكباش

اما الامين فاستبطأ صاحب الكباش فصفق فجاءه غلام آخر فصاح بهِ « واين صاحب الكباش فاني احب ان يرى ابن عمي كبشين يتناطحان ليس في بغداد كلها ولا في البصرة ولا في سائر العراق مثلهما »

فقال « انهما معدّان للنطاح منذ ساعة ولم يأتِ بهما الى هنا ضنًّا بما في ارض هذا العريش من الفسيفساء فان الكباش تقتلعها باظلافها في اثناء النطاح وهي لا تملك قوتها فوق الحصى فاذا شاء مولاي ان ينتقل الى موقفها وراء هذا العريش رآها »

قال « حسناً . » ونهض فمشى ومشى ابن الهادي والفضل في اثره وهما يتغامزان على ما يتشاغل بهِ ولي عهد المسلمين من الالعاب الصبيانية وقد قال كل منهما في نفسه « كيف يثبت ملكٌ هذا وليُّ عهده ؟ ايستطيع من كان في حاله ان يحكم مملكة اولها في بحر الهند وآخرها على شواطيء بحر الظلمات وفيها من اصناف البشر الكثيرة وضروب الطبائع المتباينة والعادات المختلفة والعناصر المتضادة مالم يجتمع في مملكة واحدة ؟ ناهيك بالاحزاب السياسية ومطامع اهل النفوذ » على انهما سارا وهو يتقدمهما بلباسه الملوَّن المصقول وقلنسوته المصنوعة من الازهار والرياحين حتى وصلوا الى بقعة من البستان مستديرة وجدوا في وسطها رجلاً كبير اللحية عريضها عليهِ قلنسوة التجار ويظهر من ملامحه انهُ هندي الجنس وبين يديه كبشان كبيران ابيضان وقد نقش عليهما بالالوان صوراً واشكالاً وعلق في عنق كل منهما عقداً من العقيق وصبغ قرني احدهما بالخضرة وقرني الآخر بالحمرة . فلما اقبل الامين عليهِ وقف الرجل وتقدم لتقبيل يدهِ فمنعه وقال « ايهما كبشي ؟ »

فاشار الرجل الى صاحب القرنين الاحمرين وقال « هذا هو يا مولاي »

فقال وهو ينظر الى الفضل « فالآخر اذاً كبشك . . فليتناطحا ومن غلب صاحبه علقنا في عنقه عقداً آخر يشتريه لهُ صاحب الكبش المغلوب »

فلم يسع الفضل الاّ اظهار الامتنان من هذا الانعام وقال « وارجو ان يغلب كبش

مولاي واذا غلب كبشي فانه يخجلني »

فضحك الامين حتى كاد يستلقي وقال « وانا اطلب الى الله ان لا يغلب كبشك ليس لانهُ لك ولكن .. » وضحك

فلم يفهم الفضل قصده والتفت الى ابن الهادي فرآه يبتسم فاستفهمه بعينيه فقال وهو يخفض صوته « لان اسمهُ برمك »

فادرك الفضل ان الامين يتفاءل بذلك فاذا غلب الكبش « برمك » فكانهُ غلب جعفر البرمكي . ولم يسمّ كبشه « جعفر » توقيراً لابن عمه جعفر بن الهادي . واخذ الكبشان في المناطحة وراعيهما يعلم رغبة الامين في ان يغلب كبشه فكان يبذل جهده في هذا السبيل حتى تمّ ما اراده الامين وكان كبشه الغالب فضحك وسرّ وامر لصاحب الكباش بجائزة ثم جاءه الغلام وهو يقول « ان صاحب الادياك قادم يامولاي فهل تاذن ان تشاهد مهارشتها ؟ »

قال « ارجعه فقد كفانا الآن ما شاهدناه من مناطحة الكباش وآن لنا الدخول الى المنادمة » قال ذلك ومشى نحو القصر على الحصباء في طرق الحديقة . وكان قصر الامين قائماً على شاطىء دجلة اليسرى وله نوافذ ورواشن وشرفات يطل بعضها على النهر . وفي جملتها بهوٌ كبير اشبه بمصطبة واسعة مرصفة بالرخام الملون يظللها سقف عليه نقوش ملونة مذهبة من صنع مصوري الفرس او هي صناعة ممزوجة من فنون الفرس والروم . والسقف قائم على اساطين من الرخام محلاة بالذهب ولولا سور القصر الخارجي الكبير لكان الجالس على المصطبة يرى السفن في دجلة ذاهبة جائية . على انهم جعلوا في السور باباً يمكن النزول منه الى الشاطىء على مسنّاة ترسو عندها الحراقات والزلالات . وكان للامين ولع في اقتناء السفن والتفنن في اشكالها وصورها . فاصطنعوا له حراقات على صور الاسد والفيل والعقاب والحية والفرس ارسلها في مياه دجلة وقد انفق في اصطناعها مالاً عظيماً (١)

واما من جهة البستان فللقصر باب كبيرٌ هو بابه الاصلي يدخل منه الزوار قائم في جدار على شكل قوس مقعرة نحو نصف دائرة والباب في منتصف القوس يصعد اليه بضع درجات . والى جانبي الباب من الخارج مقاعد من الرخام موازية للحائط في استدارته . وقد نقش على اعلى الباب بالحرف الكوفي الجميل « محمد الامين بن هرون الرشيد » والقصر بجملته محاط بسور كبير عالٍ على عادتهم في تعلية الاسوار

---

(١) ابن الاثير ج ٦

وكان الامين وهو ماشٍ في الحديقة يتناثر الخدم والخصيان بين يديه يتسارعون في نقل خبر مجيئه . فلما اقبل على القصر وقف الحجاب احتراماً له وهو لا يبالي . فصعد الدرجات ودخل الباب والفضل وجعفر في اثره فمرُّوا في دهليز ينتهي الى باحة مستديرة في صدرها باب يستطرق الى دهليز آخر ينتهي الى دار النساء وهي قصر قائم بنفسه يستطرق من بعض قاعاته الى المصطبة التي تقدم وصفها . وفي يمين الباحة المستديرة التي ذكرناها بابٌ يستطرق الى دهليز ينتهي ببيوت كثيرة يقيم فيها الخدم والاعوان والعبيد ونحوهم والى يسار الباحة باب آخر يتصل منه الى دار الاضياف وهي غرف كثيرة ومطابخ وموائد كانها بلد صغير

الفصل الرابع والعشرون

دار النساء

فلما وصل الامين الى تلك الباحة تقدم كبير الخصيان السود بين يديه فوسع له ستارة من الديباج الموشى معلقة على الباب المؤدي الى دار النساء فدخل ومشى في الدهليز ودعا الفضل وجعفر فتبعاه وخطواتهم لا يسمع لها وقع لانهم سائرون على طنافس كثيفة الوبر من صنع طبرستان . فلما انتهوا من الدهليز الثاني اشرفوا على حديقة فيها الازهار والرياحين ووراءها دار النساء (الحريم) يصعد اليها بست درجات من الرخام الاحمر وعلى بابها ستارة ثمينة من الديباج سماوية اللون عليها كتابة بطراز القصب هذا نصها — وهي من شعر حاتم الطائي :

وما انا بالساعي بفضل زمامها ... لتشرب ماء الحوض قبل الركائب
وما انا بالطاوي حقيبة رحلها ... لابعثها خفاً واترك صاحبي
اذا كنت رباً للقلوص فلا تدع ... رفيقك يمشي خلفها غير راكب
انخها فاردفه فان حملتكما ... فذاك وان كان العقاب فعاقب

وهي تشير الى رغبة صاحب هذا المنزل بالسخاء وكان الامين كثير السخاء . وكان رئيس الخصيان ماشياً بين يديهم فلما اقبلوا على ذلك الباب تقدم ووسع الستارة بيده فدخل الامين ورفيقاه الى قاعة كبيرة اشبه شيء بقاعة الاستقبال الى كل من جانبيها باب

يستطرق احدهما الى مساكن النساء والباب الآخر يؤدي الى مجالس خصوصية هي قاعات لكل قاعة منها فرش خاصّ بلون خاصّ . ولم يكن غرض الامين الذهاب اليها وانما أراد الخروج الى المصطبة وراء تلك الدار . وكان الفضل وابن الهادي حالما دخلا تلك القاعة سمعا ضرب العيدان على غير نظام كأن اصحابها يسوّونها وهم وراء الجدران ولكنهما لبثا ينتظران ما يفعله الامين . والقاعة المشار اليها مفروشة بالارمني من الحرير المزركش وفي جدرانها صور بعض ملوك الفرس والروم على افراسهم وبينها صور بعض حيوانات البر والبحر وقد صنع كثير من هذه الصور تنزيلاً بالذهب او بالعاج على الواح من خشب الابنوس وعلق بعضها على الجدران بمسامير من الذهب . وعلى ابواب القاعة من الداخل ستائر معلقة بمسامير من الفضة ضخمة وفي ارضها بساط واحد ربما بلغت مساحته عشرين ذراعاً في عشرين وحولها مما يلي الجدران وسائد مستديرة من ريش النعام مغشاة بالابريسم الموشى . وفي زواياها مناور من الفضة توضع فيها الشموع للاضاءة في الليل

فلما وصل الامين الى هذه القاعة وسمع طنطنة العيدان وراءها جلس على سرير من الابنوس المنزل فيه العاج كان قائماً هناك وأشار الى رفيقيه فجلسا . ثم أومأ الى قيم الخصيان باشارة فهمها فحنى راسه وخرج والفضل في قلق ليعلم هل وصلت قرنفلة ورفيقتاها . وابن الهادي ينظر الى الامين ويبتسم وفي نفسه امور عظام لو تنفسها وخرجت زفيراً لاحرقت تلك القاعة بما فيها ولكنه كان كظوماً صبوراً . ثم ما عتم ان سمعوا ضرب العيدان ضرباً كثيراً على توقيع واحد ونغم واحد واذا بباب من ابواب القاعة فتح وخرج سرب من الجواري في ايديهنّ العيدان فمررن في القاعة عشراً عشراً يضربن على العيدان ضرباً رخيماً ويغنين بصوت واحد فاذا فرغ العشر انصرفنَ من الباب الآخر وجاءت عشر اخر وفي ايديهن عيدان أخر وهنّ يغنين غناء آخر على نغم آخر فلما انصرفن جاءَ عشر أُخر وهكذا حتى تمت عشرة افواج . فلم يكن شيءٌ من ذلك ليدهش الفضل ولا جعفر لانهما شاهدا مثله في دور البرامكة ودار الرشيد . وانما ادهشهما ما جاء بعد الجواري من اسراب الغلمان الخصيان وغيرهم وعليهم الالبسة الثمينة الباهرة مما لم يسبقه الى مثله احد في الاسلام على هذه الصورة . فانه كان يغالي في اقتناء الخصيان ويطلبهم من اقاصي البلاد وينفق في استجلابهم الاموال وزاد ذلك فيه بعد خلافته فصيرهم لخلوته ليلهُ ونهاره وقوام طعامه وشرابه وسماهم الجرادية وفرض لهم فرضاً خاصا واصطنع

اجواقاً أخر من الغلمان الحبشان سماهم الغرابية وفرض لهم الاموال وانتقد عليه الناس ذلك ونظموا فيه الاشعار (١) اما في اثناء ولاية العهد فكان لا يزال في اول رغبته في هذا الطرب الدخيل

فكان الغلمان يدخلون افواجاً وشعورهم مسترسلة جدائل مفردة ومزدوجة وفي ايديهم الدفوف او المزاهر او العيدان يدقون ويغنون والامين يطرب لكل صوت ويقهقه ولا يطلب شراباً لانه ينوي الشرب في المصطبة

الفصل الخامس والعشرون

مجلس طرب في المصطبة

فلما مرَّ الجميع اشار الى القيم اشارة أخرى واشار الى رفيقيه فنهضا وسار بين يديهما وقد فتح لهما القيم باباً في صدر القاعة خرجوا منه ونزلوا بضع درجات الى دهليز في جانبيه ابواب مقفلة تستطرق الى غرف وقاعات عديدة وفي منتهى الدهليز وصلوا الى المصطبة وكانهم خرجوا من الخباء الى الخلاء . فوجدوا المكان على سعته قد فرش بالنمارق والطنافس وفي صدره فرش عالية فوق سرير من الابنوس المنزل بالذهب لا يرتقى اليه الاَّ بكرسي وبين يديه عدة كراسي ووسائد فوق الطنافس وحوالي الاساطين او الجدران . وقد نصبوا في وسط المصطبة سماطاً هو بساط من جلد جميل الصنعة فوقه ملاءة من الحرير وفوق البساط مائدة كبيرة الحجم مستديرة الشكل قصيرة علوها شبر واتوا بالاباريق البلور او الفضة وفيها الاشربة والانبذة وبينها الاقداح على اختلاف اشكالها والوانها ويتخلل ذلك اطباق الفاكهة واللحوم الباردة ومزاهر الازهار ونحوها وقد فاحت رائحة المكان بالاطياب العطرية . فصعد الامين الى سريره واشار الي ابن عمه فجلس ثم التفت الي الفضل وقال « اراك لا تزال بثيابك فاخلعها والبس ثياب المنادمة » فاشار مطيعاً فصاح الامين « يا غلام هات ثياب المنادمة »

فجاؤوه بثوب معصفر واصرَّ الامين الاَّ ان يجعل على راسه اكليلاً من الزهر مثله

(١) ابن الاثير ج ٦

فاطاع ثم صفق الامين فدخل القيم فقال « ايتنا بالمغنيات .. هل اتانا من الجواري احدٌ جديد ؟»

فقال « كلاّ يا مولاي ولكن عندنا من المغنيات غير واحدة ممن ليس في بغداد احسن منهنّ حتى ولا في دار امير المؤمنين .. فهل آتي بهنّ ؟ »

قال « هات الوصائف بالمرواح اولاً ثم اختر لنا احسن المغنيات نتعلل بهنّ ريثما ياتي اولئك »

فخرج و بعد هنيهة اقبلت جارية تفتن الناظرين يظهر من ملامحها انها كرجية الاصل دخلت المصطبة نافرة كانها الغزال انفلت من شبكة الصياد عليها قميص اسكندراني شفاف يشف عن اثوابها جميعاً وفوقه قرطق مفروج او هو القباء المفرد . وقد اشرق بياضها اشراقاً باهراً وجعلت شعرها طرة اسبلتها على جبينها وتعصبت بعصابة قد نقش عليها بصفائح الذهب هذا البيت :

مالي رميتُ فلم تصبك سهامي ورميتني فاصبتني يارامي

وقد ادارت صدغيها ونقوس حاجباها ولها عينان قد ملئتا سحراً وانف كانه قصبة درّ وفم كانه جرح يقطر دماً . وبيدها مروحة عريضة من ريش النعام مغشاة بالحرير المزركش وقد طرز عليها بالذهب هذه الابيات :

بي طاب العيش في الصيـ ـف وبي طاب السرور
ممسكي ينفي اذى الحـ ـرّ اذا اشتد الحرور
الندى والجود في وجـ ـه امين الله نور
ملك اسلمهُ الشبـ ـه واخلاه النظير (١)

وقد قبضت على المروحة بانامل منقوشة بالحناء فيها الخواتم وفي معصمها الاساور والدمالج اذا حركت يدها للترويح سمع لها خشخشة . وعلى صدرها هلال من ذهب مرصع بالجوهر وقد نقش عليه هذا البيت :

افلتُّ من حور الجنان وخلقتُ فتنة من يراني

فلما دخلت افتتن جعفر والفضل برؤيتها ولكنهما تهيبا لعلمهما انها وصيفة الامين الخصوصية جاءت لتروح لهُ . فمشت وهي تتنقل على رؤوس اصابعها وتتمايل حتى دنت من الامين فوسع لها الفضل فصعدت على دكة بجانب سرير الامين واخذت تروح بالمروحة وفي يدها الاخرى منديل اذا تندّى جبينهُ بالعرق مسحتهُ له

---

(١) العقد الفريد ج ٣

ثم دخلت جارية اخرى يظهر من مجمل منظرها انها رومية الجنس عليها دراعة مصبوغة بلون الورد الاحمر وقد وضعت على رأسها ضفائر شعر مسدلة كانها العناقيد تتدلى الى اسفل ظهرها . وفوق الشعر تاج مرصع وفي عنقها عقد ثمين تعلق فيه صليب من الذهب المرصع وعلى التاج بيتان من نظم الحسن بن هاني (ابي نواس) وهما :

يارامياً ليس بدري ما الذي فعلا عليك عقلي فان السهم قد قتلا
اجريته في مجاري الروح من بدني فالنفس في تعب والقلب قد شغلا

وتمنطقت بمنطقة شُدَّت بزارٍ وعلقت المروحة بها وعلى المروحة هذا البيت :

اتهوون الحياة بلا جنون فكفوا عن ملاحظة العيون

فلما دخلت هذه الوصيفة اشار الامين اليها فوقفت بجانب ابن عمه جعفر واخذت تروّح له . ثم دخلت جارية ثالثة تختلف في شكل هندامها عن صاحبتيها وقد جعلت شعرها على شكل الطرة السكينية التي تنسب الى سكينة بنت الحسين لانها اول من اصطنعها في المدينة منذ قرن و بعض القرن ولم تشد فوقها عصابة ولكنها كتبت فوق جبينها بالغالية هذين البيتين :

يا هلالاً من القصور تجلى صام طرفي لمقلتيك وصلّى
لستُ ادري اطال ليلي ام لا كيف يدري بذاك من يتقلّى

وقد لبست درعاً من القطيفة ابيض اللون كتب على جانبه الايمن بالتطريز :

كتب الطرف في فؤادي كتاباً هو بالشوق والهوى مختوم

وعلى الجانب الايسر:

كان طرفي على فؤادي بلاءٌ ان طرفي على فؤادي مشومُ

فلما دخلت علم الفضل انها ستقف بجانبه تروح له فمشت وهي تلاحظ ما يبدو من الامين فاذا هو يشير اليها ان تذهب الى الفضل فوقفت الى جانبه واخذت تروح له

الفصل السادس والعشرون

المغنيات وابو نواس

ثم دخل جماعة من الغلمان يحملون آنية الشراب وهم في ثياب مصبغة بالوان قوس السماء على احدهم ثوب احمر وعلى الاخر ثوب اصفر والآخر اخضر وعلى الآخر احمر واصفر معاً او من عدة الوان مما يبهر النظر وكلهم في عنفوان الصبا بغاية الجمال مع نقاوة البشرة واكثرهم لا يعرفون العربية واذا تكلموها ظهر للسامع انها ليست لغتهم لان بعضهم من الصقالبة والبعض الآخر من الكرج او الترك او الروم ومعظمهم حديثو الاقامة في بغداد واكثرهم خصيان — وقد تفنن قيم الغلمان في تزيينهم كما تفننت قيمة الجواري في تزيين الوصائف اللواتي ذكرناهن . فكان على بعضهم قباء كتب على عاتقه الايمن هذا البيت :

بدرٌ على غصن نضير شرق الترائب بالعبير

وعلى عاتقه الايسر :

خطت صفيحة خدّه من صفحة القمر المنير

ووقف بعض الغلمان باباريق الشراب الابريق في يد احدهم والكأس بيده الاخرى والكؤوس من البلور بعضها احمر اللون او ازرق او اخضر وبعضها من خالص الذهب وعليه نقوش كتابية اكثرها اشعار في مدح الخمر ووصفها من امثلتها :

اشرب على منظر انيق وامزج بريق الحبيب ريقي
واحلل وشاح الكعاب رفقاً واحذر على خصرها الرقيق
وقل لمن لام في التصابي اليك خلي عن الطريق

وجلس الامين وصاحباه في انتظار المغنيات فاذا هم يسمعون ضرب العود على نغم مطرب وصوت رخيم . ثم ظهرت مغنية صفراء ليست من الجمال في شيء لانهم لم يكونوا يعلمون الجواري البيض الغناء بعد . ومشت وهي تضرب ضرباً مسكراً وتغني بصوت رخيم حتى اقبلت وفي اثرها اربع جوار يحملن العيدان يرقصن على توقيعها . فما سمع الامين الغناء حتى صاح « اليّ بصاحب الشراب » فجاء رجل هو رئيس السقاة فاخذ يدير امر الساقين وارسل بعض الغلمان الى الامين بقدح دفعه اليه فشربه

وأمر للفضل وجعفر فسقاهما. فتناولا القدحين ولم يشربا وانما اظهرا الشرب مسايرة للامين اما الجواري فجلسن على دكة من الوسائد معدة لهنَّ في بعض جوانب المصطبة وبعد ان دارت الكؤوس وطرب الامين قال « اين الحسن بن هانى ... اين ابو نواس؟ »

فقال رئيس الخصيان « هو في دار الاضياف يا مولاي »

فقال « اليَّ به الآن »

فذهب لاستدعائه فاسترجعه الامين قائلاً « احذر ان يدخل عليَّ بغير ثياب المنادمة »

فاشار مطيعاً باحناء الراس وخرج وما عتم ان عاد وهو يقول « ان ابا نواس في الباب »

فقال وقد اخذته هزة الطرب « يدخل »

فدخل ابو نواس وكان جميل الصورة ومع انه تجاوز الاربعين من عمره فكان الجمال لا يزال ظاهراً في محياه. و غلبت عليه ملامح الاهوازيين لان أمه منهم . و ارخى لحيته وكانت خفيفة وقد وخطها الشيب قليلاً . وكان ازرق العينين تتجلى فيهما الدعابة والذكاء معاً . وعلى رأسه بدل القلنسوة او العمامة قبعة (طاقية) حمراء اللون وقد تزمل بثوب من ثياب المنادمة شديد الصفرة يكاد يتقيأ الزعفران . فلما اقبل صاح الامين به « اهلاً بشاعرنا ان هذا المجلس لا يحلو بلا شاعر ... والشعراء زينة مجالس الغناء »

فانحنى ابو نواس ووقف فاشار اليه ان يجلس بجانب الجواري المغنيات وأشار الى بعض الغلمان فقدم له وسادة جلس عليها. فتذكر الفضل ابا العتاهية وان هذا وقته وكان قد اسرَّ اليه امراً لما فارقه وخاف ان يكون قد نسيه فاخذ يفكر فيه وهو يتشاغل بما يراه ويسمعه من اسباب اللهو ويظهر التهيب في مجلس ولي العهد وفي نفسه امور دفعه اليها جاره جعفر بن الهادي . واغتنم جعفر اشتغال الامين بسماع الغناء وسأل الفضل عن الجواري اللائي ابتاعهن ومتى يصلن فأجابهُ بضم انامله جميعاً وهي اشارة الاستمهال كانهُ يقول لهُ انهنَّ يصلن قريباً . ثم التفت الى ابي نواس وقال لهُ « ألا تلقي من أقوالك شيئاً يغنينه فيطرب ولي العهد ؟ »

فلما سمع الامين قوله قال وقد لعبت الخمر في رأسهِ « لا لا يقول شيئاً قبل ان يشرب رطلاً » وأشار الى الساقي فملأ رطلاً ودفعه الى ابي نواس فتناوله وشربه دفعة واحدة وارجعه الى الساقي وأشار برأسه ان « هات ايضاً »

الفصل السابع والعشرون

الطرب بالطعن

فاعجب الامين برغبته في الشرب وضحك حتى استلقى وفي يده تفاحة يأكلها وقال لهُ وفي فمه قطعة منها « اطربنا يا ابن الاهوازية »

فاجابه والمجون ظاهر في سحنته « ايريد مولاي ان اطربه بالمدح او الطعن »

فابتدره الفضل بن الربيع قائلاً « ألا تكف عن مزاحك ؟ كيف يسأل الامير هذا السؤال ؟ وهل يطرب احد بالطعن ؟ وهو انما سألك ان تلقي على هؤلاء القيان ابياتاً يطرب لها مولانا »

فنظر ابو نواس الى الفضل شزراً وهو يظهر المجون ايضاً وقال « وما ادراك ماذا يطرب الامير اتريد ان تحترف صناعة المنادمة فضلاً عن الوزارة ؟؟ اني اخاطب سيدي وهو يفهم مرادي »

فاستغرب الفضل جسارته واراد ان يجيبه فسمع الامين يقول « لقد فهمت مراده » ثم التفت الى ابي نواس وقال « اطربنا بالطعن ليرى الفضل ان الطعن قد يطرب ما لا يطربه المدح ... القِ على الجارية بيتاً او بيتين من هذا القبيل »

فاصغى الحضور وقد ظهر الاستغراب في وجوههم وحامت ابصارهم حول ابي نواس فاذا هو قد ادنى رأسهُ من الجارية التي بيدها العود واسرّ اليها ابياتاً فسوّت العود والكل سكوت حتى الامين ثم اخذت تغني :

عجبت لهارون الامام وما الذي ... يودُّ ويرجو فيك يا خلقة السلق [1]

ارى جعفراً يزداد بخلاً ودقة ... اذا زاده الرحمن في سعة الرزق

ولو جاء غير البخل من عند جعفر ... لما وضعوه الناس الاَّ على حمق [2]

وكانت الجارية تغني وتجيد في غنائها والامين يهتف طرباً عند كل مقطع . وتفطن الفضل لسر ذلك منذ بدأت الجارية في غناء البيت الاول فأدرك ان ابا نواس يعرض بجعفر ابن يحيى البرمكي عدوّه فكان طربه اكثر من طرب الامين . وكان اطربهما جميعاً جعفر بن الهادي فلم يتمالك ان صاح في ابي نواس « لله درك ولا فوض فوك » وكان في يده عقد من

(١) الذئب (٢) ديوان ابي نواس ١٧٣

الجوهر يتلاعب به بين انامله همَّ ان يرميه اليه فتذكر انه في حضرة ولي العهد ولا يستحسن ان يسبقه الى اجازة الشاعر فالتفت الى الامين واستأذنه بالاشارة فاذن له فرمى بالعقد الى ابي نواس فوقع في حجره فتناوله ونظر الى الامين كانه يستشيره في امره فضحك الامين وقال « اراك تبحث عن مكان تضع فيه هذا العقد ... ضعه هنا » واشار الى الجارية الواقفة على راس الفضل وقال « فانها لك ايضاً .. ولكن بعد انقضاء هذا المجلس واذا زدتنا زدناك »

فوقف ابو النواس ليشكر ذلك الصنيع فأومأ اليه الامين ان يجلس ويعود الى ماكان فيه واشار الى الساقي فأدار الاقداح وهو يبدل الوان الانبذة من نبيذ التفاح فنبيذ التمر فنبيذ العنب وهي تتلألأ في الاقداح بين الصفرة والحمرة والشهبة والصهبة . واشار الامين الى صاحب الشراب اشارة فهم مراده منها فأمر احد الخصيان ان يقدم القدح الى ابي نواس بيده وكان الغلام جميلاً عبلاً جعد الشعر وقد صففه على جبينه بشكل بديع فاخذت ابا نواس سورة الخمر فنظر الى الغلام ثم الى الامين فابتدره الامين قائلاً « صفه وهو لك » فتناول ابو نواس القدح من يده وقال :

يسعى بها خنث في خلقه دمثٌ ... يستأثر العين في مستدرج الرائي
قد كسر الشعر واوات ونضدهُ ... فوق الجبين ورد الصدغ بالفاء
عيناه تنفث داءً في محاجره ... وربما نفعت في صولة الداء
اني لاشرب من عينيه صافية ... صرفاً واشرب اخرى مع ندامائي

فلما سمع الامين شعره صاح فيه « ويلك .. كفى . هوَ لك »

اما الفضل فلما راى الخمر دارت في راس الامين اراد ان يغتنم الفرصة فقال له « هل نسي مولاي القيان البيض ؟ »

فقال « ويحك وكيف انساهنَّ هل اتين ؟ » ونظر الى قيم الدار مستفهماً فقال « نعم يا مولاي قد جئن منذ ساعة »

فقال « اليَّ بهنَّ الساعة »

فخرج وما عتم ان عاد مهرولاً مذعوراً وفي اثره رجل قصير قد اكتسى جلد قرد وعلى رأسه قبعة هرمية الشكل في قمتها جلاجل وهو يقهقه قهقهة القردة ووثب حتى توسط المصطبة وأخذ في الرقص فقهقه الامين وأغرق في الضحك حتى استلقى على ظهره ولم يبق احد لم يضحك وعلا الضجيج فقال الامين « أليس هذا ابا الحسين الخليع ؟ »

فانتبه القيم وقال « بلى يا مولاي هو بعينه قبحه الله انه ذهب بعقلي ٠٠ »

فقال الامين « دعه وامض الى الجواري »

فعاد وتشاغل الحضور بالضحك ريثما عاد الرجل بالمغنية قرنفلة وبيدها العود تضرب عليه ضرباً رخيماً وقد تكحلت وتبرجت وارخت شعرها على كتفيها ٠ ودخلت الجاريتان الاخريان في اثرها وبيد كل منهما عود فوقفت بين يدي الامين وهي تضرب على عودها نغماً لم يسمع مثله من قبل فاومأ اليها الامين فجلست واخذت تغني هذين البيتين :

لم تلده امـــة تعـــرف في السوق اتجارا
لا ولا حدّ ولا خا ن ولا في الخزي جارا

وكان الفضل في اثناء ذلك يراقب حركات الامين فاذا هو يرفس الارض برجليه طرباً ويصيح « صدقتِ صدقت قبحكِ الله »

ولم يستغرب الفضل ذلك بل كان يتوقعه منه لانه هو الذي اوعز الى ابي العتاهية ان يعلمها هذين البيتين لاثارة حقد الامين على اخيه المأمون لما فيهما من التعريض به اشارة الى ان الرشيد حدّه في جارية وجده معها (١)

الفصل الثامن والعشرون

اسماعيل بن يحيى

وعلا ضجيج الضحك وتعالت الضوضاء وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل ٠ فقطع ضجيجهم نباح كلاب كان الامين قد جعلها على شاطئ دجلة وراء تلك المصطبة اذا رأت غريباً نبحت نباحاً شديداً ٠ فلما سمعوا نباحها أمر الامين بعض غلمانه ان يستطلع السبب فخرج من باب سري يستطرق الى الشاطئ ثم عاد مسرعاً وهو يقول « أرى سفينة تدنو من الشاطئ اظنها حراقة اسماعيل بن يحيى الهاشمي »

فلما سمعوا ذلك الاسم أسقط في ايديهم واقشعرّت ابدانهم كانك صببت عليهم ماءً حارًّا ولا سيما جعفر بن الهادي فامتقع لونه وظهرت البغتة على وجهه وأشار الامين الى المغنيات فسكتن وتحولت تلك الضوضاء الى دهشة واستولى السكوت على ذلك الجمع هنيهة

(١) الفخري ١٩٣

سمعوا في أثنائها ربان السفينة ينادي بحارته ان يحلوا الشراع ويتقدموا نحو الشاطئ . فوجم الامين وتجلد وقد ذهب سكره وتذكر حاله فنزع ذلك الاكليل عن رأسه كانه يريد ان يخفي مجونه وتهتكه واقتدى به غيره . ولكن أنّى لهم ان يخفوا مجونهم والاقداح متناثرة بين ايديهم والاباريق مملوءة والمائدة منصوبة وعليهم ثياب المنادمة وما يتبعها من اسباب الخلاعة واللهو

على ان الامين تجلد ونهض من مجلسه وصاح بغلامه ان يسأل اهل الحراقة عن صاحبها فعاد وهو يقول « ان اسماعيل بن يحيى يستأذن بالدخول »

فقال « يدخل .. اهلاً به ومرحباً .. »

ولحظ الحضور رغبة الامين في اخفاء تهتكهم فاخرجوا الخليع وأمروا الجواري بالسكوت وجلسوا ينتظرون وصول اسماعيل وكأن على رؤوسهم الطير . وما عتم ان رجع الغلام وفي اثره شيخ جليل المنظر وسيم الطلعة طويل القامة عليه جبة سوداء وعلى رأسه قلنسوة طويلة حولها عمامة من خزّ وهو لباس العباسيين الرسمي

وكان اسماعيل بن يحيى من جلّة بني هاشم رهط الخليفة . وكان من اهل التعقل والحزم وزادته الشيخوخة وقاراً وهو عالي الجبين عريض المنكبين مسترسل اللحية وقد اشتعل رأسه شيباً ولم يتعاط الخضاب ترفعاً عن بهارج الدنيا لانه كان حكيماً نير البصيرة يرى الامور كما هي ويقدّر الناس بحسب مناقبهم ومواهبهم لا بحسب انسابهم وظواهرهم . فمع كونه هاشمياً من اعمام الخليفة لم يكن يرى في النسب الهاشمي فضلاً على سواه الا اذا قرن بالتقوى والصالحات . وكان مطلعاً على دخائل الدولة عالماً بما تنطوي عليه شؤون اهلها . ولم يكن يحب الرشيد لانه هاشميٌّ ولا يكره جعفر البرمكي لانه فارسي وانما كان ينظر الى الامور من حيث هي . وغرضه الاول سلامة الدولة العباسية من العلل وخلوصها من اسباب الفشل ولا يهمّه على يد من تكون سلامتها

فكان ينظر الى ما يجري من الدسائس بين الرشيد ووزيره او بين الامين واخيه او بين غيرهما من الاحزاب المتناقضة نظر الحكيم الناقد يشرف على اهواء الناس من سماء تعقله وفلسفته ويسعى جهده في تلافي ما يخشى وقوعه من مفاسد ذوي المطامع الدنيوية وارباب الاهواء النفسانية . فلم يكن يهمه ان تفضي الخلافة اليه بقدر مايهمه صلاحها وتوطد دعائمها وطول بقائها . وكان اعلم الناس بمواضع الضعف من الرشيد ووزيره وبمواضع القوة منهما وله الدالة على كليهما والكلمة النافذة عندهما ولاسيما الرشيد

فقد كان يجله ويحترمه ويعظم شانه لما تحققه من كبر نفسهِ ونزاهتهِ وسلامة نيته فضلاً عن ذكائه وسداد رأيهِ . وطبيعيٌّ في من كان هذا شانهُ ان يهابه الناس ويحترموه حتى الملوك فانهم مهما بلغ من صلفهم وكبريائهم لا يحتقرون رجلاً لا يجتمعون بهِ الاّ لنصيحة يتحققون بالاختبار انها صادرة عن محض الاخلاص . ولا يتباحثون معه الا آنسوا منه تعقلاً فوق تعقلهم . فكيف اذا اضيف الى ذلك شرف النسب وعلو الهمة والشيخوخة . فلا غروَ اذا نال اسماعيل هذه المنزلة عند الرشيد او رجال دولته لاشتهاره بالغيرة على سلامة الدولة والتفاني في سبيل مصلحتها . على انه لم يكن يقدم على نصيحة او مشورة الا اذا راى النصح نافعاً والقول نافذاً ولا يقول الاّ صريحاً فاذا افتقر الى تلون أو رياء تباعد وتحاشى ولذلك فلم يكن يعجبه الامين ولا يرى نصحه نافعاً فكان يبتعد عنه ويحاذر ان يحضر مجلسه

الفصل التاسع والعشرون

الدهشة

اما مجيئـه في ذلك اليوم فسببه انه كان رقيباً على ابن الهادي من عند نفسه لعلمه بما يكتمه من الحقد على الرشيد والبرامكة وبلغه انه يجالس الامين ويعاشره فلم يعجبه ذلك منه . وكان اسماعيل وجعفر يقيمان في البصرة مثل اكثر بني هاشم المتقاعدين الذين يعيشون برواتب الخليفة وهباته من الاموال والضياع فينغمسون بالترف والقصف ويقضون ايامهم بين مجالس الانس والغناء والخلفاء يسهلون لهم هذه الاسباب ليضعفوا عزائمهم عن النهوض لمنازعتهم على الخلافة ويشغلوهم عن الدسائس السياسية بالجواري والقيان ومعاطاة الكاس والطاس

اما اسماعيل بن يحيى فقد كان عفيفاً حازماً يكره ما يراه من ترف هؤلاء وقصفهم وعلم ان النصح لا ينفعهم فكف عن نصحهم الاّ جعفر بن الهادي فانه كفله من صغره مذ مات ابوه فشبّ جعفر لا يشرب مسكراً ولا يميل الى اللهو وانما كان يعاشر الامين ويغريه على زيادة الترف واللهو لغرض في نفسه لم يكن يخفى على اسماعيل . وكان اسماعيل يخاف بقاءه على عزمه لانه لا يرى فيه صلاحاً للدولة بل هو يخاف عليها منه . وكثيراً ما نصحه في الرجوع

عن ذلك وهو يعده ويخلف . وعلم منذ ايام وهما في البصرة ان جعفراً أتى بغداد فظنه جاءها لترويح النفس او لقضاء بعض المصالح او ليقبض عطاءه فلما ابطأ خاف عاقبة ابطائه فاحق به وهو يظهر انه آتٍ لغرضٍ له . فلما وصل بغداد واستطلع اخباره علم انه نازل في قصر الامين لايخرج منه . فلم ير بدًّا من مقابلته هناك وكانت له سفينة في دجلة اذا جاء بغداد ركب فيها فامتطاها في ذلك اليوم وقصد قصر الامين فوجده على تلك الحال

فلما دخل اسماعيل على مجلس الامين تهيب كل من كان فيه حتى الامين مع سكره وتهتكه فتجلد ووقف لملاقاة ذلك الشيخ الجليل ولم يكن يحلم ان يراه على هذه الصورة . وأما جعفر فوقف منزوياً وقدارتج عليه . ولم يبق ثابت الجاش متجلداً الاّ الفضل بن الربيع لما ذكرناه من طبيعة مزاجه فضلاً عن دهائه . فانه تقدم الى اسماعيل وتبسم لهُ ورحب به واظهر رغبته في تقبيل يده وهو يقول « مرحباً بمولاي » وقدم له كرسياً وكان الامين قد نزل عن سريره ورحب به ايضاً

فنظر الشيخ الى ما حوله من الجواري والغلمان والعيدان والابار يق والاقداح وغير ذلك من اسباب الانس والطرب فعلم انه اذا جلس معهم نغص عليهم نهارهم فتظاهر انه لم يكن يقصد الزيارة في تلك الساعة ولكنه توهم انه سمع صوت جعفر هناك — قال ذلك وهو يتجاهل انه رآه

فظهرت الوجل على وجه جعفر واقبل متأدباً وهو يتجلد وعلم ان اسماعيل لا يروق له الجلوس هناك فقال « قد كنت عازماً على الخروج من الصباح فامسكني وليّ العهد في هذا المجلس ليسمعني غناء الجواري البيض والبسني ثياب المنادمة . فاذا احب سيدي ان انطلق في خدمته فعلتُ »

فاظهر اسماعيل انه مسرور بلقياه وقال « لا بأس يا ولدي فاني مشتاق الى رؤيتك فاذا احببت الانصراف انزل معي الى السفينة ودع القوم في مجلسهم فان مقامي لا ينفعهم » قال ذلك وتحوّل ومشى فاستاذن جعفر في تبديل ثيابه ثم يلحق به الى السفينة

خرج اسماعيل واهل المجلس سكوت تهيباً وقد سرّ الامين بذهابه . اما جعفر فاسرع الى غرفته فلبس قلنسوته وسواده ونزل الى السفينة فوجد اسماعيل يتمشى على ظهرها وقد ارسل قلنسوته الى الوراء وظهر الاهتمام في جبينه وعينيه . فلما اقبل عليه ترامي على يده ليقبلها فجذبها منه وقال « ما هذا المجلس يا جعفر ؟ أمثلك يفعل ذلك ؟ »

فتراجع واطرق ولم يجب وامر اسماعيل ربان السفينة ان يمضي بهم الى مرسى بعيد عن القصر

وامسك جعفر بيده وسار به الى مقعد في مؤخر السفينة يشرف على الماء واجلسه الى جانبه ولما جلسا قال اسماعيل « لم يكن عهدي بك مجالسة هذا الغلام في مثل هذا المجلس فهل طاب لك اللهو والتهتك ؟ »

قال « هل ترى فيّ أثر الشرب ؟ اني والله لم اذق الخمر .. »

قال « لا اقول انك تسكر ولكنني اعهد فيك التعقل والرّزانة وكنت احسبك اذا لقيت الامين في مثل هذه الحال انبته ووبخته لا ان تجلس معه وتسايره .. »

الفصل الثلاثون

مقتل الهادي

فتنهد جعفر وحوّل بصره الى مقدم السفينة يتشاغل بما يراه من سبر النوتية قاع النهر بالعمد ليسيروا بالسفينة الى مأمن . فلما رأى اسماعيل سكوته وتشاغله ادرك ما يضمره وقال « يخيل لي انك لا تزال على سوء نيتك في هؤلاء وكانك لا تزال طامعاً .. »

فلم يتمالك جعفر عن قطع الحديث قائلاً « لا تقل طامعاً ياسيدي فاني غير طامع وانما انا اطلب حقي ... »

قال « وايّ حقٍّ تعني ؟ »

قال « اعني ... » وخفض صوته وهو يتلفت مخافة ان يسمعه احد ثم قال « اعني ان هؤلاء الموالي سلبوني حقي بعد ما قتلوا والدي واخرجوا الخلافة من يدي وأنت تعلم اني اولى الناس بها .. »

فتظاهر اسماعيل بالاستخفاف وقال « لا اجادلك في ماتدعيه من الحق ولكنني لا أرى علاقة بين ما تطلبه وما تفعله .. ما هي العلاقة بين طلبك الخلافة وجلوسك هذا المجلس وقد طالما دافعتني بمثل هذا المقال فاخبرني ما هو حقك وممن تطلبه ؟ »

فقال جعفر وقد تجلى الغضب بين حاجبيه « اتسمح لي ان اصرح بما في نفسي .. اني اتهيب من ذلك بين يديك »

قال « قل ... لا تخف فاني اذا رأيت طلبك صواباً اعنتك عليه والا فاني انصحك واكتم أمرك »

قال « انت تعرف والدي الهادي رحمه الله وتعلم انه تولّى الخلافة بوصية جدّي المهدي وان والدي اوصى لي بالخلافة بعده »

قال « اظنك تطمع بتنفيذ وصيته وانت تعلم انه ارتكب بهذه الوصية شططاً لان المهدي رحمه الله انما اوصى بالخلافة لابيك ثم لعمك الرشيد بعده فلما تمّ له الامر اراد اخراج الخلافة من الرشيد ومبايعتك بها فهل تعدُّ هذا حقاً ؟ »

قال « لا انكر عليك انه خرج بذلك عن وصية المهدي ولكنهم راجعوه فرجع واعاد البيعة الى الرشيد على ان تكون لي الخلافة بعده — ألا تذكر ذلك ؟ »

قال « بلى اذكره »

قال « فما بالهم فتكوا على اثر ذلك بوالدي وقتلوه ولم يجلس على عرش الخلافة الا سنة و بعض السنة ؟ . »

فقال وهو يظهر الاستغراب « قتلوه ؟ ومن قتله ؟ لا اعلم انه مات مقتولاً وانما توفي من مرض ولو زعمت ان امه الخيزران ساعدت على قتله لرأيت مسوغاً لهذا الزعم واما غيره فلا . . »

فتضاحك جعفر وقال « لا يبعد ان تكون الخيزران ارتكبت هذا الجرم كما يقولون لان والدي اغضبها بكفّ يدها عن التداخل في شؤون الدولة ولكنها فعلت ذلك مدفوعة باغراء ذلك الفارسي . . . » قال ذلك وحرق اسنانهُ

فقال اسماعيل « اظنك تعني يحيى بن خالد »

قال « اياه اعني . نعم اياه اعني والدليل على ذلك انه هو الذي وقف في سبيل والدي وعارضه في امر البيعة وكان الرشيد قد اذعن للخلع ورضي بتحويل البيعة اليّ ولكن يحيى هذا حرض الرشيد على رفض هذه البيعة . وما زال حتى وافقه والدي ان يرجع البيعة اليه على ان اكون انا الخليفة بعده . فلما وافقه على ذلك اسرع الى الغدر به ولم تمض ليال قليلة حتى قيل ان الهادي مات وزعموا ان جدتي الخيزران قتلته ولكنني اعتقد انها اذا كانت قد فعلت ذلك فانما فعلته باغرائه الا تذكر انه كان اول العارفين بالوفاة فهرول ليلاً الى الرشيد وبشره بذلك ؟ . وقد عرف الرشيد فضله والقى مقاليد الحكومة اليه كما تعلم . ثم افضت الامور الى ابنه جعفر الوزير الحالي وهو في ما تعلمه من نفوذ الكلمة حتى يصح ان يقال انه هو الخليفة وليس الرشيد »

الفصل الحادي والثلاثون

البرامكة والدولة

وكان جعفر يتكلم والعرق يتصبب عن جبينه واسماعيل مصغ الى قوله وربما كان رأيه في هذا الامر مثل رأيه ولكنه لم يكن يرى ان يشجعه عليه لاعتقاده مخالفة ذلك لمصلحة الدولة مخافة ان يأول الانقسام الى فسادها فعمد الى المدافعة فقال « اراك سيّئ الظن بالبرامكة كانك تجاري اعداءهم في الطعن باعمالهم وانت تعلم ان للبرامكة فضلاً على هذه الدولة لايضارعه فضل . وانا هاشميٌّ كما تعلم والخليفة من لحمي ودمي يسوءني ما يسوءه ويسرّني ما يسرّه ولكنني أراكم ظلمتم هؤلاء الموالي ونسيتم آثارهم في تنظيم هذه الدولة من عهد جدهم خالد - الم يكن خالد من اكبر اعوان ابي مسلم في نقل هذه الدولة من الامويين الينا . فلما قتل ابوجعفر المنصور ابامسلم وثار الفرس والاكراد عليه كادت تخرج الدولة من يديه لولم ينجده خالد ويضمن له التغلب عليهم بالرأي دون الجنود . ناهيك بما كان من تدبير شؤون الحكومة وتنظيم دواوينها على يده ويد ابنه يحيى وحفيديه الفضل وجعفر — ان البرامكة ياولدي هم جمال هذه الدولة وقوام ابهتها وهذه بغداد كيفما تلفتّ رايت آثار تدبيرهم في معاهدها . فقد اقاموا فيها المكاتب والحلقات ومنازل الجند وماوي المرضى ومجالس القضاة وغرف الشرطة . وان ما تراه من رواج العلم والفلسفة وتهافت اهل الذمة وغيرهم على ترجمة كتب اليونان والفرس انما اصله ترغيب البرامكة فيه بالبذل والعطاء . اليس يحيى بن خالد اول من عني بنقل المجسطى من اليونانية الى العربية ؟ وهل تنكر انه هو الذي سعى في جمع الكتب من الهند وغيرها .. ؟ اليس البرامكة هم الذين استقدموا اطباء الهند لترويج صناعة الطب بهم . ان هؤلاء الاطباء بين ظهرانينا الآن وخصوصاً منكه الهندي الذي اشار يحيى على الرشيد باستقدامه لما اشتدت وطأة المرض عليه حتى كدنا نيأس من حياته فعالجه وشفاه . اليس هم الذين رغبوا الرشيد في انشاء المارستان وولوا عليه طبيباً هندياً من هؤلاء وانشأوا مارستاناً لانفسهم واولّوا ادارته الطبيب الهندي ابن دهن ؟ . وهل خفي عليك ما للفضل بن يحيى من الاثر الجميل في استخدام الكاغد فاني لا انسى تضايق اصحاب الدواوين من استعمال الجلود والرقوق للدفاتر والدروج

والسجلات حتى اشار الفضل المذكور بالكاغد فانشأنا له المعامل في بغداد كما ترى . واراني لو اردت تعداد مآثر هؤلاء البرامكة لتعبت قبل الاتيان على آخرها وانت تعلم عصبيتي في هاشم وغيرتي على هذه الدولة ورغبتي في سلامتها (قال ذلك وتنهد) فلا يعقل ان اقول ذلك عن تهوّس او غرض وانما اقول الحق الصراح . فلا يغرّنك ما تراه من نقمة ابن الربيع وامثاله عليهم وطعنهم فيهم فانهم يفعلون ذلك عن حسد لتقصيرهم عن مجاراتهم »

وكان جعفر في اثناء تلك الخطبة مطرقاً ينظر في حركة الماء الملامس لجدار السفينة وهي سائرة الهويناء وكأنهُ استغرق في هواجسه فلم يفهم كل ماسمعهُ . فلما فرغ اسماعيل من كلامه انتبه جعفر وقد ضاقت نفسه من سماع الاطراء بالبرامكة وهو يكرههم كرهاً شديداً . ولا يرَى سبيلاً لدفع أدلة اسماعيل فلم يرَ خيراً من استئناف الكلام عنهم فقال « هب انهم ملائكة نزلوا من عليين الم يقتلوا والدي ويخرجوا الحكم من يدي ؟ »

قال « ان دعواك عليهم منقوضة او هي غير ثابتة على الاقل اذ لم يقل احدٌ ان يحيى ابن خالد قتل والدك او سعى في قتله لاخراج الامر من يدك »

قال « اما انهُ قتلهُ فلا ريب عندي فيه وان خفي على الاكثرين . واما انهُ فعل ذلك لاخراج الحكم من يدي يدلك عليه انهُ بعد ان وافقه والدي على ان يبايع للرشيد قبلي عجل قتلهُ قبل تمكين البيعة لي ولما تمَّ الامر للرشيد فبدلاً من ان يبايع لي بايع لابنه هذا المتهتك واظنهُ كان عازماً ان يجعل الخلافة لي بعد الامين فاغراهُ وزيره البرمكي على مبايعة ابنهِ الآخر المأمون فاصبحتُ صفر اليدين ووالله لو . . . . » وتململ

فابتسم اسماعيل وقطع كلامه قائلاً « اني لاعجب من تباين اعمالك وتناقض اقوالك كيف تكون ناقماً على هذا الغلام وتجالسه في مجلس المدام وتعاشره في احوال الغرام ؟ ثم اني لا افهم معنى هذه النقمة ولا كيف يمكن لك نيل بغيتك وهذا الرشيد على كرسي الخلافة وحولهُ الجند والاعوان وبنو هاشم ينصرونهُ ويؤيدونهُ وقد بايع بالخلافة لولديهِ الواحد بعد الآخر وهم سيتولون الخلافة بعده فلا ارى لنقمتك محلاً ولا الى غرضك سبيلاً . فاقلع عما يجول في خاطرك من الافكار الصبيانية وانت تعلم غضب الرشيد اذا اطلع على شيء مما في نفسك فان لحمك يتناثر نتفاً بين السماء والارض . ولكنني كتمت امرك واكتمه لاني ارجو صلاحك ورجوعك واما اذا تحققت بقاءك على عزمك فحرصي على سلامة الدولة يبعثني على التفريط بك . . . الاّ اذا رأيت في اعمالك سداداً — فاخبرني كيف ترجو الوصول الى الخلافة ؟ »

وكان لتهديد اسماعيل وقع شديد على جعفر وهو يحترمه ويخافه فضاقت نفسهُ وانحبست عواطفه وكاد يختنق لو لم ينفرج بدمعتين تعلقتا بين المآقي واطرق خجلاً من ظهورهما . وظهرت الحيرة في وجهه لكنهُ لم يتمالك عن الجواب فقال « اراك مستخفاً بي وباعمالي وتحسب اني اخبط في اقوالي فاعلم ياعماه اني لا اجهل قصر باعي عن مناوأة الرشيد وهو في جنده واعوانهِ ولا انا طامع في ذلك وانما اطمع بنيل الخلافة بعده وهذا هيّن اذا سقط وزيره البرمكي — اسمع كلامي الى آخره — إن الرشيد متى مات فالخلافة تفضي اولاً الى الامين هذا وهو لا يصلح لها ولا اراه يزداد الاّ انغماساً في القصف والترف والخلاعة واللهو ولا اظن اهل الدولة الاّ خالعيه فيبقى اخوه المامون وهو والحق يقال ذو عقل وحزم ولكنني لا ارى احداً من الهاشميين يحبه لانه ينتمي الى اخواله الفرس . ولا اظنك تجهل ان جعفر البرمكي هذا هو الذي سعى في مبايعته بالخلافة لغرضٍ في نفسهِ لا يقلُّ عن اخراج الدولة من ايدينا — ارجو الاصغاء الى آخر كلامي — فالعقبة الوحيدة في سبيل استرجاع حقي في الخلافة وجود هذا الفارسي وهو يستحق القتل اذا لم يكن انتقاماً لي عن فعل ابيه بابي فلانهُ استاثر باموال المملكة لنفسه ولاهلهِ . وانت ترى ان دخلهم من ضياعهم ربما ضارع دخل بيت المال . فقد اخبرني سهل بن هرون وهو اعلم الناس بذلك ان مبلغ جباية هؤلاء الموالي ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار [1] في السنة من ضياعهم ومرافقهم ولا يخفى عليك يا عماه ان مجموع جباية المملكة من اقصى الشرق الى اقصى الغرب لا يزيد عن هذا القدر كثيراً فقد علمت من صاحب بيت المال ان مجموع جباية الدولة نحو ٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم [2] أو ٢٧,٠٠٠,٠٠٠ دينار ونحن الهاشميين نستقطر رواتبنا بالالف والعشرة آلاف كاننا نستعطي — ناهيك باسباب الابهة التي استاثروا بها حتى لقد ترى الخيول الواقفة بباب جعفر هذا اضعاف ما يقف بباب الرشيد . فما ادرانا ما يكون من عاقبة هذا الاستئثار اذا مات الرشيد وتولى الامين وهو لاهٍ كما تراه الا تذهب الدولة من ايدينا ؟ . اما المامون فاني اعترف بحزمه ولكنني لا اراهُ غيوراً على استبقاء الخلافة في اهل بيته ولعل ذلك من اتصال نسبه بالفرس من أمه او لانصياعه الى مشورة مربيه جعفر . . »

(١) العقد الفريد ٢٢ ج ٣ (٢) تاريخ التمدن الاسلامي ٥٦ ج ٢

الفصل الثاني والثلاثون

العالية بنت الرشيد

فاعجب اسماعيل بتدبير جعفر ولعله زاى قوله صواباً ولكنهُ لم يكن يعتقد حسن عائدة ذلك على الدولة فاخذ يدافعهُ فقال « اما ثروة البرامكة فلا انكر عليك ضخامتها ولكن ما يدخل من ريعها انما ينفقه البرامكة على الناس بالسخاء او الاحسان او الرواتب فمن منّا لا يستولي على راتب او هدية من جعفر او غيره ؟ . وقد علمت عن ثقة من صاحب بيت مالهم ان ١٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار من هذه الجباية اي اكثر من نصفها يجعل بدراً عليها صكوك مختومة وعلى كل بدرة اسم صاحبها من اهل الدولة او غيرهم على سبيل الهدية . فالمال راجع الى الدولة واهلها ولا اظن الخليفة يفعل اكثر من ذلك . ثم ان مقتل هذا الرجل خطر على الخلافة — حتى الرشيد نفسه لو اراد قتلهُ لم يستطع اليهِ سبيلاً لان اكثر رجال الدولة من مريديه وقد غمرهم بالعطاء والمعروف ... فاقلع عن هذا وذاك واصغ لنصحي فاني ضنين بشبابك حريص على حياتك والرأي عندي ان تتقرب من الرشيد فذلك خيرٌ لك وابقى وانا اضمن ما تبتغيه من القربى بل انا اسعى في ذلك بنفسي »

فلما رأى اصراره على مقاومته تظاهر بالقبول مخافة ان يفشي أمره اذا اغضبه فقال « وما هي وسائل القربى ؟ »

فآنس اسماعيل قرب رضائه فسرَّ لزوال تلك العقبة من طريق الدولة فقال « ما هو اقصى ما يطمع به الناس في التقرب من الخلفاء ؟ . غير ان يتزوجوا بناتهم ؟ فاعدك ان الرشيد يزوجك ابنته العالية . فما قولك ؟ »

فرأى جعفر ان ذلك الزواج اذا تمَّ لا يقف في سبيل بغيته بل هو قد يساعده على تنفيذها فاظهر الاستحسان ولكنه قال « انها قربى عزيزة ولكن الرشيد قد يشاور وزيره فلا يقبل ! » وضحك

فقال « لا تكن سيئ الرأي بالرشيد الى هذا الحد فانه اقوى عزيمة وأشد باساً مما تظن — وانا اضمن لك ذلك في كل حال انما اتقدم اليك ان ترجع الى البصرة ريثما اوافيك بالخبر »

قال « سأذهب حسب امرك ولكنني لا ارى ضرراً من بقائي هنا حتى تنقضي هذه المهمة . »

قال « حسناً فاذهب انت الآن الى قصري وانا أمضي غداً الى الرشيد في هذا الشأن »

فقال « ولكن ألا تأذن لي أن أعود الى الامين فاودعه وآتي ببعض الامتعة التي تركتها عنده فأبيت الليلة هناك ؟ »

قال « اذهب بحراسة الله »

وكانت الشمس قد دنت من المغيب فطلب جعفر الى اسماعيل ان يأذن بانزاله من السفينة ليركب زورقاً يعود به الى قصر الامين »

فامر اسماعيل بايقاف الحراقة بجانب الشاطيء ورأى جعفر هناك زورقاً ركب فيه حتى عاد الى قصر الامين وقد اقبل العشاء واظلم الليل فوقف عند المصطبة فنبحت الكلاب وكانت كبيرة هائلة تخاف اذاها ولبث واقفاً عن بعد يتردد بين النزول من هناك او الدخول من الباب الآخر وراء البستان . ولاحظ في اثناء وقوفه ان المصطبة خالية من الناس اذ لم يسمع فيها غناءً ولا راى نوراً فعزم على المسير في الزورق الى الباب الآخر والطريق اليهِ بعيد

وهو يفكر في ذلك اذ راى نوراً يظهر في المصطبة و يدنو من السور ثم سمع لغطاً خفيفاً واذا بيدٍ امتدت فوق الحائط والمصباح في قبضتها فلما رات الكلاب المصباح سكتت ثم اطل رجلٌ عرف جعفر من قيافته انهُ قيم الغلمان فناداه فقال الرجل « سيدي جعفر ؟ »

قال « نعم . . هل ادخل من هنا ؟ »

قال بصوت ضعيف « تمهل قليلاً ريثما اعود اليك » وتركهُ وعاد بمصباحه وجعفر واقف في الزورق ينتظر رجوعه و يفكر في سبب هذا التستر و بعد قليل ظهر النور وسمع صوت القيم يقول « تفضل على مهل »

فاستغرب جعفر هذا التخوف وتحول من الزورق ومشى حتى دنا من الباب السرّي فقابله الرجل بالمصباح وقال « تفضل يا مولاي ادخل »

فدخل والرجل يمشي بين يديه بالمصباح فمرَّا بالمصطبة فرأى آثار الشراب والطعام لا تزال فيها كأن الجلوس غادروها من عهد غير بعيد . فتحيَّر في أمره وحدثته نفسه ان يستفهم عن سبب ذلك التغيير ثم امسك والرجل يسير امامهُ حتى تجاوزا الدهليز الى القاعة الوسطى في دار النساء فرأى المنائر في زواياها وجدرانها قد اضيئت شموعها وليس هناك احد فلم يتمالك ان سأل الرجل « اي هو مولانا وليّ العهد ؟ »

قال « إننا ذاهبان اليه يا سيدي تعال معي ولا تضجر »

الفصل الثالث والثلاثون

خبر جديد

فمشى جعفر في اثر القيم وهو يدخل من قاعة الى قاعة وكلها مضيئة بالشموع على المنائر وفيها الرياش الفاخر يختلف في كل قاعة لوناً وشكلاً عما في القاعات الاخر حتى وصل الى باب مقفل وقف القيم عنده ونقر عليه نقراً خفيفاً فسمع جعفر حركة ثم فتح الباب واطل منه الفضل بن الربيع وهو لا يزال بثوب المنادمة كما فارقه وامسك بيده وادخلهُ وهو صامت فدخل جعفر الى غرفة لم يجد فيها الا الامين جالساً على طنفسة وهو ايضاً بلباس المنادمة وبجانبهِ امرأة قد تزملت بعباءة ووجهها مكشوف فعرف انها جارية ورأى على وجهها آثار الاهتمام فحياهم ووقف فامره الامين بالجلوس قائلاً « اجلس واسمع هذا الحديث الغريب »

فجلس وجلس الفضل الى جانبهِ فقال الامين « قد جاءتنا هذه الجارية بخبر يهمك ويهمنا . انها من جوارينا وقد اقمناها رصداً لنا على ذلك الوزير فاسمع ما جاءتنا بهِ عن خيانتهِ »

فاستبشر جعفر بما سمعهُ وتطاول بعنقه نحو الجارية ولبث صامتاً فاذا هي توجه كلامها للامين وتقول « انت تعلم يا مولاي ان يحيى بن عبد الله بن الحسن العلوي كان قد خرج على الدولة في الديلم واجتمع حولهُ جماعة الشيعة وكلهم ناقم على بني العباس يريدون اخراج الخلافة من ايديهم على ما يزعمون . وبعث امير المؤمنين الرشيد لحربهم غير واحد وهم يزدادون تمرداً حتى انفذ اليهم الفضل بن يحيى اخا الوزير جعفر فلما وصل بجنده الى الطالقان وعلم ان الرجل ممتنع في جبال الديلم احتال في استنزاله واستقدامه ووعده خيراً . فوثق يحيى بمواعيده لانهُ من الشيعة مثله فجاءهُ فتلطف في معاملته وطلب اليهِ ان يصحبه الى بغداد ويسلم نفسه لامير المؤمنين فابى فاستحثه على الذهاب على ان يشترط ما اراده ويكتب لهُ الرشيد بذلك خطهُ . فتم الوفاق بينهما على عهد امان كتبهُ الفضل وبعثه الى مولانا الرشيد فامضاه فجاء الرجل كما تعلمون حتى اتى بغداد فاستقبلهُ امير المؤمنين احسن استقبال واجرى لهُ ارزاقاً سنية . ثم بلغ مولانا الرشيد من بعض العارفين ان الرجل لا يزال عازماً على الخروج »

فقطع الامين كلامها وقال وهو يهز رأسهُ « نعم انهُ ما زال على سوء قصده وهل تصفو قلوب أولئك العلويين لنا بعد ان بلغ العداء بيننا وبينهم الى هذا الحد . ؟ ولا قلوبنا تصفو لهم »

فقال جعفر « ومن ادرانا ان الفضل لم يتواطأ مع صاحبه يحيى العلوي سرًّا على أمور تقضي بالتربص حيناً ريثما يخرجون جميعاً علينا ؟.. »

فقال الفضل « وهذا الذي خامر فكر امير المؤمنين على ما يظهر لانهُ بعد ان اعطاه العهد عاد فافسدهُ كما ستسمعون . »

فاتمت الجارية كلامها وهي تنظر الى الامين « نعم ان مولانا الرشيد افسد ذلك العهد لا ادري لاي سبب ولكنني علمت ان آل الزبير وشوا بذلك العلوي فامر امير المؤمنين بالقبض عليه وحبسه وانتم تعتقدون الآن انه في الحبس »

فاستغرب الامين قولها وقال « لا بد من ان يكون هناك »

قالت وهي تبتسم « كلاَّ يا مولاي انه الآن في طريقه الى اهله »

فصاح الامين « ماذا تقولين ؟ ومن اطلقهُ ؟ »

قالت « اطلقه الوزير جعفر .. »

فقال « وكيف ذلك .. ما هذه الجسارة ؟ »

قالت « دعني اقص عليك ما رأيته رأي العين في غروب هذا النهار »

فتطاولوا لسماع حديثها فقالت « كان الوزير جالساً عصارى هذا النهار في غرفته الخاصة من قصرهِ والخدم والجواري مشتغلون بشؤونهم الاَّ انا فقد كنت حريصة على مراقبة من يدخل او يخرج فرأيت يحيى بن عبدالله العلوي المذكور داخلاً وحده دخول المتلصصين وليس معهُ احد من الحاشية فعلمت انه جاء خلسة فراقبت طريقه فرأيته دخل على الوزير وجلسا في الغرفة وليس معهما ثالث فعلمت انهما لامر ما اختليا هناك فدرت من ناحية أخرى الى غرفة بينها وبين هذه باب مقفل يمكن الاطلاع من بعض ثقوبهِ على من فيها . فوقفت هناك فرأيت العلوي لما دخل وقف له الوزير ورحب به وأجلسه بجانبه وبش لهُ وامر الخادم ان يقفل الباب عليهما فلما استقر بهما الجلوس سأله الوزير عن حالهِ في الحبس فبكى وشكى الى ان قال « اتق الله يا جعفر في امري ولا تتعرض ان يكون خصمك جدّي محمد (صلعم) فوالله ما احدثت حدثاً يوجب ذلك » فما فرغ العلوي من قولهِ حتى رأيت الوزير يلاطفهُ ويخفف عنه

بكلام لم افهمهُ ولكنني فهمت اخيراً قوله « اذهب حيث شئت من البلاد »

فلما قالت الجارية ذلك بدت الدهشة في وجه الامين وقال « قبحه الله على هذه الجسارة بل هذه الخيانة كيف يطلق اسيراً امر والدي بحبسه ؟ وبعد ذلك ماذا فعل ؟ »

قالت « فاجابه الرجل : كيف اذهب وانا اخاف ان أوخذ فاردّ »

قال الفضل « صدق والله ... »

فقال ابن الهادي « وكيف اطلقه اذاً ؟ »

قالت « انه طمأنه وبعث معه رجالاً من حاشيته ليوصلوه الى مأمنه وقد رأيته خارجاً وهو يثني على الوزير والوزير يشجعه ويطمئنه .. »

فصاح الامين « فقد نجا العلوي اذاً .. ! »

قالت « نعم يا مولاي فعزمت من تلك الساعة ان اسرع اليك لاقص هذا الخبر عليك فلم استطع الخروج قبل الآن »

فنظر الامين الى ابن الهادي كانه يستطلع رأيه في ذلك فأومأ اليه ان يصرف الجارية فادرك انه يجتنب الكلام بحضورها فاشار اليها ان تمضي الى قيمة الجواري وهي تقوم بمكافأتها فنهضت وقبلت طرف ثوب الامين وخرجت

فلما خلا جعفر بالامين والفضل اخذ في تعظيم ما سمعوه ليغريهما على الفتك بالبرمكي فقال « ان الصبر على هذا التطاول ضعفٌ » ولبث ينتظر ما يبدو من الامين فاذا هو يضحك ويقهقه فاستغرب ضحكه فقال « وما الذي يضحك مولاي اظنهُ يريد ان شرّ البلية ما يضحك »

قال « كلا ولكنني اضحك لما اتوقعه من استغرابك اذا سمعت ما قصَّهُ عليَّ الفضل قبل مجيئك » والتفت الى الفضل كأنهُ يأمرهُ بقص الخبر

فالتفت جعفر الى الفضل فرآه يقول للامين « اظن مولاي يعني خبر مولاتي العباسة » فأومأ برأسه ان « نعم »

فازداد جعفر شوقاً لسماع الخبر فاخذ الفضل يقص عليهِ ما جرى له في فجر ذلك اليوم في دار الرقيق وما قصَّهُ عليهِ ابو العتاهية من تلصصهِ وما رآه وسمعهُ وجعفر مصغٍ وقد تولتهُ الدهشة فلما فرغ الفضل من حديثه لم يتمالك ان وقف وصاح « يا للخيانة ! كيف تصبرون على ذلك ؟ لماذا لا يعلم امير المؤمنين بهذه الخيانة ؟ »

فقال الفضل « اما خبر العباسة فلا يجسر احدٌ على نقله الى الرشيد مالم يعرض حياته

لخطر لما نتوقعهُ من غضبهِ والعياذ بالله ٠ »

فقال جعفر « كيف نطَّلع على هذه الخيانة ونكتمها ؟ ان كتمانها خيانة أخرى »

قال « لا بد من الاحتيال في ابلاغه ذلك على يد مغنيه بالاشارة او التلميح او التعريض اما خبر فرار العلوي فيسهل نقلهُ ٠٠ »

فاقتنع جعفر بذلك لعلمهِ ان خبر العلوي وحدهُ يكفي للفتك بجعفر وهذا ما يتمناه ويرضيه فأخذ يحسن لهُ الاسراع في نقلهِ ثم التفت الى الفضل وكأنهُ تفطن لامر هام وقال « واين ذهب الطفلان ابنا العباسة ارجو ان لا يكون قد فاتكم ادراكهما والقبض عليهما والاحتفاظ بهما لحين الحاجة لان نقل الخبر اذا لم يكنْ مؤيداً بوجودهما فيالشقاء ناقله وقصر عمرهِ ٠٠ »

فقال الفضل « لا تستجهلني الى هذا الحد ٠٠٠ فاني حالما سمعت القصة انفذت جماعة من رجالي وابا العتاهية معهم للقبض على الغلامين ولم يرجعوا اليَّ بالخبر بعد ٠٠ على اني لا اخاف ان يفوتهم القبض عليهما ٠٠»

وهم في ماتقدم من الحديث سمعوا وقع اقدام في الغرفة المحاذية ثم قُرع الباب قرعاً تعوَّد الامين سماعه من غلامهِ اذا جاء لمسارتهِ في شان فنهض الفضل لفتح الباب فاطلَّ الغلام وظلَّ واقفاً بالباب ففهم الامين انهُ يريد مسارته وفهم جعفر والفضل ذلك فاستأذنا بالخروج فاذن لهما ودخل الغلام فقال « ان بعض رجال الشاكرية جاءنا الآن » فعلم انه رسول من عند والدته زبيدة لانها اول من اتخذ الشاكرية من الخدم يختلفون على الدواب في جهاتها ويذهبون في حوائجها برسائلها وكتبها [1] فقال « وماذا يريد »

قال « جاء يدعوك الى مولاتنا السيدة زبيدة لانها تحب ان تراك في صباح الغد لامر هام »

فقال « قل لهُ اني مصبح اليها باكراً ان شاء الله »

فخرج الغلام وكان الليل قد سدل نقابه فذهب كلٌّ الى فراشه

(١) المسعودي ٣٦٦ ج ٢

الفصل الرابع والثلاثون

زبيدة بنت جعفر

هي زبيدة بنت جعفر بن ابي جعفر المنصور وابنة عم الرشيد اخي ابيه تزوجها سنة ١٦٥هـ وهي تفاخر بنسبها الهاشمي سائر نساء الرشيد لانهنَّ من امهات الاولاد ولذلك كانت عنده في المنزلة الاولى وكانت جميلة الصورة واسمها الاصلي امة العزيز فلقبها جدُّها المنصور زبيدة لبضاضتها ونضارتها [1] وكانت نافذة الكلمة عند الرشيد وهو يتبرك بمشورتها ولها في الاسلام ما آثر لم يسبقها اليها احد . مثل حفرها العين المعروفة بعين المشاش بالحجاز فانها حفرتها ومهدت الطريق لمائها في كل خفض ورفع وسهل وجبل حتى اخرجتها مسافة اثني عشر ميلاً الى مكة فبلغ ما انفقتهُ في ذلك ١,٧٠٠,٠٠٠ دينار فضلاً عن المصانع والدور والبرك والآبار بالحجاز والثغور مما انفقت الالوف عليه . غير ما كانت تنفقه في اهل الفاقة من المعروف والخصب وكان لها مائة جارية يحفظن القرآن ولكل واحدة ورد عشر القرآن حتى كان يسمع في قصرها كدوي النحل من القراءة

وهي اول من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكللة بالجوهر وصُنع لها الوشي الرفيع حتى بلغ ثمن الثوب من الوشي الذي اتخذ لها ٥٠,٠٠٠ دينار . وهي اول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجواري واول من اصطنع القباب من الفضة والآبنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشي والسمور والديباج وانواع الحرير من الاحمر والاصفر والاخضر والازرق واتخذت الخفاف المرصعة بالجوهر واضاءت شمع العنبر على منائر من الذهب وقد تشبه الناس بسائر احوالهم بها [2]

وكان لها قصر في بغداد على شاطيء دجلة الغربي يسمى قصر زبيدة ويلقب « دار القرار » واقع جنوبي قصر الخلد شرقي مدينة المنصور وحوله الحدائق والبساتين مما لم يكن له شبيه في تلك الحضارة الزاهرة

وكانت زبيدة شديدة العصبية لبني هاشم وفي صدرها حزازات على البرامكة وخصوصاً جعفر بن يحيى الوزير لانهُ كان يحط من قدر ابنها الامين ويرفع من شأن اخيهِ المامون

---

(١) ابن خلكان ج ١ (٢) المسعودي ٣٦٦ ج ٢

مع ان امه جارية . وآخر ما زاد نقمتها عليهِ انهُ حمل الرشيد على ان يبائع للمامون بولاية العهد مع ابنها الامين وكانت تحب ان تكون البيعة له وحدهُ . وزد على ذلك ان الرشيد سار سنة ١٨٦ هـ الى الكعبة حاجاً ومعهُ ابناؤُهُ ووزروؤُاه وقواده وقضاته وفي جملتهم ابناه الامين والمامون ليعهد لهما بولاية العهد وجعفر البرمكي ليشهد العقد فكتبوا الكتابين وعلقوهما في الكعبة وحلف كل منهما على الثبات وكانت زبيدة حاضرة فلما حلف الامين واراد الخروج من الكعبة ردَّه جعفر وقال له « فان غدرت باخيك خذلك الله » وطلب منه ان يحلف على ذلك ثلاث مرات ففعل فاضطغنت زبيدة عليهِ وما برحت من ذلك الحين تترقب الفرص للايقاع بهِ وربما كانت اكثر اعداء البرامكة شدة عليهم لا تذخر وسعاً في استطلاع اخبارهم لعلها تجد فرصة تتمكن بها منهم . وكانت عالمة بتردد جعفر على العباسة ولكنها لم تكن مطلعة على خبر الطفلين ولو علمت ما تقاعدت عن كشف امرهما لزوجها لانها لم تكن تتهيب منهُ لما تعلمهُ من منزلتها عنده

فلما كان صباح ذلك اليوم وحدث ماحدث من الغوغاء عند دار الرقيق اطلع على خبر الطفلين بعض جواسيسها عند العباسة فنقل الخبر اليها فرأت ان تغتنم اول فرصة لاطلاع الرشيد عليهِ ولكنها احبت ان تفاوض ابنها الامين في ذلك فارسلت في طلبهِ كما تقدم

وبكر الامين في صباح اليوم التالي الى دار القرار اجابة لطلب والدته فركب جواده والغلمان يسيرون بركابهِ يتقدمهم فارسٌ يحمل الحربة بين يديهِ على عادتهم في المسير بين يدي ولي العهد في ذلك الحين [1] فسار الموكب محاذيًا الشاطيء الشرقي وعلى الامين السواد والقلنسوة حتى وصل الجسر السفلي فقطعه وسار بعده على الشاطىء الغربي حتى اطلَّ على دار القرار والناس يقفون لهُ في الطرق يحيونه ويدعون بطول بقائه ولاسيما العرب ومن يرى رأيهم في العصبية العربية فيردُّ تحياتهم وهو مشرق الوجه بنضارة الشباب وعزة الملك

وكانت زبيدة تنتظر قدومه وقد استبطأته مع علمها بطول المسافة بين قصرها وقصره ولكن مدة الانتظار تطول على المنتظر وان قصرت . وكانت قد اعدت لهُ كل اسباب الراحة والانس والترحاب لشدة تعلقها به لانهُ وحيدها وقد جمعت كل آمالها فيه فامرت جواريها ففرشن طرقات الحديقة بالازهار والرياحين واعدت لهُ مجلساً فاحت فيه رائحة الطيب من المسك والعنبر في غرفة من قصرها سقفها قبة مصنوعة من خشب الصندل

(١) البيان والتبين ١٥ ج ٢ وابن الاثير ٣٥ ج ٦

ومكسوة بالوشي والسمور وانواع الحرير بالوانه الزاهية وقد اسدلوا من جوانب القبة على جدران المجلس ستائر من الديباج طرزوا عليها بالقصب ابياتاً من الشعر او حكماً ماثورة وعلقوها في مواضعها بكلاليب من الذهب . وفى ارض الغرفة بساط واحد من السجاد الثمين عليه رسوم بعض ملوك الفرس يصطاد السباع توهم الناظر من اتقان صنعها انهُ يرى منظراً حقيقياً . وعلى حواشي البساط ابيات من الشعر مطرزة بالذهب . وفي وسطه صورة طاووس الوانهُ منسوجة بالحرير وخيوط الذهب والفضة وعيناه من ياقوت مما يبهر النظر

وكان في قصر زبيدة غرف عديدة لكل غرفة فرش خاص بشكل خاص وفرش هذه الغرفة من الطرز المعروف بالارمني في ذلك العصر من صنع ارمينية وهو عشر مصليات بمخادها ومساندها ومطارحها و بساطها كما وصفناه . فمثل هذا الفرش لا يقوم باقل من ٥,٠٠٠ دينار [1] غير البساط وغير ما يكسو القبة والنوافذ والجدران من الستائر والنقوش وغير ما في جوانبها من المنائر المصنوعة من الذهب وقد غرس فيها شمع العنبر وهو من اثمن ما يكون ولم يستخدمهُ احد قبلها الى ذلك العهد

الفصل الخامس والثلاثون

دار القرار والجواري المقدودات

فوصل الامين الى باب الحديقة فاستقبله جماعة من الخدم الشاكرية اعانوه في التحول عن جواده وقد تحول صاحب الحربة قبله ومشى بين يديه بالحربة حتى وصلا الى مفرش الازهار وقد فاحت روائحها وامتزجت بروائح الاطياب . فتنحى صاحب الحربة ومشى الامين وحده حتى وصل الى باب القصر فراى والدته واقفة هناك في انتظاره فلما دنا منها همت به فضمته الى صدرها وقبلته قبلة الوالدة المشتاقة فقبل يدها فاحس ببضاضتها . وكانت زبيدة مشرقة الوجه بيضاءه عليها وقار الهاشميين مع حلاوة وجمال وكانت سوداء العينين كبيرتهما مع ذكاء وحدة وقد استدار خداها وانبسطا من عيش الترف والرغد . وكان فمها صغيراً باسماً يعلوه انف فيه شممٌ وذقن قليل البروز ليس بينه وبين الترقوة

(١) الفرج بعد الشدة ١٠٣ ج ١

غور ولاثنية وقد استدار عنقها واشتد بياضه وليس فيه بروز

وكانت طويلة القامة الى الربعة مع سمن قليل اذا اسرعت في مشيتها ارتج كتفاها ووركاها ارتجاج الدلال والرخاء وقد تزملت برداء من الحرير ارجواني اللون يستر كل اثوابها وتمنطقت فوقه بمنطقة مذهبة شدّت طرفيها بعروة مرصعة بالجوهر . وقد ارسلت شعرها ضفيرة واحدة على كتفيها وعصبت حول رأسها عصابة ليس عليها شيء من الجوهر — والعصائب كانت لا تزال حديثة العهد لم تبلغ الى نساء العامة بل كانت محصورة في بيوت الخلفاء والامراء شأن ما يحدث من الازياء في كل عصر . فان الزي الجديد (المودة) تبدأ به عادة بعض الوجيهات فيقلدها اترابها ثم يشيع بين العامة — والعصائب استنبطتها علية أخت الرشيد لتستر بها عيباً في جبينها فاصطنعتها مرصعة بالجوهر كما تقدم فاستحسن الناس ذلك فقلدوه . اما زبيدة فكانت لفرط اعجابها بمنزلتها عند الرشيد حسباً وجمالاً وتعقلاً تستنكف ان تقلد سواها وخصوصاً بعض بيت احمائها . فاتخذت عصابة بسيطة لا جوهر عليها ترفعاً عن التقليد ولم تضع في عنقها عقداً ولا في اصابعها خاتماً ولا في معصمها سواراً تنزهاً عما يستطيع سواها تقليدها به . فلم يتمالك الامين عند مشاهدة تلك العصابة عن الابتسام وقال « اراك تقلدين عمتي علية ان هذه العصائب جميلة يا أماه ... لكنني لا أرى على عصابتك شيئاً من الجوهر »

فابتسمت واشارت بسبابتها الى قدميها فنظر فاذا هي قد رصعت خفيها بالجوهر فاعجب بترفعها وبذخها وهي اول من لبس الخفاف المرصعة

وكان الامين يمشي بجانب والدته لا يدري الى اين تسير به فقطعت الدهليز وبلغت الى درجات صعدت عليها وهو يتبعها حتى استطرقت من دهليز آخر الى القاعة التي ذكرناها . فلم يبهره ما هنالك من الفرش الثمين ولكنه استغرب شيئاً آخر لم يكن رآه من قبل — ذلك انه لما اطل على القاعة تزايدت رائحة المسك وراى عند مدخلها صفين من الجواري الحسان على رؤوسهن العمائم وقد سوّين شعورهن باشكال الطرر والاصداغ والاقفية ولبسن الاقبية والقراطق والمناطق من الذهب والفضة فبانت قدودهن وبرزت صدورهن على شكل غريب وفي ايدي بعضهن جامات المسك وفي ايدي البعض الآخر قوارير الطيب فلم يتمالك الامين عند مشاهدة ذلك المنظر عن الدهشة والاعجاب وأمه تماسك عن الضحك فالتفت اليها فضحكت فقال « ما هذه الملابس يا اماه .. ؟ اراك قد جعلت هؤلاء الجواري غلماناً »

فقالت « فعلت ذلك تشبهاً بك ياولداه ... رأيتك اتخذت الغلمان وبالغت في تزيينهم كانهم من الجواري الحسان فاتخذتُ هؤلاء الجواري اقلد بهنّ الغلمان كما ترى وقد سميتهن الجواري المقدودات [1] وسابعث بهن هدية اليك »

فسرّ الامين بتلك الهدية وكانا قد وصلا الى مجلس معدّ لهما على سرير من الابنوس في صدر القاعة محلّى بالذهب . فجلست زبيدة فوقه على وسادة من الخز المزركش محشوة بريش النعام واجلست الامين الى جانبها وهي تنظر اليهِ ولا ترتوي من رؤيته . ثم اشارت الى من كان هناك من الجواري والغلمان فانصرفوا

الفصل السادس والثلاثون

المشورة والحيلة

فلما خلت به تغيرت سحنتها من الابتسام والانس الى الهيبة والجلال وبدت في عينيها السوداوين اللامعتين ملامح الذكاء وحدة الذهن والجدّ فقالت « كيف قضيت نهارك البارحة يامحمد ؟ »

قال « قضيته كما تحبين يا سيدتي من الانس والطرب »

قالت « وفي الليل ... لماذا كنت مستترًا في خلوة ؟ »

قال « ومن قال لك ذلك ؟ »

قالت « اخبرني بهِ الشاكري الذي بعثتهُ اليك فما هي هذه الخلوة ؟ »

قال « هي خلوة يحلو لك سماع خبرها وقد كنت عازمًا على المجيء اليك لاطلعك على سر اكتشفتهُ يسرُّك الاطلاع عليهِ . وانت ما الذي بعثتِ اليَّ من اجله »

وكانت متكئة على كتفهِ ويدها على خده تلاعب باناملها شعرات في عذاره وتنظر اليه نظر الحنو والانعطاف . فلما قال لها ذلك ابتسمت وقالت « وعندي ايضًا خبر يهمك الاطلاع عليه وارجوان نتخلص بهِ من ذلك الفارسي »

فعلم انها تشير الى جعفر البرمكي فبغت وقال « وخبري ايضًا يتعلق به قبحهُ الله ...

---

(١) المسعودي ٣٦٦ ج ٣

هل تعنين خبره مع العلوي ام مع عمتي العباسة ؟ »

فاجفلت زبيدة وتصاعد الدم الى وجنتيها وظهرت الدهشة في عينيها وقالت « هل علمت بخبر العباسة ايضاً ؟ »

قال « نعم قد علمت بهِ وكدت اتميز من غيظي ولكن لا اظننا ننتفع بذلك عاجلاً اما خبر العلوي فانه أقرب استثماراً »

فقالت « واي علوي تعني ؟ وما خبره اني لم اسمع بشيءٍ من هذا القبيل »

فاعتدل في مجلسه وقصّ عليها ما سمعهُ مساء الامس من الجارية حتى اتى على آخره وزبيدة تنظر اليهِ وعيناها تبرقان استغراباً ودهشة فلما فرغ من حديثه تنهدت وقالت « ذلك جزاء من يستهين بسلطة فوضها الله اليه .. ان اباك مع تعقله وحزمه قد استسلم لهذا الفارسي حتى اصبحت الخلافة لهُ ولم يبق لابيك الا اسمها ... ولكن سوف يلقى الباغي عاقبة بغيه »

فقال « لا انكر عليكِ اطلاق والدي يد هذا الوزير في امور الدولة ولكن ألا تظنين ذلك لازماً لتمشية الاحكام .. ؟ وهل يستطيع امير المؤمنين ان يتولى كل الاعمال بنفسه ؟ »

فقالت والجدّ ظاهر في عينيها « ان اطلاق يده في الاحكام قد يكون له فيه عذر ولكن ما هو عذره في ادخالهِ على حريمه بلا اذن ولا حرج ؟ ان جدك المهدي رحمه الله مع استخدامه البرامكة ووثوقهِ بهم لم يبلغ هذا الحد من اطلاق ايديهم ولا عمك الهادي فعل شيئاً من ذلك ولا اظن احداً يفعل ما فعله ابوك .. » قالت ذلك وقد بان الغضب في وجهها فزادها هيبة

قال « وما ذا تعنين يا اماه بدخوله على الحريم ؟ »

قالت « اعني ان اباك حفظه الله امر ان يدخل جعفر على دور النساء في السفر والحضر وابرز اليه جواريه واخواته وبناته لزعمه ان بينهما رضاعاً يحلل ذلك فهو يدخل الى قصور نساء الخليفة وبناته واخواته بلا حرج فلا عجب اذا ظهر ما ظهر من جرأته .. » وتنهدت وقد اخذ الغضب منها مأخذاً عظيماً وكان في يدها جامٌ فيه مسك تتشاغل بتفتيته في اثناء الحديث فلما غلب عليها الغضب ارتعشت انامِلها فوقع الجام من يدها وانتثرت فتات المسك على البساط فهمّ الامين بالتقاطه وهو يقول « وهل بلغ من اطلاق يده في دور النساء ان يدخل الى قصرك ويراكِ ؟ » وقد بانت الغيرة في وجهه

فصاحت « كلاّ .. وهل يجسر هذا المولى ان يرفع بصرهُ اليّ .. ؟ انه لم يطأ ارض قصري

هذا ولا كلفتهُ بحاجة يقضيها لي ولا اكلفهُ ... » (١)

وكان الامين قد فرغ من التقاط المسك فاعاده الى الجام ودفعهُ الى امه وهو يقول « وما هو الرأي الآن ؟ ان هذا الرجل لا ينبغي ان نسترفعلهُ والاّ ذهب الامر من ايدينا واكتسينا العار الذي لا يمحى لما ارتكبهُ هذا الخائن بعمتي .. »

فقطعت كلامه وقالت « ان امر عمتك يابني اكثر اللوم فيه على ابيك كما قدمت لك لانهُ اباح لوزيره الدخول الى قصرها ومخاطبتها وقضاء حوائجها وهو شاب حسن الخلقة نظيف الثوب طيب الرائحة وهي لم ترَ رجلاً غيره — ذلك جزاء من جمع بين النار والحطب . على ان هـذا لا يبرئه من الخيانة .. » وعادت الى التشاغل بفتات المسك وهي تنظر الى البساط تتفرس في الطاووس المنقوش في وسطهِ والامين قد انقبضت نفسه وضاق صدره لانهُ مع طول الحديث لم يـصل الى الغرض المطلوب ولا تجاسر ان يفاتحها بطلب قتله او الوشاية به . فلما ضاق ذرعاً اطرق وبانت الحيرة في وجهه ولحظت امه ذلك فيه فاسرعت الى تطييب خاطره فقالت « اظنك تريد ان تعرف رأيي في هذا الرجل »

فلم يتمالك محمد ان صاح « نعم يا اماه لقد ضاق صدري »

فقالت « وهل ترى ان نبلغ اباك خبر اخته العباسة ؟ »

قال « لا ادري .. وانما اريد ان يقتل هذا الرجل والسلام »

فضحكت وادارت ذراعها حول عنقه وقبلته ودموع الحنـان تكاد تتناثر من عينيها لولا عظم الامر الذي ادخلت نفسها فيه وقالت « قد كنت عازمة ان اطلعه على خبر اختهِ ولكن مباغتة الرشيد بذلك لا تخلو من الخطر على الناقل فيكفي الآن ان نبلغه خـبر العلوي ... » ثم خفضت صوتها ومدت يدها الى جيبها فاستخرجت بطاقة دفعتها اليهِ وهي تقول « لا تظنني غافلة عن الانتقام لك من هذا المولى ... اني لا انسى تشديده عليك بالحلف على كتاب العهد بالكعبة في العام الماضي فقد بلغ من فحته وسوء ادبه ان يستهين بك امامي .. وقد اعددت ابياتاً من الشعر بمعنى ما نحن فيه على ان اوصلها الى ابيك سرًّا من حيث لا يعلم فنكون قد ابلغناه الخطر الذي يهدد الدولة من هذا الرجل فاذا لم يستيقظ الرشيد من ذلك عمدنا الى ماهو ابلغ »

فتناول الامين البطاقة وقرأها فاذا فيها: (٢)

قل لامين الله في ارضه ومن اليهِ الحلُّ والعقدُ

(١) الاتليدي ١١٣ (٢) ابن خلكان ١٠٨ ج ٢ والاتليدي ١١٧

هذا ابن يحيى قد غدا مالكاً مثلك ما بينكما حدُّ
امرك مردود الى امره وامرهُ ليس له ردُّ
وقد بنى الدار التي ما بنى الـفرس لها مثلاً ولا الهندُ
الدر والياقوت حصباؤُها وتربها العنبر والنـدُّ
ونحن نخشى انه وارث ملكك ان غيبك اللحدُ
ولن يباهي العبد اربابه الا اذا ما بطر العبدُ

فلما فرغ من قراءتها احسَّ بارتياح وقال « اظنها تقتله لا محالة وهل انت عازمة على ايصالها وكيف ؟ . »

قالت « لا يهمك ذلك فاني اكلف احداً من جواسيسنا هناك يلقيها عند مصلّى ابيك فاذا رآها قرأها واظنها تفي بالغرض المطلوب والاّ فالدواء الناجع عندي . » قالت ذلك ووقفت فوقف الامين وقد علم انها تنوي الخروج من تلك القاعة فمشيا معاً وهي تقول له « اظنك جائعاً وقد اعدّت المائدة فهلم بنا اليها . . »

قال « صدقت اني جائع . . . وهل اعود بعد الطعام الى قصري ؟ »

قالت « اني مشتاقة اليك يا محمد فنقضي هذا اليوم معاً »

وذهبوا الى غرفة المائدة — فلنتركهم على الطعام ولنعد الى ما كان من اسماعيل بن يحيى ومهمته الى الرشيد

الفصل السابع والثلاثون

قصر الخلد

تركنا اسماعيل بعد مفارقة جعفر في مساء الامس وهو عازم على زيارة الرشيد في الغد لمخاطبته بشأن ابن الهادي والعالية فلما أصبح لبس سواده وقلنسوته وركب الى قصر الخلد وقضى مسافة الطريق وهو يفكر في الرشيد ويهيئ الاسلوب الذي يتطرق به الى مخاطبته في امر ابن عمه لعلمه بشدة الرشيد اذا غضب وربما سبق الى ذهنه سوء الظن فتعود العائدة وبالاً عليه . لكنهُ لم يطلّ على ذلك القصر حتى رأى الناس يتسارعون في الاسواق نحو الشارع الاعظم المؤدي من القصر الى الجسر فأمر أحد الغلامين السائرين في ركابه ان

يستفهم عن سبب ذلك الهرج فعاد وهو يقول « ان اميرالمؤمنين خارج الى الشماسية لحضور حلبة السباق » فتشاءم اسماعيل من هـذا الاتفاق وسبق الى اعتقاده فشل مهمته لانهُ لم يتوفَّقْ في عزمه ذلك الصباح ولا هو يرجو ان يقابل الرشيد في المساء لان الشماسية في الجانب الشرقي من بغداد والحلبة تستغرق كل النهار. فترجل وتنحَّى جانباً بحيث يرى موكب الخليفة ولا يعلم به أحد . فما عتم ان رأى الناس يتهاربون يدفع بعضهم بعضاً كانهم يساقون سوقاً ثم رأى خدماً صغاراً يركضون مشاة وفي أيديهم قسي البندق يرمون بها العامة الذين يعارضون الموكب في الطريق -- وهم فرقة من لخدم يسمونهم النمل [1] ووراءهم رجال مشاة على الاقدام عليهم شارة الدولة وفي أيدي بعضهم السيوف المرهفة وفي ايدي الآخرين الاعمدة ووراءهم رجالٌ في أيديهم القسي الموتورة. [2] وهم يمشون بوقار وسكون . ووافى الخليفة بعدهم على جواد مخضوب بالحناء عليه سرج مذهب وقد تغطى سائر الجواد بالديباج المخوص بالذهب والرشيد جالسٌ فوقهُ وعلى رأسه قلنسوة كثيرة الطول ليس حولها عمامة — لان الخلفاء كانوا اذا لبسوا القلانس مكشوفة زادوا في طولها وحدة رؤوسها حتى تكون فوق قلانس جميع الامة [3] فكيف اذا ركب وهم مشاة . ورأى سوادهُ مسترسلاً حتى يغطي بعض ظهر الجواد

وكان الرشيد يومئـذ في الحادية والاربعين من عمره وقد أشرق وجهه بياضاً وابرقت عيناه ذكاءً وكانتا كبيرتين ولحيتـهُ خفيفة كستنائية اللون وشارباه مستطيلان دقيقان وفي فمه ابتسامة . وفي يده اليمنى قضيب من الابنوس طرفهُ مصنوع من الذهب . وكان الجواد يمشي الهوينا ويتبختر بمشيته كانهُ عالم بمن يعلوه ووراء الخليفة صاحب المظلة يحمل مظلة من ريش النعام مجنبة على عصاها لتظلل الخليفة من الشمس . ووراءهما فرسان من الخاصة والقواد وكبار الكتاب الاَّ جعفر الوزير فانه لم يكن معهم . ويلي ذلك افراس الحلبة عليها سروج خفيفة والسياس يقودونها بالارسان وبينها فرس عليهِ رئيس السياس وهو تركيٌّ لهُ مهارة في تربية الخيل . واخيراً فرقة اخرى من الخدم الصغار يردون الناس عن الموكب من الوراء

وظل اسماعيل واقفاً ينظر الى ذلك الموكب نظر الفيلسوف المعتبر وهو يعجب لغرور الانسان واشتغاله بالظواهر المبهرجة عن الحقائق الدامغة . ونظر في من يحف بالرشيد من الخاصة والقواد والهاشميين وهو يعلم ما في نفوسهم ومنهم من يكره الرشيد حتى يتمنى له الموت ومنهم من يحبه ويستهلك في خدمته والمرجع العام فيهم جميعاً الى

(١) الاغاني ٩٤ ج ٢٠ (٢) المسعودي ٣٦٥ ج ٢ (٣) البيان والتبيين ٨٤ ج ٢

حب الذات . ثم فكر في نفسه وفي ما كان قادماً من اجله وتحركت فيه الغيرة على الدولة والرغبة في سلامتها واسف لفشل مهمته في ذلك الصباح فركب وعاد الى منزله آسفاً — على ان يعود في صباح الغد لاتمام ذلك الامر

وفي صباح اليوم التالي ركب كالامس وغلاماه في ركابه وعليه السواد والقلنسوة وما زال حتى اقبل على قصر الخلد . وللقصر اربعة اسوار الواحد داخل الآخر فلا يستطيع احد الوصول الى مجلس الخليفة الا بعد المرور في اربعة أبواب[1] وعند كل منها حرس من الشاكرية وقوف بالاسلحة . فدخل الباب الأول وهو راكب فوقف الحرس اكراماً له ولم يعترضوه لعلمهم انه من كبار بني هاشم فضلاً عن منزلته عند الرشيد . ودخل الباب الثاني فالثالث والحرس يقومون له ويحيونه حتى اذا وصل الى الباب الرابع تحول فتناول الفرس احد الغلامين ومشى اسماعيل في طريق واسع يؤدي الى دار العامة وغلمان القصر يسيرون بين يديه وهو يمشي الهوينا مع جلال ووقار حتى اقبل على تلك الدار وهي التي يجلس فيها الخليفة للعامة وبجانبها غرف يقف فيها الشعراء والادباء والندماء او يجلسون ريثما يؤذن لهم او يطلب الرشيد احدهم . فعلم اسماعيل من جلبتهم وغوغائهم وخلو المكان من الحرس (الشاكرية) ان الرشيد ليس هناك فاستغرب ذلك واحب ان يستفهم عنه فاذا بمسرور خادم الرشيد يعدو نحوه مسرعاً وسيفه يخبط على جانب فخذه لشدة سرعته فلما رآه اسماعيل لم ينشرح صدره له لعلمه بفظاظته وقسوته وهو فرغاني الاصل واكب مسرور على يد اسماعيل ليقبلها فاجتذبها منه وسأله عن امير المؤمنين

فقال « هو في دار الخاصة يا مولاي »

قال « وكيف ذلك واليوم موعد جلوسه في دار العامة »

فقال « قد كان عازماً اليها فجاءه وفدٌ من ملك الهند فاحب ان يجلس لهم في دار الخاصة لأن ذلك اقرب للرهبة والعظمة »

---

(١) الاتليدي

الفصل الثامن والثلاثون

وفد ملك الهند

فتحول اسماعيل نحو تلك الدار وقبل الوصول اليها رأي صفين من جند الخليفة الاتراك قد وقفوا بانتظام ولبسوا الحديد حتى لايرى منهم غير الحدق فقال لمسرور « ما بال هؤلاء .. وما الذي بعث على وقوفهم بالحديد كانهم في ساحة الحرب ؟ »

قال « لما علم امير المؤمنين بقدوم الوفد من ملك الهند احب ان يوقع الرعب في قلوبهم ليبلغوا ملكهم ماشاهدوهُ من قوة الاسلام فامر بوقوف هؤلاء كما ترى » (١)

فانبسطت نفس اسماعيل لما عاينه من رغبة الرشيد في ابهة الدولة ولكنه مالبث ان تذكر ما يخافه عليها من اهل الدسائس حتى انقبض صدره . على انه تماسك ومشى نحو الدار بين الصفين حتى دنا من بابها وكان مرتفعاً يصعد اليه على درجات عريضة من الرخام الابيض يتخللها قطع من البلاط الاخضر والشاكرية وقوف الى الجانبين وفي ايديهم السيوف . فدخل مسرور امامه ليخبر صاحب الاذن (الحاجب) بقدومه ليستأذن له بالدخول

فصعد اسماعل في اثره وهو يتباطأ في مشيته ريثما يؤذن له فما عتم ان جاء الآذن يدعوه للدخول فمشى في دهليز عريض مبلط ببلاط احمر مشدود بعضه الى بعض بقضبان الذهب والآذن يسير بين يديه فرأى في آخر الدهليز ثلاثة كلاب هائلة المنظر كبيرة الابدان كانها اسدٌ وقد اوثقت من اعناقها بسلاسل الحديد وامسك السلاسل ثلاثة رجال عرف من قيافتهم والوانهم انهم من اهل الهند وهم مكشوفو الرؤوس فاشتغل خاطره بتلك الكلاب وتهيب من توقد ابصارها وكبر ابدانها . ولكنه تجلد وجاوز عدة مقاصير واروقة ودهاليز والخدم يقفون لهُ حتى انتهى الى دار قوراء مفروشة بالبسط الثمينة فوقها جلود النمور والسباع وفي جوانبها قضب المناور عليها الشموع الملوَّنة . فوقف اسماعيل هناك وهو يتشاغل بقراءة ما نقش على الجدران من ابيات الشعر او الحكم لعله يحتاج الى اذن ثان على جاري العادة في الداخلين على الخليفة فرأى الآذن قد عاد وهو يشير اليه

(١) العقد الفريد ١٤٩ ج ١ وسراج الملوك

ان يتقدم لان مثله لا يحتاج الى اذن ثانٍ

فتقدم نحو باب عليه ستر من الديباج المخوص بالذهب اماله الآذن بيساره واشار الى اسماعيل بيمينه ان يدخل فدخل على ايوان كبير طوله ثلاثون ذراعا في ثلاثين قائم على اساطين من الرخام وعلى جدرانه صور مما في البر والبحر ممثلة بالذهب والفضة يتخللها ابيات من الشعر وحكم مكتوبة بماء الذهب . وفي ارضه بساط من الديباج الاصفر كأن صانعه قلد به القطيف بساط كسرى — عليه نقوش بالوان زاهية بينها خيوط القصب تمثل اشجاراً وانهاراً وطيوراً واسماكاً توهم الناظر انه في حديقة يانعة الاغراس جرت فيها الجداول وتغنت عليها الاطيار . وعلى حواشي البساط وشي جميل . وسقف الايوان قبة عظيمة الاتساع مبنية على ثلاثة عقود كل عقد قائم على خمسة اساطين وعلى سقف القبة نقوش . وكتابة وفي وسط الايوان ستر من الحرير الصيني معلق عرضاً بين الحائطين يحجب الخليفة عمن يجالسه على عادتهم في مجالسة الخلفاء يومئذ الا من اختار الخليفة تقديمه ورفع الستر بينه وبينه من اهله وخاصته

ورأى اسماعيل الكراسي المنصوبة خارج الستر لجلوس بني هاشم وليس عليها أحدٌ منهم — ويسمى الهاشميون في اصطلاح تلك الايام ابناء الملوك أو الاشراف[1] واما الوسائد المطروحة بين يدي الكراسي لجلوس الخاصة من الامراء والقواد فرأى على بعضها اناساً من الهنود عليهم القبعات المزركشة . واثوابهم من نسيج الهند عليها صور ملونة تمثل بعض الحيوانات الكبرى ولاسيما الفيل . وفي اعناقهم عقود من الجوهر الثمين بينها تعاويذ من الذهب تمثل بعض اصنامهم وقد جلسوا خاشعين متهيبين ينتظرون امر الخليفة وبين ايديهم على البساط سيوف من صنع بلادهم يقال لها السيوف القلعية فعلم انهم الوفد القادم من ملك الهند وان اصحاب الكلاب في الدهليز تابعون لهم

فتقدم صاحب الستارة الى اسماعيل ان يدخل اذا شاء او يجلس على احد الكراسي ريثما يفرغ الرشيد من هؤلاء الهنود وكان اسماعيل قد سمع الرشيد يتنحنح فعلم انه جالس هناك على سريره وراء الستارة ففضل الجلوس هناك حتى يفرغ من هؤلاء وهو يخاف ان يحولوا بينه وبين ما يريد من مخاطبة الرشيد ثم سمع الرشيد يخاطبهم من وراء الستارة بواسطة الترجمان وهو صاحب الستارة لانهم كانوا يختارون اصحاب الستارة من العارفين باللغات لمثل هذه الحال فقال الرشيد لرئيس الوفد « ما الذي اتيتمونا بهِ »

(١) المسعودي ١٧٧ ج ٢

قالوا « هذه سيوف قلعية لا نظير لها عندنا »

فدعا الرشيد بالصمصامة وهي سيف عمرو بن معدي كرب وامر بعض رجاله الاتراك فقطع بها تلك السيوف واحداً واحداً وامر ان يروهم ذلك السيف فرأوه فاذا هو لافلّ فيه فاسقط في ايديهم ونكسوا رؤوسهم ثم قال « وما عندكم غير هذا؟ »

قالوا « اتيما بكلاب لا يلقاها سبع الاّ عقرتهُ »

فلما سمع اسماعيل قولهم زاد تهيباً من رؤيتها ثم سمع الرشيد يقول « ان عندنا سبعاً فان عقرته كلابكم فهي كما ذكرتم ... اخرجوها الى السباع في اقفاصها وامروا السبّاع ان يخرج السبع عليها ونحن ننظر الى مغالبتها من الروشن »

فخرج صاحب الستارة واشار الى الهنود فنهضوا ومشوا حتى مروا بالكلاب في الدهليز فساقوها معهم وسار بعض الغلمان بهم الى خارج الدار وقد سبق احدهم الى السبّاع فامرهُ باخراج اسد عظيم فاخرجه وجاؤا به الى ساحة اطلق فيها الكلاب القلعية ورأى اسماعيل الاسد يخطر ويزأر فما شك انه سيمزق الكلاب اربا اربا فاذا هي مزقته ورأى الرشيد ذلك من الروشن فارسل الى الوفد ان يعودوا الى الايوان كما كانوا فعادوا وعاد اسماعيل وهو يستغرب ما رآه من الكلاب فلما عادوا قال الرشيد للوفد « من اين لكم هذه الكلاب وما هو جنسها »

قالوا « هي كلاب سيورية تعيش في بلادنا لا شبيه لها في الارض »

فقال « هذه احبُّ ان احفظها فتمنوا فيها ما شئتم من طرائف بلدنا »

قالوا « ما نتمنى الاّ السيف الذي قطعت به سيوفنا »

قال لهم « هذا مالا يجوز في ديننا ان نهاديكم بالسلاح ولولا ذلك ما بخلنا به عليكم ولكن تمنوا غير ذلك ما شئتم »

قالوا « ما نتمنى سواه »

قال « لا سبيل اليه » ثم امر لهم بتحف كثيرة واحسن جائزتهم وانصرفوا[1] وفي نفوسهم رهبة من هيبة الخلافة

(١) العقد الفريد ١٥٠ ج ١

الفصل التاسع والثلاثون

مجلس الرشيد

اما اسماعيل فما صدق ان فرغ الخليفة من ذلك الوفد حتى عاد الى التفكير في ما جاء من اجله واحب مخاطبته على انفراد قبل ان يأتي احدٌ من بني هاشم او سواهم فيحول بينهُ وبين ما يريد وهو يرى الاسراع في مهمته قبل ذهاب الفرصة . فلما ذهب الوفد عاد صاحب الستارة ودعاه للدخول على الرشيد اذ لا حجاب عليهِ وقال « لما علم مولانا امير المؤمنين بقدومك امرني ان ادخلك عليه »

قال « واحب ان لاتدخل علينا احداً ريثما افرغ من خطابي معه »

فوسع له الستارة مابين شطريها فاطل اسماعيل على الرشيد فرآه جالساً الاربعاء على سرير من الذهب الابريز مرصع بالجوهر [1] فوق سدَّةٍ في صدر المجلس منصوبة بين اسطوانتين من اساطين الايوان مجللتين بالوشي المنسوج بالذهب وقد وقف عند كل منهما وصفاء في ايديهم المذابّ او المناديل . ووراء السدة من الجانبين شاكريان بيد كل منهما سيف مسلول . والسدة عبارة عن ظلة قائمة على عمد من الابنوس المنزل فيه العاج سقفها من الديباج الاسود المزركش بالذهب برسوم جميلة . وفي حاشيته من الامام والجانبين اهلة من الذهب مدلاة في كل هلال منها اترجة ذهب مسبك يتدلى من كل اترجة درزٌ كبار بينها الياقوت الاحمر والاصفر والازرق على نظام بديع يبهر النظر . والرشيد جالس على السرير في السدة تحت الظلة وعليه ثياب يلبسها عند استقبال قادم من كبار الملوك أو نوابهم اذا اراد ارهابهم بعز الاسلام وجلال الدولة وابهة الخلافة . وقد لبسها في ذلك اليوم لاستقبال الوفد الهندي فكان على رأسه قلنسوة قصيرة حولها عمامة سوداء من الخز الموشى وبين ثناياها عقود من الجوهر بشكل سبحات تملأ الاخلية بين تعاريج العمامة . وفي مقدمها فوق الجبهة شبه طرة من الذهب المرصع بالجوهر والياقوت والزمرد يبرز منها كعرف الطاووس من اسلاك الذهب وقد نظمت بها لآلىء بينها ثلاث لؤلؤات كبيض الحمام عند قاعدة العرف . وكان على الرشيد جبة سوداء فوقها بردة النبي . فهل يسع المقبل على

---

(١) الاغاني ١٨٤ ج ٣

تلك السدة غير التهيب ؟ اما اسماعيل فكان قد تعوّد ذلك وهو عاقل حكيم لا تأخذه المظاهر المبهرجة وكان مع ذلك في شاغل من اعمال الفكرة في حال الخلافة وما يخافه عليها من التضعضع وهو يعلم شدة الرشيد وتسرعه اذا غضب

فلما اطلّ من بين شطري الستر قال باعلى صوته « السلام على امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ... أأدخل ؟ »

فتحرك الرشيد كأنه يتحفز للقيام اجلالاً لاسماعيل وابتسم لهُ وهو يقول « وعليك السلام ياعماه .. مرحباً بك »

فدخل واسرع في خطوه ليمنع الخليفة من الوقوف لهُ . اما الرشيد فنهض عن مقعده نهوضاً قليلاً ومدّ يده وصافح اسماعيل وقال « لقد اتيت اهلاً ياعماهُ . امثلك يستأذن بالدخول ؟ » ثم اوماً الى الوصفاء فقدموا لهُ كرسياً وضعوه بجانب السرير واشار الرشيد اليه بالجلوس وهو يبتسم ترحاباً واستئناساً . فجلس واثنى على ما لاقاهُ من الرعاية والحفاوة ودعا للرشيد ولبث ساكتاً على عادة جلاس الخلفاء فانهم لا يبدأون الخليفة بكلام . فاستحسن الرشيد تأدبه مع علمه بكبر نفسه ودالته فقال « لقد اتيتنا لخير ان شاء الله . فانك منقطع عنّا منذ ايام ولا تأتينا الاّ لنصيحة او مهمة ونحن نرجو لقاءك كل يوم »

قال « اني يا امير المؤمنين اقيم في البصرة وقلما آتي بغداد ولو علمت لدخولي على الخليفة نفعاً لقضيت سحابة عمري بين يديه . واما الآن فقد اتيت التمس منهُ فضلاً نضمّهُ الى مننهِ المتوالية وانعامه السابغة .. »

قال « قل طلبتك فانك صاحب الامر معنا »

فاكبر اسماعيل تلك المجاملة وحنى رأسهُ امتناناً ويداه ملمومتان في حجره وقال « ان الامر لمولاي جعله الله لهُ وحده لا ينازعه فيهِ احدٌ . وهو ينعم بما يشاء من فضله . فاذا سمح مولاي بكلمة فاني استأذنهُ في الخلوة »

فاوماً الرشيد فخرج الوصفاء والشاكريان واقبل هو بكليته على اسماعيل وقد ابرقت عيناه اهتماماً وتفرساً لعلمه ان اسماعيل لا يطلب الخلوة الاّ لامر ذي بال

فنظر اسماعيل الى الرشيد وقال « أأتكلم ؟ »

قال « تكلم اطلب ما تشاء »

قال « لا يخفى على مولاي ان جعفر ابن اخيه الهادي من خيرة بني اعمامنا .. »

فلما سمع الرشيد اسم جعفر أوجس خيفة مما قد يتلوه من اقتراحات لا يروق لهُ تنفيذها

ولكنه اظهر الملاطفة وقال « نعم انهُ ابن اخي فهل هو في حاجة الى عطاءٍ »

قال « كلاَّ ياسيدي لأَن نعم امير المؤمنين تتوالى عليه كما تتوالى علي سائر بني هاشم ولكنه يودُّ الزيادة في شرفهِ »

فادرك الرشيد بفراسته ان اسماعيل انمـا جاء خاطباً فتجاهل وقال « ان قرابة الرسول أعظم اسباب الشرف لهُ ولنا »

قال « نعم .. هو كذلك ولكنهُ يحبُّ التقرب من عمهِ امير المؤمنين وخليفة سيد المرسلين »

فلم يبق عند الرشيد شك في انهُ جاء يخطب ابنته لجعفر فابتدره قائلاً « كل ما تقترحهُ يا عماه نافذ الاَّ خطبة العالية ... »

فاستغرب اسماعيل تلك المفاجأة وقال « وانا لم آتِ لاطلب سواها .. فاذا كان ذلك ممتنعاً فالامر لامير المؤمنين ونحن مطيعون لارادته ندعو بطول بقائه .. على ان ماخوَّلتنيه من الدالة يجرئني على سؤَال ارجو ان لا يثقل على مولاي »

قال « قل فان لك رعاية وحقاً »

قال « ألعلَّ امير المؤمنين لا يرى ابن اخيه كفؤاً لمولاتنا العالية ؟ .. ومن يا ترى اكثر كفاءة لها من ابن عمها اخي ابيها حفيد الملك النبيل والشيخ الجليل (يريد المنصور) »

فقال الرشيد وهو يعبث بقضيب الخلافة بين انامله « اما الكفاءة فلا ينازعه احد فيها كما ذكرت .. ولكن سبق السيف العزل ... فان العالية مخطوبة .. »

فاستبعد اسماعيل ان تخطب بنت الخليفة ولا يعلم هو بخطبتها وظنَّ الرشيد يقول ذلك ليدفع طلبه فقال « العالية مخطوبة ؟ اني لم اعلم ذلك ولو علمتهُ ما اقدمت على طلبها ولم اكن اظن احداً ينال ذلك غير ابن عمها .. »

فتحرك الرشيد في مجلسه ونظرهُ على البساط وقال وهو يحاول اخفاء ما كاد يظهر في وجههِ من الانفعال « نعم ولكن وزيرنا جعفر بن يحيى طلبها لابراهيم بن عبد الملك بن صالح ابن عمنا فلم نرد طلبهُ .. »

فلما سمع اسماعيل قولهُ أطرق وتشاغل ببلع ريقهِ وقد عظم عليهِ فشلهُ . ولكن غضبهُ من نفوذ جعفر الى هذا الحد كان اعظم عليه من ذلك الفشل على انهُ تماسك مخافة ان يظهر غضبه فيؤول الى النقمة عليه وظل مطرقاً والرشيد ينظر اليه ويراقب ما يبدو منهُ وهو يود الاكتفاء بما تقدم . فلما طال سكوت اسماعيل قال الرشيد « انهُ ليسوءني ان اردَّ طلبك لولا

ما قدمتهُ من وقوع الخطبة وأنت تعلم ان الرجوع عن ذلك لا يليق .. فاطلب لابن اخينا منة اخرى »

الفصل الاربعون

الفشل

فرفع اسماعيل بصره واغتنم رغبة الرشيد في التعويض عن فشلهِ وقال « صدق مولاي ان الرجوع عن الوعد لا يليق بمقامهِ وأنا اعلم ذلك لثقل ما اقاسيهِ من رجوعي بخفي حنين بعد ان وعدت ابن اخيهِ بهذا الشرف . وقد تسرعت بوعدي ولكنني لم ارتكب ذلك الاَّ رغبة في صيانة الدولة لما يعلمه مولاي من غيرتي على سلامتها .. »

فادرك الرشيد ما يعرّض بهِ من الرغبة في ارضاء ابن اخيه الهادي ليشغله عن طلب الخلافة او الوقوف في سبيلها . وقد تعوَّد الرشيد ان يسمع من اسماعيل ما هو اكثر صراحة من ذلك مما لا يتجرأ سواه على عشر معشارهِ ومع ذلك فان هذا التعريض اثار غضبهُ لان الخلفاء العباسيين لم يكونوا يغضبون لشيءٍ مثل غضبهم لما يشتمُّ منه رائحة التعرض للملك ولو تلميحًا . ولكنهُ تمالك وكظم وتجاهل وقال « انك شهير بغيرتك على دولتنا وهي انما تتأيد بآراء امثالك من شيوخ الحكمة وارباب الرأي السديد وهم قليلون . واما ابن اخي فانه من لحمي ودمي واحب لهُ ما يرضيهِ فهل من شيءٍ تطلبهُ لهُ غير العالية ؟ »

قال « اطال الله بقاءَ امير المؤمنين فاني اراه يبالغ في مجاملتي ولكن يسرُّني انهُ عالم بالغاية التي أرمي اليها ... فاتقدم اليهِ ان يولي ابن اخيه عملاً يشتغل بهِ ... ونظرًا لقرابته من الخليفة فاطلب لهُ ولاية مصر او خراسان .. »

فوجم الرشيد عند سماعهِ ذلك وبدت البغتة في عينيه وهزَّ رأسهُ استغرابًا لذلك الاتفاق وقال « وهذا لا سبيل اليه ياعماه فاني وعدت وزيري في صباح الامس بولايةِ مصر لابراهيم المذكور واما خراسان فقد وعدته بها لنفسه منذ ايامٍ وقد كتمت ذلك ولم اخبر احدًا بهِ ولولا انك اسماعيل ما بحت به لك »

فضاق اسماعيل ذرعًا من توالي الفشل على هذه الصورة وعاد الى الاطراق واعمال الفكرة ولم يرَ بدًّا من التصريح بغرضهِ من تلك الاقتراحات فعاد الى مافطر عليه من حرية

القول ونسي موقفهُ وما يعلمهُ من سوء العقبى اذا غضب الرشيد فقال « يأذن لي امير المؤمنين ان ابوح لهُ بما في ضميري فاخاطبهُ باعتبار انه هرون بن محمد وانا ابن عمه اسماعيل بن يحيى .... » وتنخنح واعتدل في قعوده والرشيد يتجلد في سماع قولهِ وهو يكاد يلتقفهُ بعينيه من شدة التفرس

فقال « انت تعلم غيرتي على سلامة هذه الدولة وشدة محافظتي على بقاء هذا الخاتم بيد هرون وهذه البردة على كتفيه وتعلم ايضاً ما قد يجول في خاطر ابن اخيك .. وانا اعلم قصر باعه عن نيلهِ ولكن المصلحة وحسن السياسة يقضيان علينا بملافاة اسباب الفتن لئلاَّ يرى اعداؤُنا غرَّة منا فيغتالوننا وهم كثيرون يكفي منهم الروم في القسطنطينية والامويون في الاندلس — وانا اعتقد عجزهم عن الفوز ولكن الحكمة تستدعي التكاتف وجمع الكلمة ... وهذا هين على الرشيد اذا استخدم ذكاءه ودهاءهُ فيشغل اهل المطامع من اهله بخدمة دولتهِ بدلاً من ان يتفرغوا لافلاق راحته ... »

فبادر الرشيد الى قطع كلامه خوفاً من استرسالهِ في الحديث حتى يصرح باكثر من ذلك فيغلب الغضب عليهِ ولا يقوى على التمالك فقال « قد كان بودنا ان نولي ابن اخينا مصر لولا ما قدمتهُ من الوعد بها لابراهيم .... فهل ترى لي حيلة أخرى ؟ »

فاسرع اسماعيل بالجواب قائلاً وقد غلبت عليهِ الانفة والاستقلال بالرأي « لي حيلة واحدة .. »

قال « وما هي ؟ »

قال وكفَّاه على ركبتيه كانهُ يتحفز للقيام « تبايع له بالخلافة بعد محمد وعبد الله (الامين والمامون) — افعل ذلك ولو على سبيل الترضية ... »

فلما سمع الرشيد قولهُ القى القضيب من يده على السرير ونهض بغتة ونزل الى البساط بسرعة حتى انخرفت البردة عن كتفيه وكادت تسقط وقد نسي موقفه ومنزلة اسماعيل عنده ثم أصلح البردة وجعل يخطر في الايوان فنهض اسماعيل وادرك ان بقاءهُ هناك اصبح خطراً ولا فائدة منه وأَجلَّ التصريح بما في نفسه لفرصة اخرى . فتراجع من موقفه وقد رأى بنهوض الخليفة مسوغاً لخروجه من حضرته لان ذلك من علامات الصرف عند الخلفاء ولكنهُ لم يشأ الخروج على تلك الصورة لئلاَّ يستغشه الرشيد او يسيء الظن بهِ فقال « اظن امير المومنين ندم على ما اباحهُ من اطلاق لساني بين يديهِ واظنني تطاولت في الدالة عليه الى ابعد مما ينبغي فدخلت في مالا يعنيني ... فاعتذر لهُ عن جسارتي ... »

وكان الرشيد قد وقف وتشاغل بقراءة بيتين من الشعر منقوشين على حائط الايوان فلما سمع قولهُ تحوَّل اليهِ وتكلف ابتسامة لم تخفِ غضبه وقال « ان اسماعيل عندنا في المقام الذي تعلمهُ ولهُ فضل النصح والمشورة على الدولة فلا يريبك ما رأيتهُ من وقوفي فجاة . واذا غضبتُ فانَّ غضبي لك لا منك وكيف اغضب من شيخ بني هاشم وحكيم بني العباس ؟ ولكن ساءني انك لم تطلب امرًا ممكنًا فاجيبك عليهِ حالاً مع رغبتي في رعايتك واكرامك . . »

فادرك اسماعيل من خلال قولهِ ما كان يحاول اخفاءه من الغضب و يتكلفه من التلطف في الجواب فقال « اشكر لمولاي تفضلهُ وحسن قصدهِ والظاهر ان سوء طالع ذلك الرجل قد اوجب هذا الاتفاق . . . اذ لكل وقت طالع وكأنَّ طالع هذه الساعة لا يوافق حظَّهُ . . . فهل ياذن مولاي بانصرافي الآن ونؤجل ذلك الى ساعة ابرك من هذهِ ؟ »

فسرَّ الرشيد لطلبه الانصراف في تلك الحال وقال « لاباس من انصرافك يا عماه ؟ »

فرجع اسماعيل وهو منحنٍ يمشي القهقرى بين يديهِ على العادة في الخروج من مجالس الخلفاء حتى وصل الى الستارة وخرج والرشيد واقف ينظر اليهِ وقد قام في نفسه من الغضب ما اقلقهُ وحبب اليهِ الخلوة بنفسهِ

الفصل الحادي والاربعون

عبد الملك بن صالح

اما اسماعيل فخرج توًّا الى جواده وقد ندم على مجيئه فركب ومشى الغلامان في ركابهِ وهما غافلان عما ينقد في قلبهِ من الغضب وما يتردد في ذهنه من الاسف على حال تلك الدولة بما يعلمهُ من تضارب الاحزاب واختلاف الاغراض . فوصل الى قصرهِ والشمس قد تكبدت السماء فوجد ابن الهادي في انتظاره واستفهمهُ عما جرى فقص عليه بعض الخبر وابلغهُ عذر الرشيد في امتناعهِ عن تزويجه بالعالية و بالغ في الاعتذار عنهُ لئلا يهيج غضبهُ ولم يخبره بطلب ولاية مصر ولا ولاية العهد الى ان قال « واني آسف لما اتفق لي من الفشل والرشيد اكثر اسفًا مني على ذلك ولكن لاحيلة لنا في الواقع فاصبر وكن عاقلاً وسنغتنم وقتًا ابرك من هذا لامر اهم من هذا فان الرشيد حسن الظن بك . . »

فلم يخف على جعفر غرض اسماعيل من تلطيف الخبر ولكنه سايره وقال « اني صادع بامرك ... ولكن هل تعلم السبب الذي بعث على خطبة العالية لابراهيم ؟ »

قال « كلاَّ ... ولكن للوزير دالة على الخليفة ولعبد الملك دالة على الوزير فالظاهر انه تقدم اليه ان يتوسط له بخطبتها عند امير المومنين وهو ابن عمها وكفء لها فأجاب طلبه »

قال « لو كان الامر كذلك لهان ولكنني اقصّ عليك السبب فتحقق ما قلته لك من استخفاف هؤلاء الموالي بالخليفة واهله — اخبرني جاسوس لي عند جعفر في صباح هذا اليوم ان هذا الوزير كان في مجلس انس خلا فيه بندمائه فلبس الحرير وتضمخ بالخلوق وكذلك فعل سائر جلاسه وأمر حاجبه ان يحجب عنه كل احد الاَّ عبد الملك بن بحران قهرمانه . فسمع الحاجب لفظ عبد الملك ولم يسمع لفظ ابن بحران . وكان عبد الملك بن صالح ابن عمنا يراقب فرصة يخاطب بها الوزير في بعض حوائجه فلما سمع بذلك المجلس قدم الى داره فجاء الحاجب وقال لجعفر ان عبد الملك في الباب فظنه ابن بحران فامر بادخاله فدخل وهو في سواده وقلنسوته فرأى القوم في لباس المنادمة ولما رآه جعفر اربدّ وجهه وانت تعلم ان عبد الملك لا يشرب النبيذ فلما رأى تلك الحال خلع السواد والقلنسوة وطلب ثياب المنادمة ودخل وسلم وقال اشركونا في امركم وافعلوا بنا مثل فعلكم بانفسكم . فجاء الخادم والبسه ثياب المنادمة واستدعى بطعام فاكل وبنبيذ فاتوه برطل فشربه ثم قال لجعفر والله ما شربته قبل اليوم . فزاده جعفر من النبيذ واتوه بالخلوق فتضمخ ونادم القوم احسن منادمة فذهب عن جعفر خجله . فلما اراد عبد الملك الانصراف قال له جعفر اذكر حوائجك فاني لا استطيع مقابلة ما كان منك . فقال ان في قلب امير المؤمنين موجدة عليّ فتخرجها من قلبه وتعيد اليّ جميل رأيه فيّ . فقال قد رضي عنك امير المؤمنين وزال ما عنده منك . فقال وعليّ اربعة آلاف الف درهم ديناً . قال نقضي عنك وانها لحاضرة ولكن كونها من امير المؤمنين اشرف بك وادلّ على حسن ما عنده لك . قال وابراهيم ابني احبّ ان ارفع قدره بصهر من ولد الخلافة . قال قد زوجه امير المؤمنين العالية ابنته . قال وأوثر التنبيه على موضعه برفع لواء على رأسه قال قد ولاه امير المؤمنين مصر [1] فانظر الى هذه الجسارة التي ليس اغرب منها الا رضاء الرشيد بها وقد فعل جعفر ذلك مكافأة على شرب النبيذ ونحن نلوم ابن عمنا الامين مع صغر سنه على شربه ونعدّه خليعاً وهذه هي الخلاعة ولا يخفى عليك اضرارها بالملك . ومع ذلك فان الرشيد اطاع جعفر ولم يهمه ما يترتب

(١) ابن خلكان ١٠٥ ج ١

على ذلك من ضعف الملك »

وكان اسماعيل يسمع كلام ابن الهادي وهو يكاد يتميز غيظاً ولكنه اختصر في الجواب واظهر الاستخفاف بالقصة وقال «هكذا ابلغك الجاسوس ولا يخلو بلاغه من غلوّ ومع ذلك فليس هذا بالامر الهام فانا اتقدم اليك ان تكتم ما دار بيننا وتصبر لنرى ما يكون »

فسكت جعفر عن احترام لاعن اقتناع فقال اسماعيل « فاذهب الى البصرة وانا موافيك اليها بعد يومين »

قال « سمعاً وطاعة » فودعهُ واظهر انهُ يتأهب للسفر فاشتغل اسماعيل عنهُ فاختفى يوماً ثم اتى الى الفضل بن الربيع في منزلهِ وكان الفضل لا يزال مفكراً في اسلوب يبلغ بهِ خبر العلوي الى الرشيد وقد عاد محمد الامين واخبره بحديث والدته ام جعفر وما دار بينها وبينهُ من خبر العلوي وما في نفسها على البرامكة . ولم يكن الفضل يجهل ذلك فلما جاءه ابن الهادي رحب بهِ فاخبره بما سمعهُ عن امر عبد الملك بن صالح وزواج العالية وما يدل عليه ذلك من ضعف الخليفة واستبداد البرامكة وحرضهُ على ابلاغ خبر العلوي الى الرشيد فقال له الفضل « قد اعددت كل شيء ؟ »

قال « وهل عينت من يذهب بذلك ؟ »

قال « ليس لنا الاّ ابو العتاهية فانك تشتريه بالمال ولهُ دالة على الخليفة »

قال وكانهُ تذكر امراً قد نسيه « وهل عاد من اقتصاص اثر الطفلين ؟ »

قال « عاد وقد قبض عليهما وحبسهما في مكان امين لوقت الحاجة »

فابرقت اسرة جعفر وقال « لقد قتل البرمكي لا محالة .. والآن دبر ما تراه لابلاغ الخبر الى الرشيد فاني منصرف من بغداد لان عمي اسماعيل الح عليّ بالانصراف وانا واثق انك كفء لتمام العمل .. »

قال « كن مطمئناً »

فودعه ورجع وهو يتوهّم انهُ أغرى الفضل واستخدمهُ في مصلحته والفضل يعتقد انهُ استخدم ابن الهادي لغرضهِ لانهُ اذا سقط البرامكة عادت الوزارة لهُ ولم يخف عليه ما في نفس ابن الهادي على الرشيد وانهُ انما يسعى في مصلحة نفسهِ لارجاع الخلافة اليهِ ولذلك كان يوهمهُ انهُ ساعٍ في مساعدتهِ على نيل الخلافة وهو انما يشتغل لاسترجاع الوزارة لهُ ولا يهمهُ كانت وزارته للرشيد او لسواه .. فكانت النيات مختلفة والدسائس متنوعة والمساعي متضاربة ولكن الغرض متفق فيها كلها وهو اسقاط البرامكة باية وسيلة كانت واذا اراد الله امراً هيأ له اسبابهُ

الفصل الثاني والاربعون

المناجاة

فلندع الفضل في مساعيه ولنعد الى الرشيد فقد تركناه في الايوان وحدهُ فلما خلا بنفسهِ ساءهُ خروج اسماعيل على تلك الصورة مع رفعة مقامه وجلالة قدره فاخذ يفكر في ما دار بينهما ويردد ما قالهُ لهُ فلم يجد في امكانه ان يفعل غير ما فعلهُ فجعل يخطر في الايوان وقد ذهب وجدانهُ وتراكمت عليه الهواجس فتذكر حالهُ مع وزيره وما بلغ اليه من نفوذ الكلمة عنده حتى اصبح اكثر وجاهة ونفوذاً من ابناء عمه ثم رجع الى صوابه فرأى انهُ محمول على ذلك ببواعث الاحوال لان الوزير قابض على مصالح الدولة يدير شؤونها ويتصرف في اعمالها بحكمة ودراية . وقد اراحهُ من مشاغلها وخفف عنهُ اثقالها فضلاً عما بينهما من روابط الولاء والمحبة وما لابيه يحيى من الفضل عليه وهو الذي اقامه على منصة الخلافة بحسن تدبيره . ثم اعترض حسن ظنه به ما يعلمهُ من ميله الى الشيعة العلوية وما يراه من كثرة الطاعنين به ولكنهُ كان يحمل طعنهم عليه محمل الحسد منه

وبينما هو يمشي في الغرفة ويفكر على هذه الصورة لاحت منهُ التفاتة الى السرير فرأى القضيب الذي كان قد وضعه هناك فتقدم ليتناوله ويتشاغل به في اثناء هواجسه فوقع نظره على بطاقة وراء الوسادة فالتقطها وفضها وقرأها فاذا فيها الابيات التي قرأتها ام جعفر زوجته على ابنها محمد وقد تقدم ذكرها — فلما بلغ الى قولهِ :

ونحن نخشى انه وارثٌ ملك ان غيبك اللحدُ
ولن يباهي العبد اربابه الاّ اذا ما بطر العبدُ

توارد الدم الى رأسه وحمي غضبهُ فاعاد نظره الى البطاقة فقرأها ثانية وهو يعمل الفكرة وقد نسي البحث عن سبب وضعها هناك لعظم ما كان من تأثيرها على ذهنه فعاد الى التفكير في جعفر وما بلغ اليه من الثروة والاستبداد حتى يزوّج بنات الخليفة ويولي الامصار لمن يشاء ويهب الاموال بلا مشورة لايخشى بأساً ولا يخاف اعتراضاً . فقال في نفسه « لقد آن لك يا هرون ان تستيقظ من رقادك وتنظر في امر هذا المولى وما بلغ من تطاولهِ فانه لايلبث ان يمدّ يدهُ الى اعظم من ذلك والعياذ بالله » ثم وثب من موقفه والقضيب مشهر بيده كانه يهاجم عدوًّا وهو يقول :

ان سهامنا اذا وقعت بقدر ما تعلو بها رتبهْ
واذا بدت للنمل أجنحةٌ حتى يطير فقد دنا عطبه(١)

ثم تراجع ونظر حوله فرأى ما هو فيه من النعيم والابهة وتصوَّر انه اذا مات افضى الامر الى جعفر لانهُ لا يجهل ضعف ابنهِ الامين ويعرف قوة المأمون وهو ابنه ايضاً ولكن ضلعه مع الفرس لانه ربي في حجر جعفر وشب على حب الشيعة فاذا افضى الامر اليهِ وجعفر حيٌّ خرجت الخلافة من بني العباس . فندم على تسليم المامون الى جعفر واهمال الامر الذي كان ينبغي ان ينظر فيهِ قبل كل شيءٍ وهو بقاء الدولة لبني العباس . ثم تذكر كيف حرضه جعفر على البيعة للمامون ولم يكفَّ عنهُ حتى اطاعه فتوهم ان ذلك انما فعله لينقل الخلافة الى الشيعة بعد ذهابها من يد الامين فحرق اسنانه ندماً ثم عض انملته وهزَّ رأسهُ وقال :

لقد بان وجه الرأي لي غير انني عدلت عن الامر الذي كان احزما
فكيف يرد الدرُّ في الضرع بعد ما توزع حتى صار نهباً مقسما
اخاف التواء الامر بعد استوائهِ وان ينقض الحبل الذي كان ابرما

وعاد فاسترجع رشده واعمل فكرته في حقيقة الواقع فغلب عليه الخوف من جعفر .. لما يعلمهُ من كثرة مريديه وانصاره وفيهم جماعة كبيرة من نخبة رجال الدولة حتى بني هاشم ممن غمرهم بالعطاء وقيدهم بالانعام ... فكانت هذه الهواجس تتردد في مخيلته وهو يمشي في الايوان ويداه وراء ظهره . واتفق وهو في ذلك انه وقف امام الستر فقرأ عليه بيتين مطرزين بالقصب هذا نصهما :

اياك والامر الذي ان توسَّعتْ مواردهُ ضاقت عليك المصادرُ
فما حسن ان يعذر المرء نفسه وليس له من سائر الناس عاذر

فلما قرأهما امسك نفسه وعاد الى صوابه ونظر الى البطاقة في يدهِ وقال « لعلَّ الذي كتب هذه الابيات من حساد جعفر وهم كثيرون واني في كل حال صابر له اترقب الفرصة للاطلاع على الحقيقة »

(١) المسعودي ٢٠٨ ج ٣

الفصل الثالث والاربعون

باب الرشيد

قضى في تلك الخواطر وامثالها حيناً وهو يقف تارة ويمشي اخرى وعليه ذلك اللباس الفخيم واذا بالحاجب دخل وهو يقول « ان الشعراء والندماء بباب العامة منذ الصباح لانه يوم الجلوس لهم فهل يامر امير المؤمنين ببقائهم أو يصرفهم ؟ . »

فلما سمع الرشيد قوله انتبه لنفسه كانه هبّ من رقاد وتحير في امره لانهُ في حال لا يروق له معها مجالسة الندماء والشعراء وانما يفضل الخلوة ولكنه استنكف من ان يشعر احدٌ بقلقه اذا صرف الشعراء فقال من في الباب من هؤلاء ؟ »

قال « هم كثيرون وفيهم المقيمون في بغداد من اهل الرواتب المعينة والارزاق الجارية وفيهم الوافدون الاستجداء من اطراف البلاد »

فقال « اما الوافدون فناذن لهم في وقت آخر اصرفهم الآن وقل لصاحب بيت المال ان يحسن جوائزهم و يطيب خواطرهم ... ومن بالباب من اهل الرواتب ؟ »

قال « فيهم من العلماء الاصمعي والكسائي وابو عبيدة .. » فقطع كلامه واشار اليهِ بيده ولسان حالهِ يقول « دعني من العلماء واذكر غيرهم »

فقال « اما الشعراء فمنهم الحسن بن هانيء (ابو نواس) وابو العتاهية ومروان ابن ابي حفصة ... واما ... »

فاشرق وجه الرشيد عند سماع اسم مروان لانه كان يستلذُّ شعره لما فيه من الطعن بالعلويين ولكنه لم يجد في نفسه راحة لسماع الشعر أو الادب وعلم انه لا يجلو ما في خاطره غير الغناء فقال « دع هؤلاء الشعراء الثلاثة فقط يدخلوا الى قاعة الشراب في هذا القصر واخبرني هل ببابنا احد من الندماء والمغنين والملهين »

قال « اما المغنون فرأيت منهم بعض اصحاب مولانا ابراهيم بن المهدي اخي امير المؤمنين الذين هم على طريقته في الغناء كابن جامع وابن نابة وابن ابي العوراء ويحيى المكي ورأيت بعض اصحاب اسحق الموصلي المعجبين بطريقته وسمعتهم يتقارعون في اي الطريقتين افضل ... »

فقطع الرشيد كلامه وقال « دعنا من هذه الطبقات فاني لا أرى الاجتماع للمناظرة في طرق الغناء اليوم ... فادع بزرصوما الزامر وابا زكار الربابائي الاعمى وحسيناً الخليع واما

الغناء فاحب سماعه من قيان القصر .... » ثم اطرق وقال « ولكن ذلك لا يحلو الاّ بوجود ابراهيم الموصلي ... ادع لي مسروراً الخادم .. »

فاشار مطيعاً وخرج ثم اتى مسرور بسيفه وفظاظته وحييّ فقال له الرشيد « اليّ بابراهيم المغني على عجل ... »

فظلّ مسرور واقفاً فعلم الرشيد انه يريد التكلم فقال « ما بالك لا تذهب ؟ »

قال « لا ادري اين اجد ابراهيم الآن وامير المؤمنين قد اذن لهُ ان يخلي باهله يوماً في الاسبوع لا يطلبهُ فيه ... وهو هذا اليوم »

قال « هاته حيثما كان ولا تراجعني »

فلم يسعهُ الاّ الطاعة فخرج وصفق الرشيد فجاءهُ بعض الغلمان فقال « اليّ بصاحب اللباس » وهو الذي يلبس الخليفة ثيابه فاتى . فقال لهُ « اني عازم على مجلس منادمة فالبسني ثيابها فخرج ثم عاد ومعه عدة وصفاء يحملون تلك الثياب وهي غلالة وشي منسوجة بالذهب وعمامة صغيرة موشاة وازار رشيدي عريض العلم مضرج — تلك كانت ملابسهُ الصيفية في مثل هذا المجلس . وجاء غلمان آخرون في ايديهم المباخر فيها العود والند . وفي ايدي آخرين جامات الطيب . فبدأ صاحب الملابس بنزع ما على العمامة من الحلي حتى حلّ العمامة واخذ البردة والجبة ثم ألبسهُ الغلالة وعممه وناوله الازار فاتشح بهِ . فلما فرغ من لبسه خرج من باب في الايوان يؤدي الى دار النساء . وما زال ينتقل من رواقٍ الى آخر ومن دار الى اخرى حتى دخل داراً مفروشة الصحن بالرخام وملبسة الحيطان بالوشي المنسوج بالذهب ومنها الى قاعة ارضها وحيطانها ملبسة بالوشي المذكور وقد نصبوا لهُ هناك سريراً من الصندل وارخوا في منتصف الغرفة ستراً من ذلك الوشي عليه نقوش جميلة وحول ارض الغرفة الوسائد من الوشي المطرز وليس عليها احدٌ لان الشعراء يجلسون في القسم الآخر من الغرفة وبينهُ و بينهم الستر

فلما جلس هناك ووقف الغلمان بين يديه تذكر انهُ جائع ولم يتناول طعاماً منذ الصباح فامر صاحب الطعام ان ياتيه ببعض الاطعمة المستعجلة فنصبوا لهُ سماطاً واتوه اولاً بالمرق من السكباج تنشيطاً لجسمه ثم جاؤه بمطبوخات البقول ثم الدجاج فالشواء من الحمام أو الدراج فانواع السمك فبعض ما يطبخ بالتوابل من اللحم والبقول ثم قدموا له رقاقاً من السنبوسج المحشية باللحم والدهن عليها التوابل من الفلفل والزنجبيل . ثم الحلوى من الفالوذج واللوذينج واخيراً النقل للتعلل بعد الطعام . وكان يا كل وخاطره قلق حتى اذا فرغ

من الطعام سمع عوداً يضرب ضرباً مطرباً على نغم لم يسمعه من قبل

فاصاخ بسمعه فاطربهُ ذلك الصوت وعلم انهُ آتٍ من الرواق وبينهُ وبين ذلك المكان سترٌ فشعر بذهاب الانقباض عن صدره شيئاً فشيئاً وهو يعجب لذلك النغم الغريب وقد ادرك من نعومته انهُ صوت جارية فصاح « من يغنينا في الرواق جزاهُ الله خيراً؟ »

فسمع الجواب من وراء الستر « هذه قرنفلة وصوتها مثل رائحتها » فعلم الرشيد ان الذي يخاطبه حسين الخليع فصاح فيه « قبحك الله واي قرنفلة ؟ »

فقال « هي جارية ارسلها مولانا ولي العهد هدية لامير المؤمنين في هذا الصباح ... غنّي ياقرنفلة ان الخليفة طرب لصوتك فيا اسعادتك ... و ياليتني كنت مكانك فيغنيني ذلك عن اللطم والصفع على الاقل »

فلما سمع الخليفة مجونه ضحك وضحك سائر السامعين الاَّ حسيناً المذكور فانهُ استأنف الكلام قائلاً « هذا هو حظي بتقربي من الخلفاء انا ابكي وهم يضحكون ... فعسى ان يسعدني الحظ واصير قرنفلة او وردة يشمني الناس ويسمعون صوتي أو يرفقون بجلدي ..... ولكنني اخاف لادبار سعدي ان يجاب دعائي وبقع الالتباس في طلبتي فيجعلني القضاء بطيخة او سكباجة فيأكلني الناس ويتمتعون بي واصير انا الى ظلمة الاحشاء وبئس الظلمة ... غني يا قرنفلة غني ... اطلب الى الله ان يبقيني على ما انا ... وقد قيل نحس تعرفه ولا سعد تتعرف بهِ .. »

فاغرب الرشيد في الضحك ولم يبق احد هناك الاَّ قهقه ثم سكتوا جميعاً ينتظرون ما يبدو من الرشيد . ولم يكن عنده احدٌ من الندماء او الخاصة الذين يجالسونهُ بلاحجاب فلم يكن يرى وجههُ في ذلك المجلس الاَّ الغلمان والوصائف الوقوف في خدمته او الترويح له — وسكت الرشيد لحظة وهو يغالب هاجساً مما كان فيه ذلك الصباح ثم قال « قد علمت ان هذه القينة جديدة عندنا منذ سمعت ضربها وغناءها مع كثرة من في هذا القصر من القيان .. قبح الله ابراهيم الموصلي اين هو ؟ »

فقال الحاجب « قد ذهب مسرور في اثره ولم يأت بعد »

فقال « انصبوا الستارة لهذه المغنية وضموا اليها احسن من في قصرنا من القيان ممن اتقنّ الصناعة على يد ابراهيم .. وهاتوا الشراب .. »

الفصل الرابع والاربعون

مجلس المنادمة

فسرّ السامعون بتلك الاوامر لما سيشنف آذانهم من معجزات الطرب . وكان في قصر الرشيد ثلاثمائة قينة وفيهن العوادة والجنكية والمزهرية والطنبورية وغيرها [1] من المتفننات بالضرب على آلات الطرب وان تفاوتن في المنزلة لديه بتفاوت الجمال ودقة الصناعة — غير انهنّ جارية لا يحسنّ الغناء وهن السراري فاسرع الغلمان لتدبير ذلك . وكان المنوط بالسراي والقيان مسرور الخادم وهو غائب فناب عنه قيم الجواري — ثم جاء صاحب الشراب بمائدة الشراب وما تحتاج اليه من الاباريق والاقداح من البلور والذهب والفضة وعليها النقوش على نحو ما وصفناه في مصطبة الامين . واما الاشربة التي تعاطوها في ذلك المجلس فانواع الانبذة المصنوعة من عصير العنب ومنقوع التمر او التفاح او المشمش او غيرها من الفاكهة اللذيذة واشربة من محلول العسل او الدبس او غيرهما . فلما انتظمت القيان للغناء دار الساقي بالاباريق الشراب على الرشيد فشرب قليلاً وهو محجوب عن القيان بستارة وعن الشعراء بستارة أخرى ومع القيان برصوما وابوزكار وكان كلما غنت احداهن صوتاً عرفها وطرب لها وناداها باسمها . ثم صاح بالحاجب فاتى فقال له « قل للحسن بن هانيء ينشد ما عنده »

فبلغه امر الرشيد فقال ابياتاً كان قد هيأها فانشدها انشاداً على عادة الشعراء في مجالس الخلفاء فطرب الرشيد وصاح « وانت يا ابن ابي حفصة »

فقال « لبيك يا امير المؤمنين » واخذ ينشد قصيدة نظمها في مدح الرشيد ضمنها التعريض بالعلويين » فاذكره ما كاد ينساه من هواجسه فصاح فيه « دع عنك هذا الآن ... قل لابي العتاهية هل هو باق على الزهد في الشعر ؟ »

فاجاب ابو العتاهية « ان ما نسمعه ياامير المؤمنين من اسباب الطرب يرمي الزهد بالمنجنيق .. وقد صدق القائل ان الغناء رقية الزناء »

فاستلطف الرشيد تعبيره وضحك وهو يقول « هذا هو الشعر بعينه ... فقل بيتاً او بيتين » قال « سمعاً وطاعة وساتلو ما يحضرني بعد قليل لاني تركت النظم من زمن طويل »

وبينما هم في ذلك دخل مسرور فلما رآه الرشيد صاح فيه « ويلك أين ابراهيم »

---

(١) اعلام الناس ١١٣

قال « هو بالباب يا مولاي .. لقد اتيت به من اقاصي الارض .. »

قال «ا دخله اليّ ليكون قريباً من هؤلاء القيان يعلمهن او يساعدهنّ »

فدخل ابراهيم وسلم فامر له الرشيد بالجلوس وقال له « نظننا ازعجناك لدعوتنا اياك على غير انتظار ... ولكننا آثرنا لذتنا على راحتك ... فاعذرنا »

فخجل ابراهيم لهذه المجاملة وقال « نحن عبيد امير المؤمنين واذا دعانا الى خدمته فقد شرّفنا ورفع منزلتنا ... »

فقطع الرشيد كلامه وقال « اسمع الغناء الجديد ... » والتفت الى صاحبة ستارة القيان وقال « ان ابراهيم استاذ المغنين يحب سماع ذلك الغناء الجديد »

فصاحت الجارية « غنّ يا قرنفلة .. »

فلما سمع الموصلي اسمها ابتسم وقال « قرنفلة هنا ؟ ان هذه المغنية نادرة في رخامة الصوت واتقان الصنعة وطالما كنت اتمنى دخولها في جملة قيان القصر .. وهي من جملة الجواري البيض اللواتي تعلمن الغناء على يدي ومن اكثرهن براعة واتقاناً »

قال الرشيد « ان ولدنا محمداً اهداها الينا في هذا اليوم ولم ار وجهها بعد .. »

قال « ووجهها جميل يا مولاي . »

فصاح حسين الخليع من وراء الستر « نحمد الله لان استاذها علمها الغناء فقط ولم يعلمها الجمال »

فضحك الرشيد وامر الساقي فصب لهُ قدحاً ولابراهيم قدحاً وقال « ان حسيناً خفيف الروح ... اشرب هذا القدح يا ابراهيم »

فصاح حسين الخليع من الداخل « جزى الله امير المؤمنين خيراً لانه انصف بيني وبين مغنيه فاعطاني خفة الروح واعطاه القدح كأن خفاف الروح لا يشربون لئلا يزدادوا خفة فيطيروا »

فضحك الرشيد وقال لابراهيم بصوت منخفض « قبحه الله رمى حجراً فاصاب اثنين فجعلني من الثقلاء وهو لا يدري »

فسمع الخليع قوله فاستدرك خطأه وقال « استميح عذر امير المؤمنين فان منع الشراب عني قد اسكرني فخلطت ... ورميت القول جزافاً ... ولكن صاحب الحاجة يعرف حاجته ولذلك فلا اظن كلامي تجاوز ابراهيم خطوة واحدة .. »

فضحك ابراهيم وقال « كن مطمئناً يا حسين فاني قد حبسته عندي فاكفف عني »

الفصل الخامس والاربعون

تغير الحال

ثم قال الرشيد « نسمع يا قرنفلة .. »

فاخذت تضرب على العود وحدها وتغني والرشيد يبالغ في استحسان صوتها حتى حسدتها رفيقاتها وفيهنَّ من كان لها حظوة كبرى عند الرشيد فسمع الخليفة لغطاً وراء الستارة عقبه ضحكٌ فقال « وعلى اي شيء يضحكن »

قالت صاحبة الستارة « تقول ضياء (احدى القيان) ان امير المؤمنين معجب بقرنفلة وهي لا تحسن الاَّ صوتاً او صوتين تعوَّدتهما فاذا أمر بعض الشعراء بنظم بيتين نغنيهما ارتجالاً فيظهر الفرق »

فصاح الرشيد « احسنتِ احسنتِ .. الىَّ ابا العتاهية ببيتٍ او بيتين مما نظمته الآن »

فقال « لبيك يا امير المؤمنين ... هل اقول وعليَّ الامان مما ربما كان ؟ »

فاستغربوا سؤاله ولاسيما الرشيد ولكنهُ ظنهُ يقول ذلك من قبيل المجون خوفاً من غضب القيان فقال « عليك الامان »

قال « وتجيزني ياامير المؤمنين غير اجازة سائر الشعراء .. ؟ لاني لم اقل الشعر من زمن مديد »

فازداد الرشيد استغراباً لهذه الشروط ولكنهُ ما زال يحسبه مازحاً فقال « ونجيزك »

قال « وتسمح لي ان ارى وجهك على حدة ؟ »

فضجر الرشيد من كثرة الشروط ولكنهُ تحملهُ وقال « ولك ذلك ايضاً .. قل »

فقال « لا تعجب يا مولاي من دالتي وجساتي فقد قيل : »

ولن يباهي العبد اربابهُ الاَّ اذا ما بطر العبدُ

فلما سمع الحضور هذا البيت ظنوه يشير الى جراتهِ في شروطه على الخليفة بما لم يسبق له مثيل . واما الرشيد فحالما سمع قوله تذكر انه قرأهُ منذ ساعة في تلك البطاقة فانقبضت نفسه وادرك ان ابا العتاهية لم يقدم على ذلك الاَّ وفي نفسه شيء يريد اسراره اليهِ

وخصوصاً بعد ان اشترط ان يرى وجهه كناية عن مقابلته فتغير الرشيد ونسي ما كان فيهِ من الطرب واصبح همه الاطلاع على سرّ تلك البطاقة فنهض للحال ونهض الحضور معه ولم يفهموا شيئاً مما في خاطره لانهم خليو الذهن من امر تلك القصيدة . ثم صفق فجاء مسرور فاسرَّ اليه ان يجيز الشعراء والقيان وان يأتيه بابي العتاهية وحده واحسَّ الموصلي بوجوب الانصراف فاستأذن بالخروج وخرج سائر من كان في المجلس وتحوَّلت تلك الضوضاء الى سكوت ووقار . اما مسرور فعاد ومعه ابو العتاهية وقد قبض على عنقهِ لاعتقاده انه السبب الوحيد في انقلاب سرورهم الى كدر ولم يكن يشك في ان الرشيد سيأمره بقطع رأسهِ

اما ابو العتاهية فانه اقدم على ذلك الخطر طمعاً بمبلغ كبير من المال وعدهُ بهِ الفضل ابن الربيع ومع جبنه وضعفه فقد غلب الطمع عليهِ حتى حمله على تلك المخاطرة ودبر هذه الوسيلة وكان مطلعاً على تلك القصيدة ولا يبعد أن يكون هو نظمها لام جعفر . وقد علم ان ام جعفر بعثت بها باكراً وانها وُضعت على سرير الخليفة في دار الخاصة ولابد من ان يكون الرشيد قد رآها وقرأها فالاشارة الى بيت منها تبعثه على طلب المزيد فاذا استزاده قصَّ عليهِ خبر اطلاق العلوي . على انهُ لم يشعر بمقدار الخطر الذي عرَّض نفسه لهُ الاَّ لما رأى انقلاب ذلك المجلس من الغناء والضوضاء الى الانقباض والسكوت فخفق قلبهُ وخاف على حياته وخصوصاً بعد ان قبض مسرور على عنقهِ وجاء بهِ الى ما بين يدي الرشيد فانهُ دخل تلك الغرفة وقد انخرفت عمامته وتشوشت لحيته وارتعدت يداه واصطكت ركبتاه حتى لم يعد يستطيع الوقوف . فحالما وقع نظرهُ على الرشيد ترامى على قدميهِ واخذ في تقبيلهما وغلب عليهِ البكاء فتحقق مسرور عند ذلك انهُ مذنب ولا يلبث ان يسمع امر الخليفة بقتله فوقف ويداهُ على قبضة الحسام وعيناهُ على شفتي الرشيد

اما الرشيد فلما رأى ما استولى على ابي العتاهية من الرعب وما اظهرهُ من التذلل والاستعطاف بعد ان اعطي الامان اشفق عليه وقال « لا بأس عليك يا ابا العتاهية .. انك شاعرنا ونحن نكرم الشعراء .. قم لا تخف .. »

فما صدق انه سمع تلك العبارة حتى وقف وتكتف وهو مطرق لا يرفع بصره عن الارض والرعشة ظاهرة في ركبتيه ويديه وظل ساكتاً خائفاً حتى سمع الرشيد يامر مسروراً بالخروج فرمقه بطرف عينه فلما تحقق خروجهُ اطمأن خاطره ورفع بصره الى الرشيد مع الخشوع

الفصل السادس والاربعون

كشف السر

فاتكأ الرشيد على السرير وأومأ اليهِ ان يقعد فقعد جاثياً على البساط والدموع لا تزال في عينيه فقال لهُ « لا تخف يا ابا العتاهية انك في امان .. »

فاجاب وصوته مختنق « انا آمنٌ يا امير المؤمنين ؟ »

قال « انت آمنٌ اذا صدقتني »

قال « آمنٌ منك ومن وزيرك ؟ »

قال « لا تكثر السؤال ... اذا امنك امير المؤمنين فلا خوف عليك »

فتنفس الصعداء حتى هدأ روعه ثم قال « وسيعلم مولاي اني انما ركبت هذا المركب الخشن استهلاكاً في سبيل خدمتهِ »

قال وقد ملَّ الانتظار « قل لي من اينٌ عرفت هذا الشعر ومن اطلعك عليهِ »

قال « لم يطلعني عليهِ احدٌ »

قال « وكيف عرفته ؟ ألعله من نظمك ؟ »

قال « ... نعم »

قال « وما الذي حملك على نظمه ؟ »

قال « حملني على ذلك امر عرفتهُ وعلمت ان ليس بين رجال بطانتك من يجسر ان يطلعك عليهِ فاحتلت هذه الحيلة في ايصاله اليك فارجو ان لا اكون قد اسأت الى نفسي والى اهلي »

قال « لا بأس عليك ... وما هو ذلك الامر وما دخل وزيرنا فيهِ »

قال « انهُ يتعلق بهِ وحدهُ ياسيدي وسأقصُّهُ عليك فاذا تحققت وقوعهُ فانا آمن الاَّ فدمي مهدورٌ »

قال « اقصص الخبر ولا تخف .. »

فقص عليه حكاية العلوي ونجاتهُ على يد جعفر الى آخر الحديث

وكان ابو العتاهية يتكلم وصوته يرتجف وينقطع والرشيد مصغٍ بكل جوارحهِ وجاشهُ

رابطٌ . فلما أتى على آخر حديثه سأَلهُ « هل انت واثق بصدق هذه الرواية ؟ »

قال « لو لم اكن واثقاً .. بل لو لم اكن على يقين من الامر لم اعرّض حياتي لهذا الخطر العظيم ؟ »

فتذكر الرشيد علاقة جعفر به ورفعة مقامه عنده فاكبر ان يدخل ذلك الشاعر بينهما ورأى من الحزم والحكمة ان يغالطه فاغتصب ضحكة وقال « لا ريب عندي انك اقدمت على كشف هذا الامر غيرة منك على مصلحة الدولة ولذلك فانت اهل للشكر والجائزة .. ولكنك كلفت نفسك عناءً عظيماً بلا طائل لأن وزيرنا لم يأت شيئاً من عند نفسه فهو لم يطلق ذلك العلوي الاَّ باشارتي اذ تحققت انه لا بأس باطلاقه »

فلما سمع ابو العتاهية ذلك اسقط بيده وتولاه الخجل ولكنه اطمأن على حياته وقد ربح المال الذي وعده الفضل به . على انه ظل خائفاً من جعفر اذا بلغه خبر هذه الوشاية فقال « احمد الله على ان ذلك لم يحدث الا برأي امير المؤمنين .. وقد اطمأن بالي على حياة الوزير ولكنني اصبحت خائفاً على حياتي منه اذا اتصل به اني نقلت هذا الخبر فيحسبني من اعدائه .. »

فقطع الرشيد كلامه قائلاً « لا تخف .. فاني سأكتم ذلك عنه ... كن مطمئناً » قال ذلك ونهض فنهض ابو العتاهية وقد هدأ روعه . اما الرشيد فانحبس غضبه حتى ضاق صدره عنه وكاد يصرعه — فعل ذلك رغبة في اخفاء ما في نفسه عن اعداء جعفر . ولم يخف عليه ان ابا العتاهية لم يأت من عند نفسه وان الفضل هو الذي ارسله ولكنه اكتفى بما سمعهُ وصفق فجاء مسرور مسرعاً كالبرق الخاطف فقال له الرشيد « خذ ابا العتاهية وأمر صاحب بيت مالنا ان يعطيه الف دينار واطلق سبيله »

فقال « سمعاً وطاعة يا امير المؤمنين ... » وامسك ابا العتاهية بيده وخرج بهِ

فلما خلا الرشيد بنفسهِ هاج بلباله وعادت اليه وساوسهُ فتذكر ما دار بينهُ وبين اسماعيل في ذلك الصباح وكيف ردَّه خائباً مع قرابته وجلالة قدره مراعاةً لحق جعفر وكيف تبدر منه هذه البادرة فيطلق اسيراً عهد به اليه — فثبت عنده ما كان يتهمه به من الميل الى العلويين والرغبة فيهم عن العباسيين — فلما تصور ذلك هاج غضبه ونسي موقفه وجعل يمشي ذهاباً واياباً على غير هدى ويخاطب نفسه قائلاً « هل انا في حلم ؟ ايرتكب جعفر هذه الخيانة وقد أحببتهُ واكرمتهُ ورفعت قدره وسلمت اليه مقاليد الاحكام واطلقت يديه في شؤون الدولة ؟ وهل يعقل ان يكون ما سمعته وشاية من

الحساد؟ لا يعقل ذلك .. ولكن كيف يتصور ان يغدر بي جعفر و يطلق عدوًّا سلمتهُ اليه مع ما يعلمه من كرهي للعلويين . بل كيف يفعل ذلك ولا يخاف على حياته ؟ . وهذا ايضاً لا يعقل ... الاَّ ان يكون الرجل مصاباً في عقله .. لانه يعلم بطش هرون اذا غضب ... »

الفصل السابع والاربعون

مداعبة السباع

قضى ساعة في هذه المناجاة وهو لا يستقرُّ في موقفه واخيراً استوقف خاطره واعمل فكرته في ما يجلو عنه هذه الشكوك فرأى ان يسأل جعفر نفسه عن صحة هذا الخبر فاذا كان صحيحاً بادر الى الانتقام . فامسك غضبه وتجلد . وكان الرشيد مع سرعة غضبه وشدة بطشه قوي الارادة لهُ اقتدار عجيب على الكظم وكتمان ما في نفسه . فصفق فجاءه مسرور فقال له « قد حدث شغل يستدعي حضور الوزير الى هنا . فادع لي صاحب الطعام واذهب انت الى الوزير ادعه اليَّ »

فسألهُ « ماذا اقول له ؟ »

فاجاب « قل له ان امير المؤمنين احب ان تتناول معهُ العشاء في هذا المساء ... ولا تقل لهُ غير ذلك .. »

قال « سمعاً وطاعة » وخرج

وكانت الشمس قد قاربت المغيب فلما جاء صاحب الطعام قال له « اعدد مائدة اتناول عليها العشاء مع الوزير ولتكن فاخرة »

فاشار مطيعاً وخرج ومكث الرشيد وحده فعادت اليه افكاره وقد تعب منها فاحبّ ان يلهو ريثما يأتي جعفر فخطر له ان يخرج الى حديقة القصر ينزه فيها نظره فامر برداءٍ تزمل به وجاء غلامٌ البسه النعال وسواها بقدميه . فخرج الرشيد الى الحديقة يتمشى بين الاشجار والرياحين الى حيث لا يعلم

فما لبث ان وجد نفسه بجانب اقفاص السباع وكان بينها اسدٌ تعوَّد الرشيد ان يلهو بمداعبته وهو داخل القفص . فلما وقع نظره عليه شعر بشيءٍ استلفت انتباههُ وهو ارتياح

طبيعي في الانسان اذا رأى الاسد او غيره من السباع في قنصٍ . ولعل سببه الاعجاب بقوتها والدهشة من منظرها غير ما يجيش في النفس من حب التمثل بها . ومنظر السباع يهيج القوة الغضبية في الانسان فكيف اذا كان غضباناً ؟ فوقف الرشيد عند القفص وأمر السبَّاع ان يرمي للاسد طعامه فاتى بخروف كان قد ذبحه وجعله قطعاً صغيرة فرمى له قطعة فوثب الاسد عليها والتقمها دفعة واحدة لانها صغيرة ووقف ينتظر قطعة أُخرى فنهى الرشيد السبَّاع ان يرمي اليه شيئاً فجعل الاسد يزأر ويخطر في القفص ذهاباً وايباباً وذيله كالقوس فوق ظهره ينظر الى السبَّاع بعينين يكاد الشرر يتطاير منهما والسبَّاع يريه اللحم عن بعد . فلما استبطأ الطعام أقبل يضرب قضبان القفص برأسه تارة وبمخالبه أُخرى يحدّق في قطعة اللحم بيد السبَّاع ويزأر ويكشر عن انيابه والسبَّاع يضحك والرشيد يشارك الاسد بالغضب وقد ازداد عبوساً وازدادت اسرته انقباضاً حتى كاد يفتك بالسبَّاع عنه — كأنه تصور نفسه شريكاً له في ذلك الغضب لأن حاله مع جعفر مثل حال الاسد مع فريسته . ولكن الكواسر ليس لها ما يعقلها عن اظهار احساسها فتغضب وتقلق وهي في اقفاصها . اما الرجل العاقل فيملك غضبه ويمسك نفسه عن الفتك بفريسته وهي بين يديه مثل شأنه مع وزيره في ذلك اليوم . فرأى نفسه اسداً عاقلاً فاذا لم يستطع امساك نفسه كان حيواناً اعجم

فكان الرشيد يفكر في ذلك والسبَّاع ينتظر امره ليرمي القطعة للاسد حتى زأر الاسد زأرة نبهت الرشيد له فاشار الى السباع فرمى له القطعة فانقضّ عليها والتقمها وعاد الى الزئير حتى رمى له القطعة الثالثة والرابعة وهكذا حتى شبع . فربض ووضع رأسه بين ساعديه ولم يعد يتحرك ولكن عينيه ما زالتا تبرقان والحنق ظاهر فيهما

قضى الرشيد ساعة يلهو بذلك المنظر حتى سري عنه وزاد تمكناً من اعتقاده ان رابط الجأش من الناس اذا كان ذا سلطان وامسك غضبه كان اسداً عاقلاً — واراد ان يكون هو ذلك الاسد في تلك الليلة

فلما غابت الشمس واخذت الاظلال تتكاثف فوق قصور بغداد وبساتينها رجع الرشيد الى قصره وهو يسير بين الاشجار بثوبه الموشى وعمامته المزركشة والغلمان يتباعدون عنه احتراماً له وقد لحظوا غضبه وعرف بعضهم سببه والرشيد يحسب سرّه مكتوماً . وهو في ذلك سمع دبدبة وصهيلاً وصلصلة وضوضاء بباب القصر فعلم انه موكب جعفر فتجاهل وظلّ ماشياً حتى اذا دنا من باب الخاصة لقيه مسرور فاخبره ان الوزير ينتظره في تلك الدار فقال له « ادعه لموافاتي الى القاعة التي كنا فيها في اصيل هذا اليوم »

ومشى الرشيد حتى دخل القاعة وقد اضيئت فيها الشموع على مناور الذهب وفاحت روائح البخور والاطياب فتربع على السرير ولم تمضِ هنيهة حتى اقبل الحاجب يخبرهُ بقدوم جعفر فقال « يدخل .. ليس على الوزير حجاب »

فدخل جعفر وعليه القلنسوة والجبة على عادته في مجيئه لمقابلة الخليفة وهو لباس العباسيين الرسمي . وكان جعفر خائفاً من ذلك الطلب في آخر النهار لعلمه بما يتوقعه من سعاية حساده به بشأن العالية بعد ان اطلع ابو العتاهية على سرّه ورأى ابنيه مع والدتهما رأي العين — فلما دعاه مسرورٌ الى الرشيد اوجس خيفة وساله عما يريد منه فقال « لا ادري » ولم يتوسم في وجه الرجل سوءًا ومع ذلك فانه ركب في موكبه الحافل وفيه جماعة من الفرسان الاشداء ممن يستهلكون في نصرته ودخلوا معه الى الباب الرابع على غير المعتاد في من يدخل قصر الخلد من القادمين الاّ بني هاشم والوزير وامثالهم من المقربين . فترجل جعفر واقبل على دار الخاصة ومسرور يسير بين يديه لا يتكلم

الفصل الثامن والاربعون

المداجاة

فدخل الوزير تلك القاعة وهو يتكلف الابتسام ويظهر الاطمئنان وقلبه يرتجف خوفاً . فلما اقبل على الرشيد رحب به وابتسم له وقال « ليتك جئتني بمثل لباسي فان مجلسنا مجلس انس » ودعاه للقعود بجانبه على السرير . فحياه وقعد متادباً وقد سري عنه واطمان باله . وجعلا يتطارحان الاحاديث والرشيد يحتفي به ويلاطفه . ومما قاله « لقد دعوتك رغبة في انسك لاني شعرت بملل في اثناء هذا النهار على اثر ملاقاتي ذلك الوفد الهندي » واقبل يقصُّ عليه ما جاء به الوفد من السيوف القلعية والكلاب السيورية وما كان من قوتها وفتكها بالاسد

فاجابهُ جعفر « ما زال قصر الخلد مصدر الابهة والسؤدد ولا زال امير المؤمنين مؤيداً بنصر الله يتزلف له الملوك والسلاطين »

والقاريء يعلم ما في قلب جعفر من الرشيد وما يكتمه من خوف بطشه اذا اطلع على حالهِ مع العالية وما ينويه من النجاة بها اذا اطلع الرشيد على سرّهما — فكانا يتداجيان

وفي قلب كل منهما غلٌّ على صاحبه . وما زالا في ذلك حتى آن العشاء ومدّ السماط وقد اعدت عليه الوان اللحوم والطيور والتوابل وانواع الفاكهة والرياحين واصناف النقول ووقف الغلمان باباريق الماء واقداح الشراب . فقعدا يأكلان والرشيد يبالغ باكرام جعفر حتى كان يقدم له الطعام من الصحاف فيلقمهُ بيده [1] ويناولهُ السنبوسجة بعد السنبوسجة والتفاحة بعد التفاحة ويبش له ويحادثه ويضحك لحديثه حتى تطرق الى حكاية العلوي فقال له « وما جرى لذلك العلوي الذي عهدت به اليك ؟ »

قال « هو بحاله يا امير المؤمنين لا يزال في الحبس كما امرت »

فابتسم الرشيد وقال « هل هو هناك ؟ »

قال « نعم يا امير المؤمنين »

قال « بحياتي ؟ »

ففطن جعفر ان سؤاله لم يكن بسيطاً فبغت حتى ظهرت البغتة في وجهه وقال « لا وحياتك . . بل اطلقته لاني لم اجد مكروهاً عنده ولا خوف منه . . وزد على ذلك اني اخذت عليه المواثيق والعهود حتى لا يعود الى شيءٍ مما كان فيه »

فضحك الرشيد وقدم لجعفر خوخة كانت في يده وهو يقول « بورك فيك . . . فقد فعلت ما كنت ارجوه منك ولم تتجارز مافي نفسي »

فاستأنس جعفر بتلك الملاطفة وخصوصاً لما غير الرشيد الحديث واقبل يمازحهُ

ولما فرغا من العشاء جاءهما الخدم بآنية الغسيل فغسلا ايديهما وجلسا يتحادثان ساعة ثم استأذن جعفر بالذهاب فاذن الرشيد له ومشى لوداعه الى باب القاعة . فلما ودعهُ ورجع حرّق اسنانهُ وقال في نفسهِ « قتلني الله ان لم اقتلك »

اما جعفر فلم تنطل عليه مداجاة الرشيد ولا انخدع بملاطفته ومجاراته فقد خرج وهو يعلم ان مركزهُ اصبح في خطر لاعتقاده ان تلك القصة لم يرد ذكرها عرضاً كما احب الرشيد ان يوهمهُ ولا كان ينوي اطلاق العلوي كما زعم — وكيف يصدق ذلك وقد كان هذا العلوي مطلقاً ومعهُ امانٌ بخط الرشيد وختمه فما زال الرشيد يسعى حتى افسد الامان ومزقهُ وامر بالقبض على الرجل وحبسه خوفاً منهُ . فهل ينطلي على جعفر انه كان ينوي اطلاقه مع ما اختبره من طباع الرشيد وكظمه وملاينته . ولكنه اظهر انهُ صدّق قوله وافترقا وهما يتخادعان ويتداجيان ويظن كل منهما انه خدع صاحبه وكلاهما خادع ومخدوع

(١) ابن الاثير ٧٠ ج ٦

الفصل التاسع والاربعون

الخروج للصيد

لما رجع الرشيد بعد وداع جعفر دخل غرفة الرقاد وهو يفكر في مامرَّ بهِ ذلك اليوم من الغرائب . فتذكر مجيء اسماعيل في الصباح وما كان من ردّه ولم يقضِ لهُ حاجة رعاية لحق جعفر وزيره . وما عرفه بعد ذلك من استبداد هذا الوزير في الامور واطلاعه ذلك العلوي حتى قام في نفسه ان يقتلهُ . ورأى انه اساء معاملة اسماعيل وهو يعتقد نصحه وحسن قصدهِ فاحسَّ بافتقاره الى مجالسته ليطلعهُ على ما فعلهُ جعفر ويسرَّ اليهِ ما نواه من الفتك به لانهُ كان شديد الثقة باخلاصه ولم يكن يثق باحد من اهله او رجال دولتهِ مثل وثوقهِ به على نية ان يتطرق بذلك الى الاعتذار لهُ عن ردّه خائباً . وشعر الرشيد بضيق صدره فلم يرَ خيراً من خروجه للصيد يفرج بهِ كربهُ . فلما اصبح دعا مسروراً خادمهُ وامره ان يوصي اصحاب الصيد بالتأهب للخروج الى ارض دجيل (قرب بغداد) الى ان قال « وهل تعلم مقرَّ اسماعيل بن يحيى »

قال « نعم يامولاي »

قل « اذهب اليهِ وادعهُ ولكن لا تزعجهُ بفظاظتك »

قال « واذا سألني عما يريدهُ اميرالمؤمنين منهُ ؟ »

قال « قل لهُ اني عازم على الصيد واحب ان يكون معي »

فاشار مطيعاً وخرج الى الفهادين والبيازرة والحجالين واصحاب الصقور والكلاب وسائر خدمة الصيد والقنص فامرهم بالخروج الى ارض دجيل . وكانت لهم رسوم وطرق في خروجهم الى ذلك المكان يعرفونها ولايحتاجون فيها الى ترتيب او تدريب . وكانوا يتصيدون في ارض دجيل وهي عبارة عن بقعة من الارض مساحتها عدة فراسخ في مثلها قد احاطوا بعض جهاتها بسور في نصف دائرة مبني بالاعمدة المنصوبة وقد شدَّ بعضها الى بعض بالامراس او الاسلاك بشكل سور منيع . وكانت عادتهم في الصيد ان يطاردوا الحيوانات التي يريدون صيدها نحو ذلك السور من مقعّره فيضربون حولها حلقة من الجهة المفتوحة

استدراك — جاء في سطر ٦ و٢٣ من صفحة ١١٩ من هذه الرواية « العالية » والصواب « العباسة »

و يطاردونها بخيولهم وفهودهم وكلابهم وهي تفرُّ امامهم بين الاعشاب والادغال فلا يزالون يضايقونها و يحدُّونها حتى يدخلوها وراء ذلك السور ولا يكون لها مجال . فاذا انحصرت في ذلك الموضع اقبل الخليفة ومن معهُ من الخاصة وتأنقوا في القتل فيقتلون ما يقتلون و يطلقون الباقي (١)

وكانت عادة الرشيد اذا خرج للصيد ان يجول بعض النهار على الجواد في ارباض بغداد وما يحدق بها من المغارس والضياع حتى يعلم ان الحيوانات قد حصرت وآن صيدها فيأتي و يباشر قنص بعضها بنفسه او يتفرج بمشاهدة البزاة والصقور والفهود كيف يستخدمها اصحابها في الصيد مما يطول شرحهُ — اما في ذلك اليوم فقد جعل الخروج الى الصيد حيلة في مخاطبة اسماعيل كما قدمنا

اما هذا فلما جاءه امر الرشيد بالقدوم اليه ليرافقه في الصيد لبس الثياب الخاصة بذلك وركب الى قصر الخلد وكان الرشيد في انتظاره بموكب الصيد وهو يختلف عن سواه من مواكب الخلافة . وما اقبل اسماعيل على القصر حتى راى اصحاب الصيد خارجين بصقورهم و بزاتهم وفهودهم وقد لبسوا الملابس الخفيفة وفي جملتهم اصحاب اللبابيد وعلت الضوضاء وتزاحم الناس . هذا يلاعب صقره ويحرضهُ على طائر مارٍّ فوق راسهِ فاذا تحفَّز الصقر للوثوب امسكهُ . وذاك يقود فهده بسلسلة من الحديد وآخر يستحث كلبه على طلب فريسة بوهمهُ انها وراء شجرة هناك والكلب لا يكترث لانهُ لم يشم رائحة الفريسة — فاعتبر ما يترتب على ذلك من الضوضاء واختلاط الاصوات بين صهيل ونباح وهرير وصرصرة وقعقعة وصلصلة وطقطقة وهدير . فتجاوزهم اسماعيل حتى دخل الباب الثاني من ابواب القصر فلقيه مسرور وقال لهُ « لا يترجل مولاي لان امير المؤمنين خارج بموكبهِ وقد امرني بذلك »

فوقف حتى رأى الرشيد قادماً على جواده بثياب الصيد الخفيفة والفرسان حوله في موكب الصيد فلم يتمالك عند ذلك عن النزول فابتدره الرشيد قائلاً « اركب ياعماه وادن فرسك من فرسي »

فركب واراد ان يسير متأخراً عنهُ تأدباً على العادة في مصاحبة الخلفاء فدعاه ان يحاذيه وقال لهُ « ليس اسماعيل ممن يطالب بمثل هذه الرسوم . وما دعوتك لمرافقتي الاَّ لاستانس بك »

---

(١) الفخري ٤٨

الفصل الخمسون

المفاوضة

فدعا لهُ وسار بجانبهِ وامر الرشيد مسروراً ان ينطلق اصحاب الصيد الى عملهم في دجيل كالعادة ريثما يصل . وسار الرشيد واسماعيل لايتكلمان . اما هذا فسكت عن تأدب اذ لايليق ان يبادىء الخليفة بالكلام واما الرشيد فسكت عن هاجس غلب عليه . وما زالا ساكتين حتى خرجا من بغداد واشرفا على بساتينها وارباضها فامسك الرشيد شكيمة جواده والتفت حوله لفتة فهم منها فرسان الموكب انهُ يطلب الانفراد فتفرقوا وظل هو واسماعيل سائرين . فلما انفردا نظر الرشيد الى اسماعيل وقال والاهتمام بادٍ في محياه « ماالذي حدثتك بهِ نفسك لما خرجتَ من دار الخاصة بالامس ؟ »

قال « لم تحدثني بشيءٍ غير موالاة الدعاء بطول بقائك وتاييد سلطانك »

قال « ذلك هو عهدي بك على انك لو عتبتُ على هرون وانتقدتهُ لما وجدتُ سبيلاً للومك لاني لم ارع حقك وقد اسات معاملتك في سبيل رجل لم يرع حقي ولا حق بني العباس . . » قال ذلك والتفت كانهُ يحاذر ان يسمعه احدٌ . ثم تشاغل باصلاح ما على مقدم السرج من الديباج الموشى ومدَّ يده الى ناصية الجواد وجعل يمشطها بانامله وهو ينتظر ما يبدو من اسماعيل

اما هذا فادرك ما في نفس الرشيد وانهُ يضمر سوءاً لجعفر فشقَّ عليهِ ذلك لعلمه انه يعود على الدولة بالخسران فتجاهل واقبل يشكر للرشيد حسن ظنه الى ان قال « ارى امير المؤمنين يبالغ في اكرامي وحاشا لهُ ان يأتي امراً يوجب اللوم . . . وهب انهُ فعل ذلك فهو فوق لوم اللائمين . . . وانما ساءني انهُ غير راضٍ عن مواليهِ ولو صرح لي بما يريد واباح لي الكلام لزادني منة . . »

فقطع الرشيد كلامه وقال « اظنك تتجاهل ياعماه ومثلك لا يفوتهُ ادراك ما اريد »

فقال « اذا صدق ظني فان الرشيد يشكو من وزيره . »

قال « وهل تستغرب شكواي من رجل سلمتُ اليهِ مقاليد دولتي واطلقت يديه في كل شؤوني وقدمته على اهلي وذوي عصبيتي ثم هو يسعى في هلاكي ؟ »

فقال « معاذ الله ان يكون ذلك ... وما وزيرك يا امير المؤمنين الاّ من بعض مواليك يستهلك في مصلحة دولتك .. ذلك هو عهدي بهِ »

وكانا يتخاطبان والفرسان يسيران متحاذيين بين الاشجار الباسقة المشتبكة اغصانها حتى تظلل الطرق فبعدا عن المدينة وهما يسيران الى غير مكان مقصود . واتفق عند ذلك انهما اشرفا على ضيعة (عزبة) عامرة ومواش كثيرة وعمارة حسنة والطريق يدور حول الضيعة فدارا حولها حتى اقتربا من بابها فنظر الرشيد الى بيدرها وكثرة الغلال عليهِ وما يسرح من الماشية الكثيرة حوله والتفت الى اسماعيل وقال « لمن هذه الضيعة يااسماعيل ؟ »

فعلم اسماعيل انها لجعفر وقد اراد الرشيد ان يتخذ ذلك حجة على ما يريد من الطعن فيه فقال « هي لاخيك جعفر بن يحيى »

فتنفس الرشيد الصعداء وقال « ولو سألتك عن سائر مافي هذه الضاحية من الضياع لما اجبت غير هذا الجواب لان الذي دعوته اخي قد ملّك اهلهُ كل ما يحدق ببغداد من الضياع والبساتين ... أرأيت كيف اغنينا هؤلاء البرامكة وافقرنا اولادنا واغفلنا امرهم حتى صارت البلاد لهم واصبحت مواكبهم اعظم من مواكبنا واموالهم اكثر من اموالنا . ؟ واذا كانت هذه ضياعهم قرب هذه المدينة فكيف بما هو لهم على غير هذا الطريق في سائر البلدان ؟ »

فشقّ على اسماعيل ذلك القول غيرة منهُ على سلامة الدولة فقال « انما البرامكة عبيدك وخدمك وماضياعهم واموالهم وكل ما يملكون الاّ لك ... »

وكان الرشيد لا يتوقع من اسماعيل دفاعاً عن رجل كان بالامس سبباً في فشله فازداد رفعة في عينيه ولكن ساءهُ دفاعهُ لانهُ انما يريد من يجاريه في ما ينويه شأن كل غاضب مستبدّ . فنظر الى اسماعيل نظرة جبار عنيد وقد أخذ الغضب منهُ مأخذاً عظيماً وقال « اراك حسن الظن باعدائي وتحسبهم عبيداً لي والبرامكة يعدّون بني هاشم عبيدهم وانهم هم اصحاب الدولة وان لا نعمة لبني العباس الاّ والبرامكة لهم عليهم المنة بها »

فلم يرَ اسماعيل ان يدافع اكثر من ذلك لئلاّ يتحوّل غضب الرشيد اليهِ فقال « ان أمير المؤمنين ابصر بخدمهِ وعبيده »

فادرك الرشيد انهُ خاف غضبه ولم يصرح بما في نفسهِ فاحب ان يسمع رأيه فقال « ليس لذلك اصطحبتك ياعماه ولا هذا عهدي بك .. تسايرني وتجاريني خوفاً من غضبي ؟ »

فتحير اسماعيل في امره وتردد بين ان يجيبه او يبقى على الكتمان . ومع مايعلم من منزلته عند الرشيد لم يكن يطلق لنفسه الحرية الاّ وهو يحذر من غضبه ولا يستبعد ان ينقلب الرشيد عليه اذا تبادر الى ذهنه سوء الظن به . وهذا جعفر لم يبلغ احد مبلغه من الدالة والنفوذ حتى صار الرشيد يدعوه اخاه ويدعو والده يحيي اباه فلما شك فيه اصبحت حياته في خطر . فظل اسماعيل ساكتاً يفكر وهو سائر بجانب الرشيد ولا يدري الى اين يسير به فانتبه فاذا هو بباب المدينة فرأى مسوغاً لتغيير الحديث فقال « ارانا قد عدنا الى بغداد .. فاين الصيد ؟ »

قال « لم اخرج للصيد الاّ حيلة لمرافقتك وقد اوصيت من يقوم به عني . ولكنني لم اسمع منك غير ما يقوله سائر الناس ممن يجالسوننا ويصانعوننا وانت شيخ بني هاشم وحكيمهم فلا اقبل منك بهذه المصانعة .. »

فقال « ارى امير المؤمنين حسن الظن بي وانا بحمد الله عند حسن ظنه ولكنني لم اسمع منه سوءاً الاّ صريحاً فاجيبه عليه ... »

الفصل الحادي والخمسون

التصريح

وكان الرشيد لما دخل المدينة قدعاد الموكب الى المسير بين يديه فقال « نحن داخلون بغداد وعما قليل ندخل قصر الخلد فنخلو ونتحادث »

فاوجس اسماعيل خيفة من عاقبة تلك المحادثة ولكنه تجلد وسكت حتى اذا دخلا القصر ترجلا وسارا الى غرفة خاصة فجلس الرشيد على السرير ودعا اسماعيل الى جانبه فجلس وهو مطرق ينتظر ما يقوله الخليفة فاذا هو يقول « دع المدافعة وقل ما في نفسك أَلا ترى هؤلاء الاعاجم قد تطاولوا علينا واستأثروا بالدولة واموالها دوننا ؟ »

قال « بلى . ولكنهم فعلوا ذلك بارادة امير المؤمنين . ولو افهمهم انه يريد غير ذلك لأتمروا بامره »

قال « وهل امرتهم ان يستأثروا بكل شيء دوني ؟ »

فتوقف اسماعيل عن الجواب وهو يتردد بين ان يصرح له بما يعتقدهُ من فضل البرامكة

على الدولة او يسايره في اقواله فغلب عليه استقلال رأيه فقال « اما وقد اكرمني امير المؤمنين بحسن ظنه فلا ينبغي لي ان اكتمهُ شيئاً يجول في خاطري — ان البرامكة عبيد مولانا ومواليه ولا خلاف في ذلك ولكن امير المؤمنين اعلم الناس بما كان من بلائهم في مصلحة هـذه الدولة من عهد جدهم خالد في خدمة دولته وقد عرف هذا الملك النبيل فضل خالد فقدّمهُ كما قدم امير المؤمنين ابنـهُ يحيى وحفيده جعفر .. ولا يخفى على الرشيد ما لهؤلاء من الاثر الصالح في خدمة دولتـهِ وتنظيم ادارتها وسائر شؤونها غير ما لهم من المآثر في رفع منار العلم واسبابه بتقديم الفلاسفة واستقدام الاطباء من الهند وفارس الى بغداد وقد بنوا المارستان وادخلوا الكاغد وعمروا بغداد وعنوا بنقل الكتب — وهم طبعاً لم يفعلوا ذلك الاّ والرشيد راض عنهُ ... واخشى ان اطيل الكلام .. »

وكان اسماعيل يتكلم وهو يراقب ما يبـدو من الرشيد وكانهُ قرأ في وجهه قرب استيائه من ذلك الثناء وانه لا يرضيه الاّ ما يعضد عزمه على الفتك بهم فاستدرك قائلاً « ولا انكر انهم من الجهة الأُخرى استأثروا بالاموال .. والانسان مطبوع على الطمع ولكنني علمت عن ثقة ان الاموال التي تجتمع من غلتهم في كل عام مهما كثرت فانهم يفرقون معظمها على اهل الفاقة »

فضحك الرشيد اغتصاباً وهزّ رأسهُ وقال « لا يفعلون ذلك على سبيل الاحسان ولكنهم يبتاعون الاحزاب ولا يلبثون ان يجندوا علينا الجند .. » قال ذلك وتنهد فابتدره اسماعيل قائلاً « معاذ الله .. »

فقطع الرشيد كلامهُ وقال وهو مقبلٌ عليهِ « كيف لا ووزيرنا الذي دعوته اخي يمالئ العلويين علينا ؟ »

فاجفل اسماعيل وقال « يمالئهم ؟ »

قال « نعم انهُ اطلق يحيى بن عبد الله »

فقال « يحيى العلوي ؟ »

قال « نعم أطلقه بدون اذني ولا شك في ذلك وقد اعترف هو نفسه بهِ »

فلم يرَ اسماعيل باباً للدفاع وتحقق ان الرشيد غير راجع عن غضبه بعد ذلك لعلمه بما في نفسه على الشيعة العلوية فقال « انها جسارة وتطاول . وهل تظنه فعـل ذلك عن عمدٍ وقصد سيءٍ ؟ »

قال « مهما يكن من قصده فان فعلهُ هذا لا استطيع الصبر عليه .. »

فقال « وما الحيلة يامولاي ؟ »

قال « الحيلة ؟ .. قد حلّ قتلهُ والسلام »

فاكبر اسماعيل تسرعهُ الى هذا التصريح وقال « اذا قتل امير المؤمنين عبيدهُ فانهُ مالك الرقاب يفعل ما يشاء ... ولكنه اعلم مني بما يترتب على هذا الامر ... وقد قال لي الساعة ان البرامكة يتناعون الاحزاب بالاموال .. »

فاطرق الرشيد وسكت اسماعيل وكلاهما يعمل فكرتهُ ثم رفع الرشيد بصره وقال « فما الذي يراه ابن عمنا ؟ »

قال « ألا ترى ان تفرق بينه وبين احزابه بعملٍ توليه اياه خارج بغداد ؟ »

فابرقت اسرة الرشيد عند سماعه رأيه وقال « ذلك ماعزمت عليهِ وسأُوليه خراسان . فاذا بعد عن بغداد فكرنا في شأنهِ ... »

فسرَّ اسماعيل بقبول الرشيد ذلك وقال « نعم الرأي هذا »

قال « انهُ رأي سديد وبعد ذلك ننظر في امره » ثم توجه نحوة بكليتهِ وقال وهو يتفرس فيه « واعلم يا اسماعيل اني لم اطلعك على سرّي هذا الاّ لعظم ثقتي بك ... واني آمرك ان تكتمهُ فانهُ ماعلم بهِ احد غيرك ومتى بلغهم شيءٌ مما جرى علمت انهُ ما افشاهُ الاّ انت . أفهمت ؟ »

فبهت اسماعيل من ذلك التهديد . ولما سمع الرشيد يخاطبه بتلك اللهجة تحقق ان مشيري الملوك اذا لم يسايروهم ويداهنوهم كانت حياتهم في خطر فقال « اعوذ بالله ان اقدم على افشاء سرّك يا امير المؤمنين »

ثم تزحزح الرشيد من مجلسه فعلم اسماعيل انهُ يريد الانصراف فوقف واستاذن فاذن لهُ فخرج وقد عظم عليهِ ما سمعهُ واصبح خائفاً على الدولة من تغير الرشيد وانطلق الى منزلهِ وهو يصبر نفسهُ ليرى هل يعمل الرشيد بما قالهُ

الفصل الثاني والخمسون

اسماعيل وجعفر

وفي صباح اليوم التالي علم ان الرشيد بعث الى جعفر فجاءه فاجلسهُ الى يمينه واكرمهُ غاية الاكرام وبشَّ في وجهه وحادثهُ ساعة واهداه هدايا كثيرة في جملتها غلام خادم من خاصة خدمه وانبلهم واوضحهم وجهاً واكملهم ظرفاً كاتباً حاسباً لبيباً وان جعفر سرَّ سروراً كاملاً بذلك . فاعتجب اسماعيل من اقتدار الرشيد على كتمان ما في نفسهِ مع شدة وطاته وسرعة غضبه . وربما تبادر الى ذهنه ان الرشيد قد صفح وذهب ما يحفظه على جعفر لولا ما علمه من اطلاق العلوي والرشيد يكره تلك الشيعة ويخافها على ملكه

ثم علم اسماعيل بعد يومين ان الرشيد خلع على وزيره وعقد لهُ لواءً على خراسان فظنهُ صفا لهُ فتمنى ان تزول الضغائن بهذا الطريق وتعود المياه الى مجاريها ولا سيما بعد ان علم برضاء جعفر عن هذه الولاية واسراعه في ارسال اعوانه ورجاله يتقدمونه الى النهروان خارج بغداد — فانهم ذهبوا وضربوا مضاربهم هناك واخذوا يتاهبون للرحيل الى خراسان والبلد بعيد الشقة يحتاج الى الاحمال والاثقال . فلما تحقق اسماعيل قرب سفر جعفر راى ان يزوره ويودعه ويسعى في ازالة ما ربما بقي في نفس الرشيد بوسيلة خطرت لهُ

واما جعفر فلم يكن ذلك كلَّه ليذهب ما في قلبهِ على الرشيد ولكنهُ راى في سفرهِ الى خراسان باباً للفرج وعزم على مخابرة العباسة بشان الفرار معهُ . ففي اليوم الذي احتفلوا بالخلع عليهِ عاد الى قصره في الشماسية وهو من جملة قصور البرامكة في ذلك الحي وكان لهم عدة قصور هناك اشهرها قصر يحيى بن خالد عند باب الشماسية وقصر لهُ آخر في باب البردان [1] وكان جعفر في ذلك العام مقيماً في قصره بباب الشماسية . ولا نقلُّ قصوره فخامة عن قصور الرشيد يكفي ما تقدم من وصفها في القصيدة التي دستها ام جعفر الى زوجها وفيها قول الشاعر في وصف تلك الدار :

وقد بنى الدار التي ما بنى الـ ـفرس لها مثلاً ولا الهندُ
الدرُّ والياقوت حصباؤُها وتربها العنبر والندُّ

(١) الاغاني ٧ ج ٥

فاعتبر ما يكون من فخامة هذا القصر وامثاله من قصور البرامكة مما يضيق المقام عن وصفه ووصف ما فيه من الرياش الفاخر وقد وصفنا قصر الخلد وقصر الامين ودار القرار (قصر زبيدة) فقس عليها

فعاد جعفر الى قصره المشار اليه وهو لا يصدّق انهُ ولي خراسان وان كان الرشيد قد وعده بها غير مرة . فتبادر الى ذهنه ان الخليفة ليس في قلبه غلٌّ عليه او انه ولاّه خراسان خوفاً منهُ على دولته اذا ظلّ في بغداد فاستقوى نفسه واستضعف الرشيد ونسي خوفهُ منهُ — فلما عاد الى القصر امر قهرمانه ان يهتم بالرحيل ويوصي قيم الجواري والعبيد وكاتبه ان يتهيأوا في الغد . ودخل القصر وكان قد اعجب بالخادم الذي اهداه الرشيد اليه لادبه وفرط جماله فاصطحبه الى قاعة رياشها سماويُّ اللون لاعتقاده ان هذا اللون يشرح الصدر على مذهب القدماء ودخل الغلام لمؤانسته . ثم جاءه الحاجب يقول « ان اسماعيل بن يحيى بالباب »

فنهض جعفر لاستقباله وادخله حتى اجلسه في صدر مجلسه لانهُ كان يجلُّ مقامه ويثق به لاعتقاده صفاء نيته وصدق لهجته ولكنهُ لحظ في اثناء حديثه انهُ يكتم امراً يريد اطلاعهُ عليه فصرف من في مجلسه من الناس ولم يبق في الغرفة سواهما . واقبل جعفر بكليته ليسمع حديثه فقال اسماعيل « يا سيدي انت عازمٌ على الخروج الى بلدة كثيرة الخير واسعة الاقطار عظيمة المملكة فلو صيرت بعض ضياعك لولد امير المؤمنين لكان احظى لمنزلتك عنده »

فلما سمع جعفر قولهُ تبادر الى ظنه ان الرشيد اوقدهُ للتوسط في ذلك فزاد استخفافاً به واستقواءً لنفسه وغلب عليه الحقد لما يقاسيه من تصرفه معهُ وظن نفسه نجا من قبضته بانتقاله الى خراسان قبل ان ينكشف امر العباسة . وكان حسن الظن باسماعيل وكثيراً ما ذكر فضل بيته على الدولة بين يديه واسماعيل يوافقهُ لان هذا هو اعتقادهُ فلم يمتنع عند سماعه ذلك عن التصريح بما في خاطره من هذا القبيل فقال « والله يا اسماعيل ما اكل الخبز ابن عمك الا بفضلي ولاقامت هذه الدولة الا بنا . اما كفى اني تركته لا يهتمُّ بشيء من امر نفسه وولده وحاشيته ورعيته وقد ملأت بيوت امواله اموالاً ولا زلت الامور الجليلة ادبرها حتى يمد عينه الى ما اذخرته واخترته لولدي وعقبي من بعدي ودخله حسد بني هاشم وبغيهم ودبَّ فيه الطمع والله لئن سالني شيئاً من ذلك ليكونن وبالاً عليه سريعاً »

فندم اسماعيل على مجيئه اليهِ وخاف ان يترتب على حديثه امر يبلغ الرشيد فيعدُّهُ منهُ افشاءً فغيَّر الحديث حتى اغتنم فرصة للاستئذان وخرج

الفصل الثالث والخمسون

العباسة وارجوان

اما جعفر فعاد الى صوابهِ بعد ذهاب اسماعيل فرأى انهُ اخطأ بما بدر منه طعناً في بني هاشم واسماعيل منهم . فسبق الى وهمه انهُ ربما باح للرشيد بما سمعهُ منه فلا يبقى سبيل للمصالحة فزاد تمكناً من عزمهِ على الفرار بالعباسة والولدين وصفق فجاءهُ خادمهُ الخصوصي حمدان وكان حسن الاعتماد عليهِ فاسرَّ اليهِ عزمهُ وقال لهُ «نحن غداً مسافرون الى معسكرنا في النهروان فاذهب الى عتبة وقل لها تخبر مولاتها العباسة ان تكون على اهبة الرحيل ريثما ابعث اليها من يحملها اليَّ . . أفهمت ؟»

قال «نعم يا مولاي فهمت . . واين قضيت هذا العمر . . ؟»

وخرج حمدان مسرعاً في هذه المهمة

وكانت العباسة في اثناء هذه الحوادث على اثر اجتماعها الاخير بجعفر وما سمعته من وعده بالذهاب الى خراسان وذهابها معهُ لاتنفك مفكرة في هذه الامنية وهي لاتصدق انها تظفر بها لانها كانت تفضل الاقامة مع زوجها وولديها سالمين آمنين في كوخ حقير على الاقامة في تلك القصور الفخيمة تحت الخطر وبين الرقباء . ولا سيما بعد ان اطلع ابو العتاهية على سرها ورأى ولديها بعينهِ وحدث ما حدث من اساءته . فكانت لايهدأ لها بال خوفاً من بلوغ ذلك الى اخيها والعياذ بالله وكانت لاترى اثنين يتسارَّان الا ظنتهما يتباحثان بشأنها ولا رأت كوكبة من الفرسان مارة بقرب قصرها الاَّ حسبتها آتية للقبض عليها . ولم تكن تتعزى بشيءٍ مثل اجتماعها بجاريتها عتبة وكانت تبيح لها بمخاوفها وهذه تطمئنها وتمنيها حتى علمت في ذلك اليوم ان الرشيد عقد لجعفر على خراسان ورأت الناس يتسابقون في الطرق لحضور الاحتفال بذلك فكادت تطير من الفرح ومكثت تتوقع ان ياتيها رسول جعفر حالاً فمضت عدة ساعات حتى علمت بخروج اعوان جعفر ورجاله الى

النهروان ولم ياتها الرسول فخطر لها ان يكون حبيبها قد شغل عنها وشكّت في صدقه — والمحب كثير الشكوك — وهمت بالشكوى الى عتبة وكانت جالسة معها على الشرفة التي انتظرت فيها جعفر منذ ايام . واذا بحمدان مقبل بلباس بعض خدم قصرها فلما رأته قادماً ارسلت عتبة لاستقباله وتلقي الرسالة منه فلما لقيها قصّ عليها المهمة التي أتى بها والحّ عليها ان تبلغ مولاتها « ان تكون على اهبة السفر بما خف حمله وان تتنكر بلباس بعض الجواري حتى اذا جاء الرسول وهو انا فلا يحتاج في اخراجها الى اكثر من كلمة » فلما اخبرتها عتبة بذلك بكت من شدة الفرح وامرتها باستدعاء حمدان اليها لتسمع تلك البشرى من فيه فدخل ووقف متادباً فقالت له « كيف فارقت سيدك ؟ »

قال « هو في خير يسلم عليك يا مولاتي »

قالت « ومتى تظننا نخرج من هنا »

قال « ربما في صباح الغد . . »

فالتفتت الى عتبة لفتة فهمت انها تذكرها بالولدين الحسن والحسين فقالت « اذهما في مامن مع الخادمين كما تعلمين ومتى خرجنا من بغداد بعثنا من يستقدمهما من الحجاز او حيث يكونان وتتخلصين من هذه المخاوف »

فتنهدت العباسة تنهداً عميقاً ولكن البشر كان يتجلى في وجهها فصرفت حمدان ودخلت الى غرفتها واخذت عتبة في الاستعداد للسفر وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل والعباسة منفردة في تلك الغرفة فما لبثت ان اصابها ردُّ الفعل فانقبضت نفسها وغلبت عليها عواطفها اذ تصورت نفسها هاربة من قصرها ومن بين يدي اخيها وستترك ذلك القصر بما فيه من اسباب السعادة وقد تعودته وألفت قاعاته وحدائقه واثاثه وخدمه وجواريه وكل شيء فيه . نعم انها تفضل الاقامة مع حبيبها في عشة على الاقامة وحدها في قصر ولكن الانسان ابن العادة اذا الف شيئاً شق عليه فراقه فكيف بها وقد ربيت في ذلك القصر ولم تخرج منه الا نادراً . على انها كانت اذا تصورت ما ترجوه من الاجتماع بجعفر وولديها هدأ روعها . ثم يعترضها ماتخافه من نقمة اخيها اذا علم بفرارها على تلك الصورة وربما حمله غضبه على تجريد الجيوش في طلبها . فكادت هذه الهواجس تثني عزمها وهي تغالب عواطفها وتمنى نفسها بالنجاة — وهي في تلك الخواطر تذكرت خادماً لها كان اميناً على سرّها في اثناء مخاوفها حتى جعلته رئيس الخدم في قصرها واسمه « ارجوان » وكانت تستانس به في ابان اضطرابها وقلقها فرأت ان تصطحبه في فرارها فنادت عتبة وكانت منهمكة في اعداد

المعدات فاتت والغبار يعلوها والانهماك ظاهر فيها فقالت لها العباسة « اين ارجوان ؟ »

قالت « هو هنا في القصر هل ادعوه ؟ »

قالت « ادعيه فاني أرى ان نصطحبهُ »

فخرجت ثم عادت ومعها ارجوان وكان اسود اللون اصلهُ من بلاد البربر في شمالي افريقيا وقد ربي في قصر المنصور وكان مقرباً منهُ لان ام المنصور بربرية . وكان طويل القامة واكثر طوله في ساقيه على طبيعة الخصيان . وهو يومئذ في نحو الخمسين من عمره ولولا قلة الشعر في وجهه من عواقب الخصي لظهر شيبهُ وبانت كهولتهُ . ولكن هؤلاء الخصيان قلماً يعرف مقدار عمرهم بمجرد النظر اليهم . وكان ارجوان قد ربى العباسة منذ طفوليتها واخلص الخدمة لها وهي تعوّدته وأحسنت الثقة به . فلما استقدمتهُ في ذلك اليوم وقف بين يديها فنظرت اليه والدمع في عينيها فلما رآها تبكي بكى معها وقال بصوته المؤنث وغنته الاعجمية « ما الذي تامرين بهِ يا مولاتي »

قالت « نحن مسافرون . . واحب ان تخرج معنا »

قال « اني عبدك وطوع ارادتك »

قالت « اتدري الى اين ؟ »

قال « الى حيثما تشائين ولو الى القتل »

قالت « بورك فيك يا ارجوان فاشتغل مع عتبة في اعداد ما يلزم وهي تخبرك الخبر »

قال « سمعاً وطاعة . . » وخرج مع عتبة فقصت عليهِ ما هم فيهِ وأخذ في التاهب فلنتركهم في ذلك ولنعد الى الرشيد

الفصل الرابع والخمسون

الرشيد وزبيدة

كان الرشيد اكثر كتماناً لسرهِ مما ظهر لاسماعيل . فمع شدة ثقته بهِ لم يطلعهُ على كل ما ينويه لان غضبهُ لاطلاق ذلك العلوي ما زال راسخاً في نفسه وقد ولاه خراسان وعقد لهُ عليها ليجربه ويستطلع كنه قلبه فاهداه ذلك الخادم الجميل جاسوساً ينقل اليه اقواله وكان الخادم المشار اليه واقفاً ساعة زيارة اسماعيل بحيث يسمع ما دار بينه وبين جعفر فكتب

بذلك الى الرشيد حالاً . فلما وصل كتابه اليه تحقق سوء نية جعفر فعاد الى تخوفه . وكان جالساً على سريره فلما قرأ الكتاب هب من مقعده وقد عظم الامر عليه ورأى الفرصة ضيقة لاتاذن باعمال الفكرة . وخيل لهُ ان وزيره اذا خرج من بغداد افلت من بين يديه واهل خراسان طوع ارادته فيسهل العصيان عليه . فلما تصور ذلك خفق قلبه واشكل عليه امره فاخذ يخطر في الغرفة ذهاباً وايابًا كانه اصيب بجنة واحسَّ بحاجته الى من يباحثهُ بذلك ولم يعد يرى ان يخاطب اسماعيل بعد الذي علمه من حديثه مع جعفر وصداقته لهُ وان كان لايستغشه . فانهُ انما يلتمس المداولة مع من يجاريه في عزمه و يصوب رايه ولا يدافعه كما فعل اسماعيل

قضى ساعة في التردد حتى كاد يتقد غيظاً فخطر له ان يشاور امرأته زبيدة في الامر على غير المألوف من شأن المرأة في ذلك العهد . ولكن الرشيد كان يحب زبيدة و يحترمها و يتبرك بمشورتها و يعلم بما بينها و بين جعفر من العداوة القديمة . فلما خطر له ذلك أحسَّ بارتياح عظيم وكان الوقت نحو الغروب فدعا مسروراً وأمره ان يهيئ له برذوناً ليركب عليه خفية الى قصرها (دار القرار) ولا يسير معه احد سواه

فاعدَّ له البرذون فركبه وقد تلثم ومشى مسرور في ركابه فلما اقبل على الدار لم يعرفه الحرس ولكنهم عرفوا مسروراً ففتحوا له فدخلا الحديقة ثم ترجل الرشيد وامر مسروراً ان يسبقه الى زبيدة فيخبرها بقدومه . فلما اخبرها ادركت انه انما جاءها في تلك الساعة لامرٍ هام فخرجت لاستقباله في القاعة التي استقبلت فيها ابنها محمداً منذ ايام وقد اضيئت فيها الشموع فزادتها بهاءً . ولبست هي افخر ثيابها وتطيبت واستقبلته احسن استقبال وعليها العقود من الجوهر وفي رأسها الدبابيس المرصعة وفي صدرها الحلى المنمقة على اشكال بديعة حتى خفافها فقد كانت مرصعة كما علمت واقبلت ترحب به وتلاطفهُ . اما هو فمع شدة غضبه لم يتمالك عند رؤيتها عن الابتسام وجلس على السرير وامسك بيدها واجلسها الى جانبه وهو يتشاغل بالنظر الى ما عليها من انواع الحلى وقد زادتها انوار الشموع لمعاناً ورونقاً . اما هي فلحظت ما يستتر تحت ذلك الابتسام من الغيظ ولكنها تجاهلت وعادت الى الترحاب فقالت « مرحباً بامير المؤمنين لقد آنسني بلقياه وشرفني بقدومه فهل يأمر بطعام او شراب ؟ »

فلم يسعه الاَّ ان قال « لم آتك للطعام يا ابنة العم . . »

فقالت وقد ابرقت عيناها تفرساً واستطلاعاً « لخيرٍ جئت ان شاء الله »

فمد يده الى جيبه واستخرج الكتاب الذي جاءه من جاسوسه ودفعه اليها ولم يتكلم

فتناولته وقرأته وهو يراقب ما يبدو منها فلما فرغت من قراءته اعادته اليه وهي تضحك فقال لها « اراك تضحكين كانك لم تقرإي الكتاب .. »

قالت « بلى قرأته .. »

قال « لا اظنك تدركين قوته الاَّ اذا اخبرتك بما ارتكبه هذا الفارسي »

فلما سمعت قوله ظنته اطلع على خبر العباسة فتجاهلت وقالت « وماذا ارتكب ؟ »

قال « انه اطلق الرجل العلوي الذي لم نقبض عليه الاَّ بعد شق الانفس ولم نصدق اننا حبسناهُ وامناً من شرّه حتى عاد فاطلقه . وانت ترين من هذا الكتاب ان هذا العبد قد شمخ بانفه حتى اصبح يهددنا ... فمن يضمن انه اذا صار الى خراسان لا تحدثه نفسه بالتمرد فيعصانا وتخرج خراسان من ايدينا .. فاشيري عليَّ اني اتبرك بمشورتك »

فضحكت زبيدة ضحكة يمازجها التهكم والاستخفاف ولم يكن احد من اهل الخافقين يجسر على ذلك بين يدي الرشيد سواها لانهُ كان يحبها ويحترم رأيها ولها عليه دالة القرابة وسلطان الحب فكيف اذا اضيف اليهما نفوذ صاحب الحق لانها كثيرًا ما نصحت له ان يعدل عن الاستسلام لجعفر واهله وهو لا يطيعها بل كان يحمل ذلك منها محمل الانتقام منهم . فلما جاءها الآن يشكو عواقب استسلامه نظرت اليه نظر الظافر وقالت « مثلك يا امير المؤمنين مع البرامكة مثل رجل سكران غريق في بحر عميق فان كنت قد صحوت من سكرتك وتخلصت من غرقتك اخبرتك بما هو اعظم من ذلك كثيرًا وان كنت لا تزال على الحالة الاولى تركتك »

فاثرت لهجتها هذه في الرشيد تأثيرًا شديدًا ولولا حرمتها عنده ما تمالك عن الفتك بها فقال لها « قد كان ما كان ... فقولي اي شيءٍ اعظم من هذا ؟ »

قالت « ان الامر الذي اشير اليه قد اخفاه عنك وزيرك وهو اصعب مما انت فيه واقبح واشنع »

فغضب الرشيد وقال « ويحك وما هو ؟ قولي .. »

فاعرضت بوجهها عنه وقالت « اجلُّ نفسي عن ان اخاطبك به ولكن تحضر ارجوان الخادم وتشدد عليه وتوهنه ضرباً فانه يعرفك الخبر »

فكاد الرشيد يتقد غيظاً ولم يتمالك عن النهوض سريعاً وصاح « ارجوان ؟ خادم العباسة اختي ؟ »

قالت « نعم خادم العباسة اختك »

فصاح « اين هو .. ؟ ادعيه »

فصفقت فجاءها احد الشاكرية الواقفين ببابها فقالت « اذهب حالاً وادع لنا ارجوان الخادم من قصر العباسة »

فاجاب مطيعاً وخرج وظل الرشيد في انتظاره كأنهُ على مقالي الجمر وزبيدة جالسة بين يديه ولم يفه احدهما بكلمة

الفصل الخامس والخمسون

كشف السر

وكان ارجوان مشتغلاً بالتأهب للسفر كما علمت وقد اطلع على سرّ مولاته وسبب سفرها وهو حريص على راحتها مستهلك في سبيل مرضاتها — فان اولئك الخصيان اذا طابت سرائرهم كانوا نعمة على مواليهم لان الرجل منهم اذا اخلص النية نسي نفسه وانقطع لخدمة مولاه بكل جوارحه . ولعل السبب في ذلك انهم لا يتزوجون فلا يعلقون آمالهم بولد او ابنة فتنصرف عواطفهم الى مواليهم يسرُّون بسرورهم ويحزنون لحزنهم لا يبالون بما يقاسونه في سبيل ذلك ولا يهمهم كان مولاهم على حقّ في ما يعملهُ او باطل — وكان ارجوان من اطيب الناس قلباً واكثرهم تعلقاً بمخدومه ولا سيما العباسة فانها نظراً لما كانت تتمتع به على يده من اسباب الراحة بما يسهله لها من دخول جعفر الى قصرها وخروجه بلا معارض كانت تبالغ في اكرامه وتتلطف بمعاملته وهو يزداد تفانياً في خدمتها

فكان ارجوان في ذلك المساء يشتغل في ما قدمناه واذا بالخدم يدعونه فخرج فرأى شاكرياً ينتظره بالباب فعرف انه رسول من زبيدة فقال « ما وراءك »

قال « اجب مولاتنا أم جعفر »

قال « الساعة ؟ »

قال « نعم في هذه الدقيقة »

قال « تمهل ريثما اخبر مولاتي بذلك »

قال « لا حاجة الى اخبارها فانها كلمة تقولها مولاتنا لك ثم تعود »

فصدقه وخرج والعباسة لا تعلم

اما الرشيد فكان قد ملَّ الجلوس في تلك القاعة ساكتاً فنهض وتمشَّى بدهليز الدار وهو يرتعد من شدة الغضب ويقول في نفسه « ماذا عسى ان يكون ذلك الامر العظيم ؟ » على ان ترفع زبيدة عن التصريح به واحالة ذلك الى ارجوان الخصي نبهه الى انها فضيحة تمسُّ العرض ...

ثم سمع حركة في الحديقة فعلم ان الشاكري عاد فتقدم حتى رجع الى القاعة وكانت ام جعفر قد خرجت منها لئلاَّ تسمع ما يدور بين الرشيد والخصي

فدخل الشاكري وقال « ان ارجوان بالباب يا امير المؤمنين »

فقال « هاتوا السيف والنطع »

فاتاه الشاكري بهما فبسط النطع في الدهليز خارج القاعة ووضع السيف بجانبه . ثم صاح الرشيد « اين ارجوان .. ؟ ادخله »

ولما سمع ارجوان صوت الرشيد بهذه اللهجة اسقط بيده فدخل وركبتاه تصطكان من الخوف ووقف متأدباً ولما رأى النطع والسيف لم يعد يستطيع الوقوف من شدة الارتعاش ولم يتجاسر ان يرفع بصره عن الارض فاشار الرشيد الى مسرور بابعاد الخدم والشاكرية واغلاق الابواب حتى لا يعلم احد بما يدور في هذا الشأن ثم نظر الى ارجوان قائلاً « برئتُ من المنصور ان لم تصدقني في حديث جعفر لا قتلنك »

فعلم انه يسأله عن امره مع العباسة فظل ساكتاً ولو اراد التكلم لم يطعه لسانه من شدة الخوف فصاح الرشيد « ما بالك ... تكلم والا فهذا النطع والسيف .. » ثم صاح « مسرور ! »

فحضر ذلك الرجل الغليظ القلب باسرع من لمح البصر فاشار الرشيد اليه فتناول السيف وانتضاه ووقف بجانب النطع ينتظر امر الخليفة فلما رأى ارجوان ذلك جثا عند قدمي الرشيد واخذ يقبلهما ويبكي فتلطف الرشيد في خطابه فقال له بصوت هادىء « قل الصدق ولا تخف .. ما الذي تعلمه من امر جعفر الوزير واهل ذلك القصر ؟ قل .. حالاً »

فقال وصوته يختنق ولسانه يتلعثم من الخوف والبكاء « الأمان يا امير المؤمنين ! »

قال « نعم لك الامان ان تكلمت الصدق وان لم تتكلم فنحن مطلعون على كل شيء فنقتلك بهذا السيف »

فحدثته نفسه ان يحافظ على سرّ مولاته تفانياً في سبيل مصلحتها ولكن الضعف البشري غلب عليه وهو يغلب على كبار الرجال في مثل هذه الحال فكيف بعبد خصي مهما بلغ من اخلاصه

على انه انتحل لنفسه عذرًا على اقراره — وذلك ان الرشيد لم يسالهُ الاّ وهو عالم بكل شيءٍ فاذا انكر قتل ولم تنتفع مولاته بقتله اما اذا اعترف وظل حيًّا فقد يستطيع انقاذها اوخدمتها في شيءٍ — مرت تلك الخواطر في ذهنه بلحظة ولما عمد الى الاقرار احسَّ بوخز في ضميرهِ لئلاَّ يقع من اقراره ضرر على العباسة فاطرق وتشاغل ببلع ريقه ولا ريق في فمه لما اصابهُ من الجفاف لشدة خوفه وهول موقفه ولحظ الرشيد تردده فصاح فيهِ « قل .. او افتلك »

فقال وصوته يتلجلج « ان جعفر ... قد تزوج اختك العباسة ... منذ سبع سنين وولدت منه ثلاثة بنين .... احدهم ... له ست سنين والآخر ... له خمس سنين والثالث ... عاش سنتين ومات قريباً ... والاثنان ... الباقيان ... قد انفذهما الى مدينة الرسول ... وهي حا ... مل ... بالرابع . » واختنق صوته

الفصل السادس والخمسون

الانتقام

وكان الرشيد يسمع كلامه والشرر يكاد يتطاير من عينيه فلما فرغ ارجوان من كلامه قال له الرشيد « وكيف يجري ذلك وانت عالم به ولم تخبرني ؟ »

فتشدد ارجوان عند هذا السؤال لان جوابه هين عليه وقال « انت اذنت لوزيرك بالدخول على اهل بيتك وامرتني ان لا امنعه في اي وقت شاء ليلاً او نهارًا »

فقال وهو يحرق اسنانه « امرتك ان لا تحجبه فحين حدثت هذه الحادثة لم لا اخبرتني اول مرة »[1] ثم التفت الى مسرور وقال « اضرب عقنه »

فامسكه مسرور بيدٍ من حديد وجرَّه الى النطع بعنف كأن له عليه ثارًا دمويًّا فسقط ارجوان وهو يصيح « الامان الامان »

فلم يمهله مسرور ان يقول الثالثة لئلاَّ يجيب الرشيد طلبه فيعفو عنه وهو سفاكٌ غليظ القلب يلذ لهُ منظر الدماء ويفتخر بعدد الذين قتلهم وبسرعة فتكهِ بهم فابتدر ارجوان

(١) اعلام الناس ١١٤

بضربة سيف على عنقه فازاح رأسه عن كتفيه

اما الرشيد فحول وجهه وسأل عن زبيدة فدلوه على غرفتها فدخل عليها وقد اخذ الغضب منه مأخذاً عظيماً وكانت متربعة على فراشها وقد اطرقت تفكر . فلما رأت الرشيد داخلاً تحفزت للقيام ولم تقم . اما هو فلم يلتفت الى شيءٍ من ذلك لما هو فيه من الحنق وقال وصوته يرتجف ولحيته ترقص وقدامتقع لونه « أرأيتِ ما عاملني به جعفر .. ؟ وما ارتكب من هتك ستري ونكس رأسي وفضحني بين العرب والعجم ؟ »

فقالت بصوت هادئٍ وجأش رابط « هذه شهوتك وارادتك .. عمدت الى شاب جميل الوجه حسن الثياب طيب الرائحة جبار في نفسه ادخلته على ابنة خليفة من خلفاء الله وهي احسن منهُ وجهاً وانظف منهُ ثوباً واطيب رائحة لكنها لم ترَ رجلاً غيره ... فهذا جزاء من جمع بين النار والحطب »

فقال « ألا تزالين تعنفينني .. والله سأمحو هذا العار عني بالدماء »

فسرَّها تهديده واحبت ان تمكنهُ من عزمهِ انتقاماً من جعفر فقالت « سنرى ما يكون .. واخاف انك اذا رأيت وزيرك غيرت عزمك اذ يغلب عليك حنو الاخوة فتعفو عنهُ .. » قالت ذلك وهي تتشاغل بتثنية هداب كمها المزركش بالقصب وبان الغضب والعتب في عينيها

فاحس الرشيد بما ينطوي تحت تلك العبارة من القوارص وشعر انهُ صاحب الذنب وحدهُ لانه كثيرا ما سمع نصحها لهُ في هذا الشأن ولم يعرها التفاتاً ولكنهُ استكبر تعريضها بذلك في تلك الساعة ولولا احترامهُ لها لم يصبر على توبيخها . ومع ذلك فلم يتمالك عن تحريق اسنانه غيظاً وتجلد وتنهد ونظر اليها وقال « كفى يا ابنة العم ... فما علينا الا كتمان هذا الامر ما استطعنا الى كتمانه سبيلاً .. واي رجل علمتُ انهُ اطلع عليهِ قتلتهُ ... الاَّ انت ... وقد قتلت ارجوان بعد ان امنته لاني لم اطق ان أرى رجلاً عالماً بهذه الخيانة التي لطختني بها اختي ووزيري الذي اسميه اخي ... » ثم انتبه لنفسه وندم على تصريحه بما في خاطره على جعفر ولا سيما بين يدي زبيدة وهي أشدُّ اعدائهِ نقمة عليهِ . فتماسك وحاول الابتسام والتجلد وقال « ولكن الانسان موضع الخطاء والنسيان ... »

فادركت زبيدة ما يتضارب في خاطره من العواطف واحسَّت انهُ يهمُّ بالخروج فوقفت له وحاولت اجلاسهُ فامتنع وودعها وهو لا ينظر اليها اما خجلاً او حنقاً . فامسكت بيدهِ واستوقفته فوقف وهو لا يلتفت اليها فقالت « تمهَّل .. ألا تحب ان تعرف اين

الغلامان ؟ .. »

فاجفل وقال « الغلامان ؟ .. علمت انهما في المدينة »

قالت « كلاَّ بل هما في مكان قريب انا اعرفهُ وسيحضران متى شئت »

فقال « في بغداد ؟ »

قالت « نعم »

فتحوَّل عنها وصاح وهو لا يزال في القاعة « مسرور ! »

فحضر باسرع من البرق فقال لهُ وزبيدة واقفة « هل رأيت شيئاً الليلة ؟ »

قال « كلاَّ يامولاي لاني اصم اعمى » وهي علامة تحريضه على الكتمان . ثم امره أن يأتيه بالبرذون وسار في اثره فاتاه بهِ فركبهُ وساقهُ نحو قصر الخلد ومسرور يعدو في ركابه وقد مضى هزيع من الليل . فقضى الطريق وهو غارق في بحار الهواجس وقد نسي نفسه لما جاش في خاطره من امر العباسة . واعمل فكرتهُ في ما دهمهُ من الامر العظيم فرأى ان ملكه وسطوته وامواله او اي شيءٍ مما حازه من نعيم الدنيا لا يخفف عنهُ وطأة ذلك المصاب . وحدثته نفسهُ ان يستقدم اخته في تلك الساعة او يذهب اليها و يفتك بها ولكنهُ خاف الفضيحة فجعل يتصبر الى الغد لعلهُ يهتدي الى سبيل آخر

الفصل السابع والخمسون

التردد

اما العباسة فقد كانت في غفلة عن كل ذلك تهتمُّ في اعداد معدات السفر وعتبة تبذل جهدها في طمانتها وتطييب خاطرها وتمنيها بما ترجوه لها من السعادة متى خرجت من بغداد واقامت في خراسان اذ يكون زوجها صاحب السلطة فيها . وكانت العباسة اذا اعملت فكرتها واستخدمت عقلها رأت انها تعرض نفسها لخطر عظيم ربما آل الى سفك الدماء . اما اذا استشارت قلبها وتصورت اجتماعها بحبيبها ولا رقيب عليهما فيربيان الولدين براحة وسكينة و يتمتعان بحنو الوالدين فتبرق اسرتها وتنبسط نفسها ثم يعترضها غضب اخيها اذا علم بعملها فتعود الى الانقباض . واخيراً احسَّت بانفراج كربتها فجأة لخاطر طرأ على ذهنها يغنيها عن هذه المخاوف . وذلك ان تكتم اسمها وخبرها في خراسان فتعيش مع زوجها

وولديها مستترة حتى يقضي الله بما يشاء . فهذه الخواطر كانت تخفف مخاوفها ولا سيما اذا تذكرت ارجوان خادمها الامين لانهُ كان من اعظم اسباب تعزيتها

وهي في تلك الهواجس رأت عتبة تعدو نحوها والبغتة ظاهرة في وجهها فخفق قلبها وتصاعد الدم الى محياها ولم يكن شيءٌ اسرع من وقوع الرعب في ذلك القلب لما تعلمهُ صاحبتهُ من الاخطار المحدقة بها من كل صوب ولاسيما في تلك الساعة وهي في ما قدمناه من القلق . فلما رأت عتبة على هذه الصورة صاحت فيها « ما وراءكِ »

قالت « ارجوان ! .. ارجوان ! .. » وسكتت

فبغتت العباسة وقالت « ماذا جرى لهُ ؟ »

قالت « لا اعلم اين هو »

قالت « اليس هو في القصر ؟ . ابحثي عنهُ لعلهُ في بعض الغرف يشتغل في الاستعداد »

فهمَّت بالخروج وهي لا تنويهِ ثم عادت ووقفت متحيرة واطرقت وهي تتشاغل بحك صدغها فازدادت العباسة خوفًا وقالت « ما بالك ؟ .. ماذا جرى لهُ .. قولي ... اين هو ؟ »

قالت « لا ادري يا مولاتي ولكن بعض الخدم اخبرني انهُ خرج من القصر .و. »

فقطعت كلامها قائلة « خرج من القصر ! . افي مثل هذه الساعة يتركنا ؟ والى اين ذهب ؟ »

قالت « لا اعلم .. » وغصَّت بريقها

فصاحت العباسة « ويحك قولي .. اين هو ؟ »

قالت « اظنهُ ... ذهب الى دار القرار »

فصاحت « دار القرار ؟ ذهب الى ام جعفر ؟ واي شغل لهُ هناك ؟ »

قالت « اخبروني ان شاكريًّا جاء في طلبه على عجل ولم يمهلهُ ريثما يستأذنك »

فعضت العباسة على شفتها واطرقت لحظة ثم استأنفت السؤال قائلة « شاكريٌّ جاء في طلبهِ .. ؟ وما ظنك بسبب ذهابهِ ؟ »

قالت « اظنهُ ذهب لامر مخيف .. »

فقالت « مخيف ! . ولماذا .. قد يكون ذهابه لغرض بسيط »

قالت « بل هو ذهب لامر مخيف ... لان امير المؤمنين هناك الليلة »

فلطمت العباسة يدًا بيد وصاحت « امير المؤمنين هناك ؟ ومن انبأك بذلك ؟ قولي ...

لقد ازعجتني ياعتبة »

قالت « علمت انهُ هناك من جاسوس لنا في قصر الخلد جاءني منذ ساعة واخبرني ان الرشيد ركب برذونهُ وجاء الى دار القرار ومعهُ خادمهُ اللعين مسرور .. ولم انقل لكِ هذا الخبر لاشتغالي في الاستعداد وكنت احسب قدومهُ لامر خاص بهِ فلما علمت بذهاب ارجوان على هذه الصورة وقع الرعب في قلبي فجئت اليك ... اني خائفة من عاقبة ذلك يا سيدتي ... »

فاطرقت العباسة وقد اخذ الخوف منها مأخذاً عظيماً وعمدت الى التفكير في ما سمعتهُ وارتبكت في امرها فقالت « ما الذي تخافينهُ من استدعاء ارجوان واخي هناك ؟ ومع ذلك فنحن على اهبة السفر غداً »

قالت « صدقتِ وانا قد فرغت من الاستعداد ومتى رجع ارجوان ورأينا في الامر ما يدعو الى سرعة الذهاب خرجنا حالاً . الا تخرجين في هذا الليل ؟ »

قالت « ولكن الوزير امرنا ان نتربص ريثما يأتينا رسوله .. »

قالت « سنرى .. وسأرسل خصياً يتجسس خبر ارجوان ويعود الينا سريعاً »

قالت « افعلي ... » وتحوّلت عنها الى الشرفة التي تعوّدت ان ترى رسول جعفر منها اذا جاءها بخبر . وخرجت عتبة لارسال الخصي

الفصل الثامن والخمسون

البغتة

وقفت العباسة على الشرفة ساعة وعيناها شائعتان نحو الطريق والظلام يحجب بصرها وكلما رأت شبحاً ظنتهُ رسول جعفر

ظلت على ذلك حتى مضى نصف الليل والهواجس تتقاذفها فلما استبطأت عتبة همت ان تبعث في استقدامها فاذا هي آتية تعدو مهرولة والدمع ملء عينيها وقد نبش شعرها وامتقع لونها وابيضت شفتاها فصاحت العباسة « ما بالك يا عتبة .. مالي اراك تبكين .. ماذا حدث ؟ »

فاسرعت وامسكتها بيدها وجرتها الى حافة الشرفة وهي لا تتمالك عن الارتعاش

وقالت « اذهبي يا سيدتي ... انزلي من هذه الشرفة .. اطلبي الفرار بنفسك .. »

فقالت « ماذا جرى .. هل عاد الجاسوس الذي ارسلتهِ ؟ . ماذا قال ؟ »

قالت « عاد ولم تنفعنا عودته ... انزلي من هذه الشرفة واختبئي في الشارع وسأُرسل اليك من يصحبك الى مولاي الوزير ... انزلي .. انزلي .. »

فاستغربت حالها وانتثرت منها وقالت « ماذا جرى ..؟ قولي .. »

قالت وصوتها يرتجف و يتقطع « امير المؤمنين . . يا مولاتي .. امير المؤمنين .. » وأومأت بيدها نحو الداخل

ففهمت ان الرشيد جاء القصر وادركت ان الامر بلغ أشدَّهُ وان الساعة آتية لا ريب فيها لان أخاها لا يأتيها بعد نصف الليل الاَّ لامر عظيم ولا سيما بعد تلك المقدمات فعظم عليها الامر لاول وهلة فوقفت لحظة . ثم غلبت عليها عزَّة النفس ونسيت ما كانت فيه من الاضطراب واكبرت ان تفرَّ على هذه الصورة وهي لا تضمن النجاة . وتحولت رعدتها الى سكينة وثاب اليها رشدها وظلت واقفة مكانها وعتبة تشد بهدب ثوبها وتحرضها على الفرار من تلك الشرفة . ثم سمعت دبدبة ووقع اقدام كثيرة فاجتذبت ثيابها من عتبة وقالت « دعيني فاني احب أن أرى اخي واسمع قوله » ثم تراجعت وهمست في اذنها قائلة « ارسلي رجلاً سريع الخطى يمضي الى الوزير فيخبره بما جرى لنا ليكون على حذر من امر نفسه مخافة ان يصيبه ما اصابنا لان مجيء اخي بعد منتصف الليل على هذه الصورة يدلُّ على خطر يهددنا جميعاً »

قالت ذلك ونزلت من الشرفة نحو الدار فلقيت الرشيد مارًّا في الدهليز نحوها وعليه ثوب بسيط فوقه عباءة واسعة لانه جاءها متنكرًا . وكان قد ذهب الى قصره على ان يؤجل امر العباسة الى الغد كما تقدم فعظم عليه القلق ولم يستطع رقادًا فبادر اليها ومعه مسرور خوفًا من ان يبلغها غضبه فتعمد الى الفرار لعلمه بمن يحدق به من جواسيسها وجواسيس جعفر ولم يكن يتوقع ان يراها خارج الفراش فكيف وقد شاهدها تتأهب للسفر اما هي فتجلدت ورحبت به قائلة « لقد شرفني اخي بزيارته »

فلم يجبها بل ظلَّ ماشيًا الى مقصورة لها في بعض جوانب القصر تعوَّد ان يجالسها فيها اذا زارها فتبعته وركبتاها تصطكان وهي تتمالك وقد ذهب خوفها من الموت لان توقع المصيبة شرٌّ من وقوعها . وكبير النفس اذا تراكمت عليه المخاوف وتحقق وقوع الخطر تجلد له ورجع اليه رشده . فالعباسة تشددت وقام في نفسها ان تناقش اخاها الحساب فاذا قتلت

بعد ذلك فلا تأسف على الحياة

وكانت عتبة تمشي في اثرها وهي تبكي وتتمتم فاشارت اليها ان تنصرف في المهمة التي كلفتها بها . ورأت العباسة في دهليز الدار مسروراً الخادم واقفاً فلما وقع نظره عليها حياّها باحترام فلم تجبهُ لعلمها بفظاظة قلبه — والنساء يكرهن اهل الغلظة والخشونة بلا سبب يدعو الى الكره . وما زالت تمشي وراء الرشيد حتى دخل المقصورة وفيها كرسي قعد عليه وهو يلتف بالعباءة وعلى رأسه عمامة صغيرة من الوشي . وتوسمت العباسة في وجهه الغضب الشديد حتى يكاد الشرر يتطاير من عينيه فتجاهلت ووقفت امامه تنتظر ما يبدو منه

اما هو فامرها باغلاق الباب فاغلقته ووقفت بجسارة لم يعهدها بها من قبل فابتدرها قائلاً « اراك في ثياب السفر يا عباسة فالى اين ؟ »

قالت « الى حيث لا ارى اخاً ولا اخاف ظلماً »

الفصل التاسع والخمسون

الجدال

فاستغرب مفاجأتها اياه بهذه الجسارة على حين انه لم يكن يتوقع منها غير التذلل والتضرع فحمي غضبه ولكنه صبر نفسهُ ريثما يطرح عليها بعض الاسئلة و يسمع جوابها وقال « اتعلمين لماذا جئتك في هذا الليل والناس نيام ... الاّ انا وانت ؟ »

قالت « كلاّ »

قال « فلماذا بادرتني بهذه الوقاحة »

قالت « سألتني سؤالاً فصدقتك في الجواب عليه »

قال « لقد تاخرتِ في الصدق بعد الخيانة التي ارتكبتها »

قالت » لا اعرف اني ارتكبت خيانة ... ولو سالتني مثل هذا السؤال من قبل ما كذبتك »

قال « الم تكوني اخت امير المؤمنين ؟ »

قالت « بلى ... وارجو اني لا ازال أخته »

قال « ومثلك تخون اخاها في رجل من الموالي . ؟ . »

قالت « قلت لك اني لم ارتكب خيانة قط وحاشا لله ان اخون احداً . . »

قال « او تجيبيني بهذه الفحة وقد أصبح امرك مشهوراً حتى اذللتني بين الملأ بأمر اتيته لم يكن يخطر ببالي »

قالت « واى امر تعني يا هرون . . او لعلك تعدُّ الصدق خيانة ؟ »

قال « اعني امرك مع جعفر الوزير الذي لم يرع حرمتي ولا خاف سطوتي . . »

فاحبت عند ذلك ان تجادلهُ بالبرهان لعلهُ يرقُّ لها و يعذرها و يستبقيها فقالت « ان الوزير لم يخرق لك حرمة ولا اراد بك سوءاً . . . فارفق يا اخي ولا تعجل في حكمك . . »

فصاح فيها « لا تدعيني أخاً لك . . . . فاني برئ من قرابتك . . »

قالت « تبرَّأ مني ما شئت . . . ولكن ذلك الرجل لم يرتكب خيانة . . »

قال « ويحك ! . . ألا تزالين تحاولين الكتمان ؟ . فاعلمي اني علمت كل شيء وقد اطلعني ارجوان خادمك الخائن على سرّك واذ اصررت على الانكار فان ولديكما يشهدان على ذلك . . »

فلما سمعت ذكر ولديها تحرك حنوها وخيل لها انها اذا اصرت على الجفاء دعتهُ الى ايقاع الاذى بهما فصغرت نفسها وضعف عزمها عن المقاومة وغلب عليها الحنان واستسهلت في سبيل استبقائهما ان تتذلل وتستعطف — وليس اشد وقعاً على قلب الوالدين من ان يصابوا باولادهم فاذا خافوا ذلك لا يبالون ما يضحون في انقاذهم ولوارتكبوا اكبر الكبائر في هذا السبيل والاستعطاف من اسهل الوسائل . فجثت العباسة عند ركبتي الرشيد وارادت التكلم فسبقتها العبرات فظنتها تهمُّ بالاعتراف عن جريمتها توطئة للاستغفار . فحوَّل وجهه عنها وقال « قد تحققت اني مطلع على حقيقة فعلك فلم ترى بدًّا من الاعتراف والاستعطاف ولكن هيهات ان من يأتي ما أتيت به لا علاج لهُ غير القتل الشنيع »

فكفكفت الدمع وتجلدت وهي لا تزال جاثية وقالت « اني لا استعطفك من اجلي ولا انا اعترف بجريمة . . . ولكنني اطالبك بحقٍّ لا اخالك تنكرهُ . . . واذا شئت ان تنكره عليَّ فلا اظنك تنكرهُ على سواي »

قال « واي حق تعنين ؟ . »

قالت « تمهَّل يا امير المؤمنين — ولا اقول يا اخي لئلاَّ اغضبك — تمهَّل وانا اذكر لك ذلك الحق . . »

فتجلد وقال « قولي »

قالت « الم تعقد عليَّ لجعفر الوزير عقداً شرعيًّا صحيحاً . . ؟ »

قال « بلى . . ولكنني فعلت ذلك ليحلَّ لكما ان تنظرا احدكما الى صاحبه . . وليس لما وراء ذلك »

قالت « وهل يجوز العقد على هذه الصورة . . ؟ واذا جوزتهُ انت فهل يعدُّ من يتمُّ شروطه خائناً . . ؟ »

قال « لا تكثري من المواربة فانكما علمتما منذ كتابة ذلك العقد ان المراد بهِ مجرد النظر لرغبتي في مجالستكما لاني كنت احبكما واحب حديثكما . . . (وهزَّ رأسهُ وحرق اسنانهُ) هذا جزاء المحبة ؟ »

قالت وفي صوتها لحن الملاينة « ولكن ألا يظن امير المؤمنين اننا كنَّا بدون هذا العقد خيراً منا معهُ ؟ . . . »

فقطع كلامها وقال « لا ريب في ذلك لانكما بعد ان كنتما من احب الناس اليَّ صرتما ابغض الابالسة عندي . . »

قالت « ولماذا ؟ الاننا اتينا امرًا حلله الله وحرمتهُ انت . . اليست طاعة الله اولى من طاعة امير المؤمنين ؟ . . »

الفصل الستون

عذر الرشيد

فلما رآها كادت تفحمهُ زادغضبهُ ليس لانهُ لم يدرك وجه الحق عندها . ولاهو يتعمد اذيتها ظلماً وبهتاناً ولكن العادة غلبت على طباعهِ — تعوَّد ان لا يسمع غير النأمين علي ما يقولهُ والتنفيذ لما يريده حقاً كان او باطلاً شأن اصحاب السلطة المطلقة ولا سيما في تلك العصور وقد كثر المتملقون الذين يتزلفون الى وليّ الامر بالاطراء والاغراء لايبالون بما قد يكون من عواقب تغريرهم . فيستبد الحاكم المطلق باموره فكراً وقولاً وفعلاً حتى ينسى ميزان الحق ويسوغ لنفسه مالا يسوغهُ لسواه كأنه من طينة غير طينة البشر . ويتوهم انهُ صاحب الحق دائماً وأنَّ ارادته اذا اضيفت الى حقه وان كان قليلاً تضاعف ورجحت كفتهُ

فلا يلام الرشيد لاصراره على تخطئة العباسة وتصامه عن سماع حجتها ، وعذره في ذلك انه شبَّ على نفوذ الكلمة حتى صار الاستبداد طبيعة لهُ تتغلب على عقلهِ وسداد رأيهِ ولا سيما في حال الغضب . فلما سمع حجة العباسة عمد الى الاستعانة بسلطته الشخصية فقال « ولكنني نهيتكما فعصيتماني ومن عصى امير المؤمنين حلَّ قتلهُ .. »

قالت « اذا لم يكن بدٌّ من ان تعدَّ عملنا عصياناً ... فانا العاصيـة ... وليس هو .. ولا ... »

فقطع قولها وانتهرها وقال وهو كأنهُ يتحفز للوثوب « اراك تحبينه وتتحملين التبعة عنه ؟ . »

فتنهدت وقد هاجت اشجانها وقالت « نعم احبه . ولولا ذلك ماخالفت امرك فيه ... نعم اني احبه واراه اهلاً لمحبتي ومحبة من هو اعظم مني لانه من خاصة الناس وقد أتى اعمالاً ترفع قدره فوق اقرانه وليس ارفع قدراً منه غير امير المؤمنين وحده » قالت ذلك وقد عادت اليها الانفة وابرقت عيناها واحمرت وجنتاها كأن الخجل غلب عليها ومثل هذا التصريح عظيم من نساء ذلك العصر ولاسيما في حضرة الخليفة

اما الرشيد فلما سمع تصريحها ازداد استغراباً ودهشة وقال « ويحك اتعترفين بحبه في حضرتي .. ؟ ثم انت تفضلينه على سائر الناس حتى بني هاشم جميعاً ؟ وهو عبدٌ ... واذا رفعتِ قدره فهو مولى اعجمي .. لا تجاديني بالمحال فانه مقتول ... »

فلما سمعت تلفظه بقتله ارتعدت فرائصها وعاد اليها ضعفها وهان عليها التذلل في سبيل انقاذ حبيبها فضلاً عن ولديها .. فتجلدت وامسكت عواطفها وعمدت الى الملاينة فقالت « هرون .. اخي هرون ! .. بل يا امير المؤمنين ... اذا كنت تنكر العباسة الآن فتذكر انها كانت اختك وكنتما تلعبان معاً في الصغر وتتجابان .. فاصغ لقولها على الاقل في ذلك الوزير فانه وزيرك ولم يقصر في خدمتك ... اتقتله لغير ذنب ارتكبهُ ؟ ... انه لم يرتكب ذنباً ... واذا لم يكن مفرٌّ من قتل احدنا فاقتلني انا . لاني انا المخطئة دونه . »

فقال وهو يضحك غصباً واستخفافاً « وانتِ ايضاً مقتولة .. وساقتل ولديكما لامحو اثر هذا العار من الوجود ... »

فلما سمعته يهددها بقتل الولدين اقشعر بدنها وقفَّ شعرها ونهضت رغم ارادتها وصاحت وصوتها مختنق « تقتلهما ؟ . ما ذنبهما ؟ .. انهما طفلان بريئان ... انهما ملاكان كريمان لا يعرفان حلالاً ولا حراماً .. بالله الا اشفقت عليهما ؟ » ثم ضمت يديها الى

صدرها وقالت ولديَّ .. آه .. رحمتاه يا امير المؤمنين ... رفقاً بذينك الطفلين »
قالت ذلك وصوتها ينقطع وتكاد تشرق بدموعها

فلما رآها تبكي على هذه الصورة تحركت فيهِ عاطفة الاخوة وهو والدٌ يسهل عليه تصور عواطف الوالدين . وربما جال في خاطره وهو يجادلها و يدافعها ان يلتمس لها عذراً ويغضي عن عملها ولكنّ ما سبق الى ذهنه من العار الذي لحقهُ بسببها كان يعترض حنوّه . وكان الرشيد من اكثر الناس غيرة على العرض واشدّهم رغبة في صيانته وقد يغتفر كل ذنب غير التعرض لدولته او عرضه — وهو يعدُّ عمل جعفر تعرضاً للامرين معاً . وقد توهم ان وزيره انما استولد العباسة ليكون في اولادهِ دمٌ هاشميٌّ يساعده على طلب السلطة وهي يومئذ لامطمع فيها لغير القرشيين . فكان الرشيد وهو يسمع استعطاف اخته و يرى عذرها يغالب عواطفه ولا سيما لما سمعها تدافع عن الولدين وهو يعلم براءتهما كما تعلم هي ولكنهُ يرى بقاءها عثرة لهُ او حجة عليهِ . فلما طلبت استبقاءها وهي تبكي لم يلتفت الى بكائها بل اجابها مختصراً « اقتلهما لاخفي اثر هذه الخيانة من الوجود .. »

فعادت الى التذلل رفقاً بالولدين فقالت وهي تبكي وتشهق « اشفق يا اخي .. نعم يا اخي ... فانك اخي .. تذكر الرحم .. واذا كنت لاتزال تعدهُ عملنا خيانة فاقتلنا كلينا واستبقِ ذينك الطفلين فانهما بريئان .. »

فقال « انهما يقتلان بذنبكما ولايمحو هذا الذنب غير القتل ... »

فلما رات الاستعطاف لايجدي نفعاً عادت الى انفتها وعزة نفسها ومسحت دموعها ونظرت الى الرشيد نظرة حادة كادت تخترق صدره لولا اصراره على الغضب وقالت « الا تزال تعدُّ عملنا ذنباً ونحن انما اطعنا بهِ امر الله ... »

قال « لاتحاولي محالاً فقد عصيتما امير المومنين فارتكبتما خيانة لاصبر لي على تحملها » ووقف كأنه يهمُّ بالخروج فاستوقفتهُ وقالت « لقد احرجتني ياهرون حتى الجأتني الى التصريح بما لم تتعود سماعه مني ولامن امرأة سواي .... كيف تحرّم علينا امراً احللتهُ لنفسك ؟ »

فانتهرها ويده على قبضة خنجرهِ قائلاً « بمثل هذا الخطاب تخاطبينني يا وقحة .. وتقولين اني ارتكبت مثل جريمتكما ؟ .. »

قالت « نعم اقول ذلك ولا اخاف لائماً ... فان ما تحاسبنا عليه زواجٌ شرعيٌّ انت عقدتهُ بيدك ولا تحاسب نفسك ولا انا حاسبتك على مثلهِ . ولكنني اذكرك بمن في قصرك من الجواري والسراري فانهنَّ كثيرات ولا ترى باساً من التمتع بهنَّ والشرع

لا ينهاك عنهنّ ... فكيف تنهاني عن زوج واحد شرعي .. اليس ذلك من الظلم ... تتهادون الجواري بالعشرات والمئات بلا حرج ولا بأس حتى ان نساءكم يهدينكم منهنّ ما يطيب لكم ... هذه زوجك ام جعفر قد اهدتك عشر جوار من اجمل النساء [1] — فعلتْ ذلك وهي لا ترى فيه حطة ولا ذنباً لها ولا لك . ولكنكما تريان ذنباً لمثلي ان تتزوج رجلاً عقدتْ له عليها واذا استعطفتك غضبت وهددتها بالقتل وهددت زوجها به ايضاً ولا ترضى مع ذلك الا بقتل طفلين لا ذنب لهما ولا تقبل بهما شفاعة من والدتهما الحزينة التي رضيت ان تقتلها وتبقيهما .. »

الفصل الحادي والستون

الفتك

فلما سمع قولها وما فيه من الجسارة لم يعد يصبر على رؤيتها فانتهرها قائلاً « اراك تماديتِ في القحة وقد اخطأت لاني وسعت لك مجال القول ... وقد نفد صبري وآن لي ان افرغ منك » ثم نادى « مسرور ! »

فدخل ذلك الفرغاني الغليظ القلب وحسامه الى جانبه فلما رأته استعاذت بالله من رؤيته وتحققت قرب منيتها فالتفتت الى الرشيد وقالت « اني مقتولة الآن لا محالة؟ وليس من يدفع عني هذا القضاء فاذا كنت لم تصدقني بدفاعي عن نفسي فاني اتقدم اليك ان تصدقني في جعفر فانه لا يستحق القتل ولا ذنب له في شيء مما تتهمهُ به وارفق بالطفلين .. » قالت ذلك وخنقتها الدموع

اما الرشيد فحالما دخل مسرور صاح فيه « هل اوصدت ابواب القصر وحبست اهله ؟ »

قال « نعم يا مولاي ؟ »

قال « واين الخادمان والفعلاء الذين اتيت بهم معك . »

قال « هم على مقربة منا .. هل ادعوهم ؟ »

قال « ادع الخادمين فقط .. »

---

(١) الاغاني ١٣٧ ج ١٦

فخرج ثم عاد ومعه خادمان يحملان صندوقًا كبيرًا فلما رأت العباسة ذلك تحققت انها مقتولة والتفتت الى اخيها فرأته قد حوّل وجهه عنها واشار الى مسرور فهجم عليها بالسيف فقالت لاخيها « انت مصرٌّ على قتلي ؟ ... ألا تخشى الله فيّ .. تقتلني لاني اطعت الله وعصيتك ؟ ولكنكم معاشر الرجال تحللون لانفسكم ما تحرمونه على نسائكم ... امن العدل ان يكون في قصرك مئات من السراري والجواري وتقتلني من اجل رجل تزوجته بشرع الله وسنة نبيه ... لا أُبالي ان اموت وقد لقيتك وناقشتك الحساب ... » ثم خفضت صوتها وقالت « ولكنني أُبالي ان لا ترتكب ذلك بزوجي العزيز وولديّ الحبيبين » ثم ولت وجهها نحو طريق الحجاز حيث تظن ابنيها يقيمان وقد تعودت ان تستنشق رياهما من تلك الجهة وقالت «استودعكما الله يا حسن ويا حسين » ثم حوّلت وجهها نحو الشماسية كانها تهمّ ان تناجي حبيبها فسبقها مسرور بالسيف فقتلها والرشيد لا يلتفت اليها وودّ انه لم يشهد قتلها لانهُ كان يحبها كثيرًا وكثرة محبته لها اوجبت شدة نقمتهِ عليها لما اعتقدهُ من خيانتها

فلما سقطت ميتة اومأ مسرور الى الخادمين فوضعاها في الصندوق ونادى الرشيد « اين الفعلة فخرج مسرور وعاد بهم وهم عشرة من الرجال الاشداء يحملون المعاول والزنابيل وقد حسروا عن سواعدهم وشمروا عن سوقهم كانهم من الابالسة فامرهم ان يحفروا وسط تلك المقصورة فحفروا حتى بلغوا الماء فقال « حسبكم هاتوا الصندوق » فاتوا به ودلوه في تلك الحفرة ثم قال « ردُّوا التراب عليه » ففعلوا وسووا الموضع كما كان ثم اخرجهم واقفل الباب واخذ المفتاح معه وامر مسرورًا ان يحتفظ بالقصر ولا يدع احدًا يخرج منه او يدخل اليه فاوصى الحرس بذلك وشدد عليهم وقال « اي انسان جاء الى هذا المكان اقبضوا عليه »

ثم قال الرشيد لمسرور « خذ هؤلاء القوم واعطهم اجرتهم ووافني في القصر » ففهم مسرور انه يامره بقتلهم فاخذهم وجعلهم في جواليق وخيط عليهم بعد ان ثقلهم بالصخر والحصى ورماهم في وسط دجلة وعاد الى قصر الخلد فوجد الرشيد هناك وقد طار نومه فلما اقبل ساله الرشيد « هل فعلت ما امرتك به ؟ »

قال « قد وفيت القوم اجورهم » (١)

قال « خذ هذا المفتاح وابقهِ معك حتى اسالك عنه » ودفع اليه مفتاح المقصورة

(١) اعلام الناس للاتليدي ١١٤

فتناوله وقال « سمعاً وطاعة »

وكان الصبح قد اقترب فقال « نحن في صباح الخميس وهو موكب جعفر الوزير فلا تتباعد عني »

فأومأ مطيعاً

الفصل الثاني والستون

الوداع

اما جعفر فقد كان في غفلة عن كل ذلك وهو يتهيأ للرحيل في الغد وقد صمم على السفر عاجلاً بعد ماجرى من الحديث بينه وبين اسماعيل وزادت مخاوفه . ولم يكن له بدٌّ من وداع الخليفة قبل خروجه الى خراسان على جاري العادة في خروج العمال الى اعمالهم . وكان قد اعدّ كل شيء ولم يبق غير الركوب والخروج فلما عزم على وداع الرشيد نادى خادمه حمدان فجاءه فقال « انت عالم اننا مسافرون اليوم »

قال « نعم يا مولاي .. فهل اذهب الى مولاتي العباسة فآتي بها الى هنا او نوافيك الى النهروان . ؟ »

فاستحسن جعفر سرعة خاطره وتيقظه في خدمته فابتسم وقال « بل ارى ان توافوني الى النهروان ولذلك فلا باعث على العجلة في الذهاب اليها . والاحسن ان نؤجل ذلك الى حين رجوعي من وداع الخليفة »

قال « الامر لك يا سيدي .. »

فلما كان الضحى خرج جعفر في موكبه الحافل وحوله الفرسان والركابية حتى اقبل على قصر الخلد فوسعوا له فدخل الابواب بالابهة والعظمة على جاري العادة وهو يقول في نفسه « هذه آخر مرة ادخل فيها هذه الابواب لملاقاة رجل اداجيه ويداجيني فمتى صرت الى عملي في خراسان كنت بين اهلي واعواني ولا نظننا نلتقي بعد الآن الاّ اذا جاءني لحرب .. » وما عتم ان وصل الى دار الخاصة فترجل

وكان الرشيد قد جلس للناس فدخلوا على مراتبهم فسلموا وانصرفوا حتى دخل جعفر

وسلم فرد عليه الرشيد احسن ردٍّ ورحب به وضحك في وجهه واجلسه في مرتبته وكانت اقرب المراتب اليه . واخذ يحدثه ويلاطفه ساعة وهو يظهر البشاشة والاستئناس . واتوه وهو هناك بكتب وردت من النواحي فقرأها على الرشيد وامضاها . ثم نظر اليه وهو يظهر الامتنان من احتفائه به وقال « لقد غمرني امير المؤمنين بنعمه واعلى مقامي حتى ولاني اكبر عمل من اعمال دولته فوجب عليّ شكره .. »

فضحك الرشيد وتمازح وقال « انك اخي ولو قسمت هذه المملكة بيني وبينك لانصفتك .. »

فتظاهر جعفر بالخجل من هذا الاطراء وتأدب وتلمل في مقعده وقال « اني من موالي امير المؤمنين وكل ما ياتيني من قبله انعامٌ وتفضل على مولاه » ثم قال « وان اقصاني امير المؤمنين عن مجلسه فاني عبده ابذل دمي في طاعته »

قال « بورك فيك .. ولا شك اني ساشعر بافتقاري الى رأيك بعد ان توليت امور الدولة عني وتركتني لا اهتمّ بشيءٍ من امر نفسي .. »

فلما سمع جعفر قولهُ تذكر انها نفس العبارة التي قالها لاسماعيل لما باحثه بالامس فوخزه ضميره وخاف ان يكون كلامهُ قد بلغ الرشيد ولكنهُ استبعد ان ينقلهُ اسماعيل ولم يدر في خلده ان ذلك الغلام كتب بهِ اليهِ مع علمهِ انهم يتجسسون كل واحد على صاحبهِ . على انه لم يعمل فكرته في ذلك لاعتقاده قرب النجاة من هذه المخاوف بالخروج الى خراسان . فاظهر شكره لاطراء الرشيد وقال « مهما بذل العبد في خدمة مولاه فلا منّة لهُ ولا فضل »

ومكث ينتظر امر الرشيد بصرفه الى خراسان لان التأدب يقضي ان يبدأ الخليفة بذلك . فلما لم يسمع منه شيئاً في هذا الشأن قال « هل يأذن لي امير المؤمنين بالانصراف » ولم يذكر خراسان فقد تحمل عبارته على انهُ يطلب الانصراف الى منزله

فقال الرشيد « هل تهيأت للسفر الى عملك ؟ »

قال « نعم يا سيدي »

قال « وهل تنوي الذهاب في هذا اليوم »

قال « اذا امر امير المؤمنين »

وكان الرشيد يريد تأخيره بحيلة ريثما يدرك غرضه فمتى اراد الفتك بهِ كان قريباً منهُ لانهُ ما زال الى تلك الساعة متردداً في ذلك الامر لما يعلمهُ من احزاب البرامكة حتى بني هاشم انفسهم كان اكثرهم يحبونهم فعلم ان الفتك بجعفر يقتضي الاحتياط واعمال

الفكرة ليس كالفتك بالعباسة . فرأى ان يحتال في تأخير سفره فقال لهُ « وهل استطلعت ارتفاع نجمك في هذا النهار ؟ »

قال « كلاّ يامولاي » وكانوا شديدي التمسك بالطوالع يعتقدون السعد والنحس في النجوم باختلاف الساعات وكانت منازل الكبراء لا تخلو من اسطرلاب لاستخراج الطالع عند اللزوم . وكان عند الرشيد اسطرلاب متقن الصنعة اتصل اليهِ من جده ابي جعفر المنصور لانهُ كان شديد العناية بالتنجيم والمنجمين . وكان الاسطرلاب موضوعاً على رفٍّ من الابنوس المرصع بالعاج بجانب سرير الرشيد ليستخدمه عند الحاجة . وكان لهُ المام بهذه الصناعة وجعفر اعلم منهُ بها . فبادر الرشيد حينئذ الى الاسطرلاب وامر الحاجب ان يأتيه ببعض المنجمين فما عتم ان جاءه باحدهم لانهم من جملة ارباب الفنون المقيمين في قصر الخلد على عادة الخلفاء في ذلك العصر

فلما دخل المنجم قال لهُ الرشيد « كم مضى من النهار ؟ »

قال « ثلاث ساعات ونصف »

قال « خذ الارتفاع »

فاخذه واخبر الرشيد فجعل الرشيد يحسب لهُ ذلك بنفسه ونظر في نجمهِ ثم التفت الى جعفر وقال « يا اخي هذه ساعة نحس لا أرى الا انهُ يحدث فيها حدث فالاوفق ان تؤجل سفرك الى الغد وهو يوم الجمعة فتصلي وترحل في سعودك وتبيت في النهروان وتبكر يوم السبت وتستقبل الطريق في النهار فانهُ اصلح من اليوم »

فشق هذا التاجيل على جعفر واخذ الطالع وحسبه لنفسه وربما رأى غير ما قاله الرشيد لكنهُ ليس من آداب مجالسة الخلفاء ان يراجعوهم او يخطئوهم ولعل الرشيد ادرك ذلك فلم يقبل بحساب المنجم فحسب الطالع بنفسه

فقال جعفر « صدقت يا امير المومنين ان هذه الساعة ساعة نحس وما رأيت نجماً اشد احتراقاً ولا اضيق مجرى من البروج في مثل هذا اليوم ورأي امير المومنين اصوب »

ولبث ينتظر امارة الصرف على عادة الخلفاء فتزحزح الرشيد فقام جعفر وخرج يلتمس قصره والناس والقواد والخاص والعام من كل جانب يعظمونهُ و يبجلونهُ في داخل القصر وعلى قارعة الطريق وفي كل مكان والكل غافلون عن حقيقة حاله وما يحدق بحياته من الخطر — واكثر ما يشاهده الناس من مظاهر السعادة في اهل الدولة او ارباب الثروة يقدرونهُ فوق قدره لانهم غافلون عما يشوبهُ من المتاعب والاخطار

خرج جعفر من قصر الخلد وهو لا يصدق انهُ سيستقلُّ بعمله في خراسان ويعيش آمناً بين اهله واعوانه ومعهُ العباسة وابناها وينجو من دسائس اهل البلاط وما يحدق به من الخطر على الحياة

فلما وصل الى قصره بالشماسية بعث الى حمدان فلما اتى اخبرهُ بتأجيل السفر الى الغد واوصاه ان يهتم بامر العباسة فيبقى في الشماسية بعد سفرهِ حتى يخيم الظلام ثم يمضي الى قصرها ومعه الركائب يحملها ومن شاءت نقله معها الى النهروان او يسير بها الى ماوراء ذلك لتكون في مامن وهو يعلم انها تحب ان تصطحب عتبة وارجوان . ولكن حمدان لا يحتاج في مثل هذا الى توصية لنباهته وصدق خدمته . ثم خلع جعفر ثيابه وقعد للراحة

الفصل الثالث والخمسون

عتبة وحارس القصر

اما عتبة فكانت قد امرتها العباسة ساعة مجيء الرشيد ان تبعث الى جعفر فتخبرهُ بما يهدده من الخطر لعله ينجو بنفسه . فمضت الى غرف الجواري والخدم لترسل احدهم في هذه المهمة فرأت القصر محاطاً بالحرس ولا سبيل الى الخروج فعظم الامر عليها وذهبت الى غرفتها وهي ترتعد خوفاً على سيدتها بعد ما شاهدتهُ من مجيء الرشيد على تلك الصورة واخذت تفكر في ما داهمها من الامر وايقنت ان سيدتها ستصاب بشرٍّ عظيم ولم تعلم انها مقتولة بعد قليل . فما لبثت ان تحققت قتلها حتى بكت وندبتها وعلمت ان الخطر سيتطرق اليها ولكنها احتقرت حياتها بعد هذا المصاب واصبح همها ان تنفذ وصية سيدتها الى جعفر لانها لم تكن تشك في قتله بعد قتل العباسة فلا بدَّ من ان تنبهه الى ذلك لينجو بنفسه . فاعملت فكرتها في وسيلة تنذرهُ بها فرأت السبل مقفلة في وجهها فزادت حيرتها وطلع الفجر وهي تطوف من غرفة الى غرفة وتبكي وتندب

ثم رأت البكاء لا يجديها نفعاً واحستْ ان خير ما تفعلهُ في تلك الساعة ان تسعى في الخروج من القصر فاذا خرجت نجت من القتل وأبلغت الخبر الى جعفر وفي نجاته تعزية لها على مصابها بسيدتها . وانتقل فكرها فجأة الى ابي العتاهية لاعتقادها انهُ سبب هذه المصائب كلها فلعنتهُ وتذكرت ما كان من حبهِ لها وكيف طلبها من الخليفة وابت المجيء اليه

فخيل لها انها اذا توفقت الى مقابلته ربما استرضته باظهار حبها لهُ وهو لا يعجز عن اخراجها من ذلك القصر لما تعلمهُ من دالة الشعراء ونفوذهم فاذا خرجت لا تعدم وسيلة في الوصول الى جعفر . وتذكرت رغبة ابي العتاهية بالمال وهو كثير بين يديها فاذا لم تستعطفه بالحب استخدمته بالمال ولما تصورت ذلك احست بارتياح . ولكنها ما لبثت ان عادت الى الانقباض لانها لا تعلم اين هو ابو العتاهية في تلك الساعة ولا كيف تتوصل اليهِ

ثم خطر لها ان المال يذلل الصعاب و يلين اغلظ الرقاب فعزمت على بذلهِ في اقرب الاسباب فاستخرجت عقداً من الجوهر كان في جملة ماجمعته من حلي مولاتها للسفر وتنكرت بثوب غريب وتقنعت بخمارها ولبست خفها وخرجت تطلب باب القصر وهي تتجاهل الاوامر بالتضييق عليه . فلما بلغت الباب ووجدته مقفلاً قرعتهُ ونادت البواب الذي كان عليه من عهد مولاتها فلم يجبها احد فقرعته ثانية ففُتحت الخوخه واطل منها رجل عرفت انه حارسٌ من جند الرشيد فقالت لهُ « اين هو البواب ؟ ما بالكم اقفلتم علينا الابواب ؟ »

فاقفل الخوخه وتحوَّل وهو يقول « ادخلي .. لا سبيل الى الخروج »

قالت « و يلاه !.. ولماذا ؟ »

فصاح فيها « ادخلي ولا تكثري الكلام فان القصر مقفل بامر امير المؤمنين .. »

فصفقت وصاحت « يالتعاستي ما الذي جاء بي اليه ؟ . »

فادرك الحارس من ذلك انها ليست من اهل القصر ففتح الخوخة ونظر اليها فرآها تبالغ بالتقنع وهي تقول « بالله عليك الا فتحت لي واطلقت سبيلي فاني لم اجنِ ذنباً ولا انا من اهل هذا القصر »

فقال « وما شأنك ؟ »

قالت « جئت البارحة بهمة الى مولاتنا العباسة وخيم الظلام قبل الفراغ منها فبتُّ مع بعض الجواري وانا مزمعة على الخروج الى سيدي لئلاَّ يستبطئني و يسيء الظن بي »

قال « من هو سيدك ؟ »

قالت « سيدي ... ابو العتاهية شاعر امير المؤمنين »

فلما سمع اسمه استأنس بهِ لشهرتهِ والشعراء يومئذ زينة مجالس الخلفاء فقال « وما الذي جئت بهِ من قبلهِ »

فاظهرت انها تخاف التصريح بذلك وظلت ساكتة

فقال الرجل « ما بالك لا تجيبيني ؟ »

فالت « جئت من قبلهِ بمهمة الى مولاتنا العباسة .. و ... و ... فافتح لي ولا تعيقني حرسك الله »

فلم يشك الحارس في انها تقول الصدق فاراد العبث بها فقال « اتيتِ بمهمة سرية .. ؟ فامكثي في مكانك واحفظي سرك معك » قال ذلك واغلق الخوخة

فصاحت « بالله افتح لي ولا تضايقني فقد كفاني تأخري الليلة الماضية ولا آمن من شرٍّ اتوقعه بسببه فكيف اذا تأخرت ايضاً ؟ »

فعاد وفتح الخوخة وقال « لا اطلقك الاَّ اذا اخبرتني عن السرّ الذي جئتِ بهِ »

قالت « اراك تعبث بي وقلبك مستريح وانا قلقة فاذا لم تصدق قولي فاني استشهد العباسة عليهِ ... الا تصدقها ؟ »

فزاده تظاهرها بالسذاجة اعتقاداً بصدقها ولكنه تذكر تشديد الرشيد فخاف ان يخرجها ويتحمل تبعة ذلك فقال « هذا لا يهمني فاني مأمور بمنع اهل هذا القصر من الخروج والسلام » واراد اقفال الخوخة فامسكتها منه وحاولت فتحها وهي تقول « واذا اخبرتك بسبب مجيئي هل تطلق سراحي ؟ »

قال « وما ذلك ؟ .. قولي »

قالت وهي تخفض صوتها « اظنك تعلم ان ابا العتاهية .... ان ابا العتاهية ... أبطل نظم الشعر ... »

قال « نعم اعلم ذلك »

قالت « واظنك تعلم انه يحب المال ... »

قال « انهُ مشهور بذلك »

قالت « فاذا اراد المال نظم القصائد سرًّا لبعض الامراء فنظم بالامس قصيدة في مدح العباسة وبعثها معي فحملتها اليها مساء امس فدفعت اليَّ الجائزة واكرمتني بالمبيت هنا ... ليتها لم تفعل .. » وهزت رأسها

فقال « وما هي تلك الجائزة ؟ »

فتظاهرت بالخوف من الاقرار وتوقفت عن الجواب فابتدرها قائلاً « ألا تقولين ؟ .. »

فقالت بلهفة الخائف المستعطف « بلى » ومدت يدها الى جيبها فاخرجت العقد فابرق بين انامله كالشمس فمدَّ الحارس يدهُ ليتناوله فاسرعت في ارجاعه الى جيبها فقال « ارني اياه »

فدفعته اليه وهي تظهر خوفها عليهِ . فتناوله واخذ يقلبه ويعجب بهِ وهو يقول « انهُ ثمين ولكن ... هل تظنين اني اخرجك بهذا العقد وانا لا املك جوهرة من جواهرهِ ؟ »

قالت وهي تتأفف « يهمني الخروج والسلام »

فلما رآها تتلهف للخروج قال « فاذا شئت الخروج فاخرجي وحدك »

قالت « وماذا اقول لابي العتاهية ؟ »

قال « قولي لهُ ان العباسة لم تعطك شيئاً »

فسرَّها قبولهُ بذلك ولكنها ارادت تمكينه من وعده فقالت « ولكنهُ لا يصدقني .. وارى ان انصف بينكما فاعطيك نصف الجائزة واحمل اليهِ نصفها »

فرضي الحارس بذلك وبادر للحال فقطع العقد واخذ معظمه ودفع اليها الباقي وقال « يكفيك هذا القدر . فاذا اعجبك ذلك اخرجي والاَّ فادخلي »

فاطرقت لحظة ثم قالت « بل اخرج واحسب انها لم تعطني شيئاً »

فسرَّ الحارس لفوزه بتلك الجواهر وفتح الباب وقال لها « اخرجي ولكن احذري ان تخبري احداً بخروجك فانك تقتلين لا محالة . »

فخرجت وهي لا تصدق انها نجت وقلبها يكاد يطير فرحاً بالانطلاق من ذلك الاسر واملاً بنجاة جعفر وكان الحارس اكثر فرحاً منها . وكانت الشمس قد اشرقت فاسرعت لا تلوي على شيءٍ واكترت حماراً وركبت تطلب قصر جعفر بباب الشماسية

الفصل الرابع والخمسون

الدعوة العاجلة

اما جعفر فتركناهُ في قصره وقد خلع ثيابه للراحة فخطر لهُ ان يجلس للصبوح وهو مجلس كانوا يعقدونهُ للشراب صباحاً . فاراد ان يودع بغداد بهِ فأمر فاعدت المائدة وجاؤوه بالشراب وسأل عمن في داره من المغنين . فقالوا « ان اباذكار الاعمى هنا » فقال « اليّ به » . فدخل ونصبت الستارة واستدعى جواريه ليغنينه فيتودع من مجالستهن في دار السلام لاعتقاده انه مسافر في صباح الغد . فاخذ ابو زكار يغني والجواري يضربن على العيدان وجعفر يشرب ويطرب ويظن الناس غافلين عما بينه وبين الرشيد . وربما علموا من

ذلك اكثر مما يعلمهُ هو ولا سيما المغنين فقد كانوا يطلعون على اسرار الناس بما يتاح لهم من حضور مجالس الانس التي يدور بها الشراب فاذا طرب الجلساء بدرت منهم بوادر تشف عن سرائرهم والمغنون يتجاهلون ذلك ويكتمونه خوفاً على حياتهم . فالرشيد مع تكتمه في امر جعفر لم يكن يخفي سرَّه على مغنيه الموصلي حتى قيل انه سأله مرة وهو في بعض مجالسه « بماذا يتحدث الناس » فاجابه « يتحدثون انك ستقبض على البرامكة وتولي الفضل بن الربيع الوزارة » [1] فانتهره الرشيد وصاح فيه « ما انت وذاك ويلك »

وكذلك ابو زكار الاعمى فان عماه كان يجرّئهُ جلاسه على التصريح باكثر مما يصرحون به امام سواه فكان على بينة مما يحدق بجعفر من الخطر وربما المع الى ذلك في بعض غنائه فلا يلحظه غير العارفين — فلما دعاه الى الغناء في ذلك اليوم غناه :

فلا تبعد فكلُّ فتى سيأتي عليه الموت يطرق او يغادي
وكل ذخيرة لا بدَّ يوماً وان بقيت تصير الى نفاد
ولو فوديت من حدث الليالي فديتك بالطريف وبالتلاد [1]

فلما سمع الحضور قوله ادركوا مراده الاَّ جعفر . وما اتمَّ ابو زكار غناءه حتى فتح الباب ودخل الحاجب . فقال له جعفر « ما بالك ؟ »

قال « ان مسروراً خادم امير المؤمنين بالباب .. »

فلما سمع اسمه اجفل لانه كان يستغلظه ويستثقل روحه لكنه لم يسعه الا الاذن بادخاله فدخل فصاح فيه جعفر « ما وراءك ؟ »

قال « يا سيدي اجب امير المؤمنين »

فانزعج جعفر من تلك الدعوة وقال « ويلك يا مسرور انا في هذه الساعة خرجت من عنده فما الخبر ؟ »

قال « وردت كتب من خراسان يحتاج ان تقرأها له »

فاطمان خاطر جعفر قليلاً فنهض وهو يقول في نفسه « كنت احسب مقابلتنا في هذا الصباح آخر مرة الاقي فيها هذا الرجل في بغداد فاذا انا مضطر لملاقاته مرة أُخرى لاحول ولا قوة الاَّ بالله »

ثم دعا بثيابه وسواده وقلنسوته فلبسها وتقلد سيفه وامران تعدَّ له الركائب وخرج وانفضَّ المجلس . وفيما هو خارج من القاعة ومسرور بين يديه جاءه الحاجب ووقف

(١) الاغاني ١٠٣ ج ٥ (٢) ابن خلكان ١٠٩ ج ١

بحيث يراه ويفهم انه يريد مخاطبته فتحول جعفر اليه وسأله عن غرضه فقال « ان عتبة جارية مولاتنا العباسة في دار النساء تطلب ان تراك ..»

فخطر له انها جاءته من عند العباسة للمخابرة بشأن السفر فقال « قل لها اني راجع الساعة فاخاطبها بما تريد »

قال « انها تطلب مقابلتك حالاً »

فخطر له ان يلقاها ويسألها عن شأنها ولكنه خشي ان يلحظ مسرور ذلك فيبلغه الى الرشيد . فوقف هنيهة يتردد في الامر ثم تذكر ريحان وانه عالم بكل ما يتعلق بالسفر فقال للحاجب « دعها تقابل غلامنا ريحان وتطلب ما تريده فهو مفوض من قبلنا »

فاشار مطيعاً وخرج جعفر حتى اتى باحة القصر فركب في موكبه من الفرسان والغلمان وساروا يطلبون قصر الخلد يتقدمهم مسرور على فرس ويتوسط الموكب جعفر بسواده وقلنسوته وحوله الفرسان من نخبة رجاله واكثرهم من الفرس وكلهم يفدونه بارواحهم وكان اذا ركب اعتزّ بهم . فقطعوا الشماسية حتى اتوا الجسر فتخطوه واقبلوا على الميدان بين يدي قصر الخلد . فلما وصلوا باب القصر ترجل مسرور واشار الى فرسان الموكب ان يقفوا هناك فوقفوا وهم في غفلة عن مراده فدخل مسرور وجعفر والغلمان في ركابه ولم يفطن لاشتغال خاطره بامر تلك الدعوة . ولما دخلوا اوماً مسرور سرًّا الى البوابين فاقفلوا الباب وكانوا على موعد من ذلك قبل ذهابه . ثم دخلوا الباب الثاني فاستبقى الغلمان خارجه ودخل جعفر فاقفل الباب وراءه . ولما دخل الباب الثالث التفت فاذا هو وحده ولم يبق معه احد من رجاله فندم على ركوبه تلك الساعة ولم يمكنه الرجوع . ورأى في فناء القصر قبة تركية كان قد نصبها مسرور هناك بامر الرشيد وحولها اربعون غلاماً من السودان فظن الرشيد ينتظره فيها فدخلها فلم يجد احداً وانما شاهد في ارضها سيفاً ونطعاً فايقن بالهلاك ووقف وركبتاه ترتعدان وغلب عليه الخوف وصغرت نفسه لعلمه بشدة مسرور وانه لو اراد مقاومته لا يقوى عليه . وهب انه غلبه فلا فائدة من فوزه وهو محصور في تلك الدار فعمد الى الملاينة فقال لمسرور « يا اخي ما الخبر ؟»

فضحك مسرور ضحك الاستخفاف وقال « انا الساعة اخوك وفي منزلك تقول لي ويلك؟ انت تدري ما القضية ... وما كان الله ليهملك ولا يغفلك ... فقد أمرني امير المؤمنين بضرب عنقك وحمل رأسك اليه الساعة »

فلما سمع قوله بهذه الصراحة اقشعر بدنه وكاد الدم يجمد في عروقه وغلب عليه صغر النفس

ولعل ذلك الضعف طرأ عليهِ من الشرب - ويتوقع القارئ ان يرى من جعفر الوزير ثباتاً ورباطة جأش في مثل هذا الموقف شأن الرجل الكبير. ولكن الانغماس بالترف والمسكر يضعف القلب ويحلُّ العزيمة فلا صبر لصاحبهما على التجلد اذا تحقق وقوع المحذور ولا سيما ساعة خروجه من مجلس الشراب كما كان حال جعفر في ذلك الصباح — فلما سمع مسروراً يخاطبه بهذه اللهجة الشديدة لم يتمالك عن الترامي عند قدميه واخذ يقبلهما ويقول « يا اخي يامسرور انت تعلم كرامتي لك دون جميع الغلمان والحاشية وان حوائجك عندي مقضية في سائر الاوقات وانت تعرف موضعي من امير المؤمنين وما يوحيه اليَّ من الاسرار ولعل ان يكونوا بلغوه عني باطلاً . وهذه مائة الف دينار هنالك احضرها لك الساعة قبل ان اقوم من موضعي هذا وخلني اهيم على وجهي »

فقال مسرور « لا سبيل الى ذلك ابداً »

قال « فاحملني الى امير المؤمنين واوقفني بين يديه فلعله اذا وقع نظره عليَّ تتداركه الرحمة فيصفح عني »

فهزَّ مسرور رأسه هزَّ الاباء وقال « ما من سبيل الى ذلك ابداً ولا يمكنني مراجعته وقد علمت انه لا وسيلة الى الحياة ابداً »

قال « فتوقف عني ساعة وارجع اليه وقل له انك فرغت مما امرك به واسمع ما يقول وعد فافعل ما تريد. فان فعلت ذلك وحصلتْ لي السلامة فاني اشهد الله وملائكته اني اشاطرك نعمتي مما ملكته يدي واجعلك امير الجيش واملكك امر الدنيا ... »

فلما سمع مسرور هذه الوعود ارتاحت نفسه اليها وخطر بباله ان الرشيد ربما امر بالقتل في حال غضبه فاذا سكن غضبه يغير فكره ويعفو عنه فيكتسب هو هذه الاموال ويتمتع بهذا المنصب فاطرق . فلما رآه جعفر مطرقاً طمع في الحياة ولبث ينتظر ما يبدو منه فاذا هو يقول « ربما يكون ذلك » ومدَّ يده اليهِ فحلَّ سيفهُ ومنطقته واخذهما ووكل به السودان الوقوف هناك واوصاهم بحراسته وخرج

فلما خلا جعفر بنفسهِ تلفت فلم يرَ غير النطع والسيف فاسترجع رشده . ومع مايغلب على المرء من الامل في الحياة مهما بلغ من تعرضه للخطر فجعفر لم يكن يرجو نجاة لما يعلمه من الاسباب التي بعثت الرشيد على قتله . بعد ما كان يدور بينهما من المداجاة والمخادعة وايقن في تلك الساعة ان الرشيد عالم بحالهِ مع العباسة ثم تذكر مجيء عتبة بتلك العجلة فندم على استمهالها ريثما يعود وخطر له ان تكون قد جاءت بتحذير او تنبيه كان ينفعه لو اطلع

عليه قبل خروجه فزادت مصيبته عنده خطارة واصبح كانه يرى الموت رأي العين وهاجت اشجانه فتمثلت له العباسة كما فارقها للمرة الاخيرة وقد تواعدا على الفرار الى خراسان وتذكر ما كان يرجوه من النجاة بها و بولديه لو سافر بالامس بلا وداع او لو قابل عتبة قبل خروجه . فضاق صدره وتجسمت مصيبته فدهمه البكاء وودّ لو انه يرى العباسة قبل موته ويقبل طفليه قبل هذا الفراق الابدي . فأخذ في البكاء وجعل يخاطب نفسه قائلاً «واحسرتاه عليكِ ايتها الحبيبة بل والهفي على قبلة من ولديّ . . . . قضيتُ العمر اتحرق على ساعة الاعبهما بها كما يلاعب الاب اولاده فلما ظننت ذلك قريباً فاذا هو بعيد عني بعد الابدية — وانت يا قرينتي بشرع الله — وان ادعي اخوك خيانتنا — لقد تحملت خطر الموت من اجلي وعرضت نفسك لغضب هذا الرجل المستبد حبًّا بي . نعم لم يحملك على ذلك غير الحب الصادق ولولاه لكنت في نعمة وسعادة لان بني هاشم جميعاً يتمنون رضاك . . ماذا عسى ان يكون حالك اذا عرف اخوك بامرنا فانه قاتلك لا محالة — اذا لم يكن قد قتلك الآن . . هل جاءت عتبة لتخبرني عن قتلك وتحذرني من مثله رفقاً منك بحبيبك ان يصيبه ما اصابك ؟ ربما كان ذلك — وانت جديرة بهذه المنقبة . . . . قد عرفتُ استهلاكك في سبيل حبي غير مرة — فاذا كنتِ قد قضيتِ نحبك قبلي فانا نادم على طلب البقاء بل انا راغب في اللحاق بك . . . واذا كنت لا تزالين في قيد الحياة فانت لاحقة بي لا محالة لان اخاك لم يسرع الى الفتك بي على عجل الاّ وقد اطلع على ما يظنهُ خيانة . . والله يعلم اننا انما اطعنا به الشرع وشروط الحب » . وسكت لحظة ريثما يبلع ريقه ويمسح دموعهُ ثم قال « وولدانا ؟ . . . ياحسن ويا حسين . . اين انتما الآن . . هل تعلمان بما حلّ بوالديكما من يد ذلك الخال الظالم . . . آه من استبداده وقساوة قلبه . . » قال ذلك وغص بريقه واحس باختناق صوته واذا بالمفتاح يعالج بالباب . فاجفل وانتبه لنفسه فسكت وبصره شاخص نحو الباب حتى اذا فتح دخل مسرور ووجهه مقطب فعلم انه لم ينجح بمهمته وهمّ ان يخاطبه فسمعه يقول « ذهبت الى امير المؤمنين فلما رآني سألني عنك فقلت قد انفذت امرك فيهِ فقال ائتني برأسه حالاً »

فلما سمع جعفر قوله تجلد وقال « افعل مابدالك ولكنني اسالك سؤالاً واحداً أصدقني به وانا في آخر لحظة من لحظات الحياة »

قال « وما ذلك . . »

قال « ما ذا جرى بالعباسة ؟ قل الصدق ولا تخف وشاية فان سامعك مقتول »

قال « قد قُتلتْ »

فصاح « قتلتْ . ! . . . اقتلني . . اقتلني . عجل بقتلي . لا ارب لي بالحياة »

ولم يتم كلامه حتى ضربه مسرور بالسيف على عنقه فاطار رأسه فحمل الرأس وهو يشخب دماً وذهب به الى الرشيد

الفصل الخامس والستون

الرشيد ورأس جعفر

قد علمت مما تقدم ان الرشيد هو الذي امر مسروراً ان يفعل مافعلهُ ودبر هذه الحيلة في ادخال جعفر قصر الخلد منفرداً على تلك الصورة الى القبة التركية وكان قد امره ببنائها في صباح ذلك اليوم على اثر خروج جعفر من دار الخاصة وذلك ان الرشيد ظل بعد خروجه ساعة يخطر في تلك الدار ذهاباً واياباً ويعمل فكرته قبل الاقدام على ذلك الامر العظيم ويتردَّد بين التعجيل والتأني لعلمه بما للبرامكة من المريدين الذين يبذلون ارواحهم في سبيل نصرتهم . ولكنهُ اصبح بعد توالي قلقه وطول سهره وهو لم يذق طعاماً ولا شراباً لا يزداد الاَّ تقمة وغضباً — والأرق وحده يورث ضيق الخلق وحدة الطبع مع ضعف القلب فكيف اذا رافقهُ القلق والاضطراب — فخاف الرشيد اذا اجل الفتك ان يعلم جعفر بمقتل العباسة فيتأهب للدفاع وربما انقلب الامر الى عكس المراد . وكان من الجهة الاخرى يحبُّ جعفراً حباً شديداً وقد ربيا معاً وتعاشرا على غير كلفة وكان يعدُّهُ اخاً لهُ فيشق عليه قتله . ولكنهُ كلما خطر الحب بذهنهِ اعترضهُ ماحفظه عليه من خيانته ومس عرضه فيقفُّ شعرهُ ويقشعرُّ بدنهُ فلا يرى راحة الاَّ بالاصرار على قتله

قضى في ذلك حيناً وهو يتمشى في الدار منفرداً واستغرق في تلك الافكار حتى نسي نفسه ولو دخل عليه احد في تلك الساعة لرآه يسرع في مشيته تارة ويبطئُ أخرى بين اطراق وتصويب يحكُّ ذقنهُ أو يشير بانامله تهديداً ووعيداً او استهالاً وترددًا لا ينتبهُ لشيءٍ مما يكسو جدران تلك القاعة من الستائر المطرزة او الطنافس الموشاة كأنهُ لا يرى من الالوان غير السواد . وربما وقف لحظة امام ستارة ليقرأ ما عليها من الاشعار او ينظر في ما يكسوها من الاشكال وقد يقرأ البيت او الفقرة فلا يفقه لها معنى لاستغراقهِ في الهواجس

فاتفق انهُ وقف امام اسطوانة بجانب سريره قرأ عليها بيتين استفزّا عزيمته وقضيا بامضاء امره وهما :

ليت هنداً انجزتنا ما تعد وشفت انفسنا مما نجد

واستبدّت مرة واحدة انما العاجز من لا يستبد

وكان متردداً وقد تضاربت في ذهنه عوامل الاقدام والاحجام وتساوتا كانهما في كفتي ميزان وقد توازنتا فاي شيءٍ اضيف الى احداهما رجحها . فما فرغ من تلاوة هذين البيتين حتى رجح عندهُ الاقدام فصمم على الفتك فصاح « مسرور » فدخل باسرع من لمح البصر فاوصاه بما يعملهُ على نحو ما تقدم ومكث في القاعة ينتظر رجوعه وهو على احرّ من الجمر حتى جاءه بالحيلة التي انتحلها جعفر لعلهُ يصفح فردّه واستعجله بالقتل فرجع وضرب عنقه وحمل رأسه وهو قابض عليه من لحيته فتدلى الرأس مقلوباً والدم يشخب من اوداجه ويسيل على خديه وعينيه وشعره

دخل مسرور بالرأس والرشيد جالس على السرير فطرحه على وسادة بين يديه وتنحى في بعض جوانب الدار . فلما وقع نظر الرشيد على ذلك الرأس احسّ بزوال الخطر ولكنهُ لم يتمالك عن الاسف فامتقع لونهُ وجاشت عواطفه وتذكر سابق الحب بينهما . فنظر الى الرأس هنيهة وبيده قضيب من الابنوس المطعم بالعاج تعوّد ان يتلاهى بهِ وهو جالس فجعل ينكت البساط بهِ ويخاطب الرأس قائلاً « ياجعفر؟ الم احلك محل نفسي؟ . . . يا جعفر ما كافأتني . . ولا عرفت حقي . . . ولا حفظت عهدي . . . ولا ذكرت نعمتي . . . ولا نظرت في عواقب الامور . . . ولا تفكرت في صروف الدهر . . . ولا حسبت لتقلبات الايام واختلاف احوالها حساباً . . . يا جعفر خنتني في اهلي وفضحتني بين العرب والعجم . . يا جعفر اسأت اليّ والى نفسك . . وما تفكرت في عاقبة امرك . . . » وكان يقول ذلك والقضيب بيده ينكت به البساط او ينقر بهِ اسنان جعفر كانه يستنطقه ومسرور واقف يسمع ويرى ولو كان لهُ قلب لا نفطر ولكنهُ كان فظّاً قاسياً

وبينما الرشيد يخاطب جعفراً بمثل ما تقدم ويعاتبهُ ومسرور لا يجسر على حركة ولا قول اذ سمعا وقع خطوات مسرعة نحو الباب ما زالت تقترب حتى سمعا قرعاً وقائلاً يقول « السلام على امير المؤمنين أأدخل ؟ »

فاجفل الرشيد لانه عرف صوت اسماعيل بن يحيى فاشار الى مسرور ان ياخذ الرأس ويمضي . ففعل وخرج من باب في الجانب الآخر من القاعة . ولم ينتظر اسماعيل جواب

الرشيد فدخل

اما الرشيد فما كاد يرسل بصره نحو الباب حتى رأى اسماعيل داخلاً والبغتة بادية في وجهه وحول قلنسوته عمامة لم يحسن هندامها ولا سرح لحيته او اصلح من شأنه كما ينبغي في مقابلة الخليفة

فلما رآهُ الرشيد داخلاً تجلد وردّ التحية وأشار اليهِ ان يجلس

فجلس على كرسي بعيد عن الرشيد وهو يلهث حتى يكاد يختنق من العجلة فنهض الرشيد ومشى نحوه وحاول الابتسام ترحيباً به ولكن التأثر غلب على تجلده وكظمه

اما اسماعيل فلما رأى الرشيد واقفاً وقف تأدباً فامره بالجلوس وجلس الى جانبه وقد ادرك ان اسماعيل انما جاءه في ذلك الحين لامر هام فاستعجل في الاستفهام منه عن غرضه فقال اسماعيل « جئتك شافعاً يا امير المؤمنين ... وان ابيتَ فمستمهلاً امرك الى حين »

الفصل السادس والستون

قضي الامر

فلحظ الرشيد انه جاءه بشأن جعفر واستغرب اطلاعه على أمره مع احتياطه في الكتمان كما علمت ـ وانما عرف اسماعيل ذلك من ريحان غلام جعفر لما علمته من مجيء عتبة باخبر في ذلك الصباح فلما لم يرض جعفر مقابلتها واحالها الى ريحان قصت الخبر عليه وكان الموكب قد مشى فلم يجسر ان يتبعه لئلاّ تبدو الشبهة لمسرور فوقع في حيرة وتشاور مع عتبة ونظرا لما يعلمانه من صداقة اسماعيل وجعفر اجمعا على الذهاب اليه. فاسرع ريحان الى قصره فوجده جالساً في الحديقة فاخبره بما جرى واستحثه على التوسط لدى الرشيد فتعجل في لبس ثيابه وجاء الى قصر الخلد فمنعه الحراس من الدخول في باديء الرأي ثم اذنوا لهُ فدخل وهو لا يعلم بقتل جعفر ولم يخطر لهُ تعجيل الرشيد بقتلهِ الى هذا الحد. وسأل عن الرشيد فقيل له انه منفرد في دار الخاصة فجاء ودخل كما تقدم

فلما سمع الرشيد قوله وعلم انه يشفع اليهِ في جعفر تجاهل وقال « ان شفاعتك مقبولة وامرك نافذ ولو على ولي العهد »

فاستبشر اسماعيل وقال « اطال الله بقاء امير المؤمنين وحفظ انجاله .. وانما انا اشفع اليك في وزيرك جعفر .. »

فهزَّ الرشيد رأسهُ وقال « جئت متاخرًا يا ابن العم وقد نفذ القضاء »

فلما سمع اسماعيل قولهُ اجفل وتراجع وقال « قتلتَ جعفرًا ! »

قال « قتلهُ غدره .. »

قال « قتلته يا امير المؤمنين ؟. قتلت وزيرك وصاحب خاتمك ومدبر دولتك ؟ »

قال « لا سبيل الى اطالة القول يا اسماعيل .. ان وزيري هذا قد قُتل بخيانته ولو علمتَ ما ارتكبه وانت هاشميٌّ لحكمت عليه بالقتل »

فحسبه يشير الى ما يتهمونه من حب الشيعة العلوية باطلاقه ذلك العلوي وقد تفاوضا في ذلك من عهد غير بعيد . وكان اسماعيل يعتقد انه لا يستحق القتل لاطلاعه على سعي اعدائه ووشايتهم به فقال « الم يكن امير المؤمنين قد عزم على ابعادهِ الى خراسان ثم يفكر في شأنهِ ؟ »

قال « كنت عزمت على ذلك ثم رأيت التفكير في امره وهو في قبضتنا اقرب الى صيانة ملكنا ونيل مرادنا لانهُ اذا سار الى خراسان كان في اهلهِ واحزابهِ ... واهل خراسان لا يزالون ناقمين علينا منذ قتل جدي المنصور اميرهم ابا مسلم ... نعم انهم يعجزون عن مناوأتنا ولكنهم يشغلوننا . فمن سداد الرأي ان نتدارك الخطر قبل وقوعه »

فقال « رأي امير المؤمنين اصوب .. ولكن حسَّاد جعفر كثيرون وقد وشوا بهِ وكثَّروا ذنوبه وبالغوا بالطعن فيه وامير المؤمنين من حرصه على الخلافة لبني هاشم عجل بقتله وربما كان استبقاؤه انفع لمصلحة الدولة ولكن قضي الامر .. »

فلما سمع الرشيد تعريضه بذكر الواشين اراد ان يسترق منه اخبارهم لينتقم منهم او يجتنب اذيتهم فقال « وهل انت على يقين من ذلك .. ؟ ومن هم الواشون ؟ »

فهمَّ اسماعيل ان يطلعهُ على ما يعلمه من سعي ابن الهادي والفضل بن الربيع وغيرهما ولكنه امسك لسانه واعمل فكرته فرأى التصريح يزيد الخرق اتساعًا ويزيد الدولة ضعضعة وارتباكًا وهو حريص على صيانتها كما علمت . فلو كان جعفر حيًّا لكان الخطر من التصريح قليلاً اما وقد قتل فاصبح ذكر الواشين والاقرار باقوالهم واعمالهم وشاية أخرى فندم على ما بدر منهُ وعزم على كتمان ذلك فقال « اذا كنتَ قد قتلت جعفرًا فانها احدى المصيبتين فاذا ذكرتُ لك غيره جررت الدولة الى مصيبة أخرى فليعفني امير المؤمنين من

ذلك وهو يعلم رغبتي في سلامة هذه الدولة . وقد عصيتني في ما اردته من تبرئة جعفر فلا تكلفني الوشاية بآخرين ولو علمتُ في ذلك خدمة نافعة ما كتمته . فاطعني في هذا واعلم اني انما اكتمه رغبة في خير بني هاشم كما كان تصريحي ببراءة جعفر لنفس هذا السبب .. وأنقدم الى الرشيد ان لا يعدّ إبائي وقاحة ... واذا عدّه كذلك فله ان ينتقم بما شاء ... اني لا ابخل بروحي في سبيل هذا الكتمان »

وكان الرشيد يجلّ اسماعيل و يعتقد اخلاصه وصدق نيته و يضنّ بحياته فقال « ان حياتك عزيزه علينا يا عمّاه وحاشا لله ان نسيء الظن بك وهب انك عصيتنا فانما تعصانا لتنفعنا .. واما جعفر فلو كان ذنبه قاصراً على ما علمت من تعرضه للدولة ونصرته للشيعة لصبرنا عليه واحتطنا له كما صبرنا في ما مضى لان انحيازه للشيعة لم يكن جديداً علينا . ولكنه ارتكب ما هو افظع من ذلك كثيرا ... ارتكب ما لو علمته لسبقتني الى قتله به .. لا تسألني عما ارتكبه فاني حريص على كتمانه ولو علمت ان يميني علمت به لقطعتها .. » قال ذلك وقد اشتدّ غضبه وزاد انقباض اسرته وارتجفت شفتاه حتى رقصت لحيته .. ثم هزّ رأسه وقال « آه .. آه . لو استطيع قتله مرة أخرى لفعلت .. »

فتهيب اسماعيل من غضب الرشيد ولم يفته الامر الذي سمعهُ يلح اليه فان خبر العباسة بلغه على علاته وهو على خلاف رأيه فيه فتجاهل ولو رأى مجالاً للكلام ما تكلم لئلاّ يجرّ الكلام الى الجدال بلا فائدة لعلمه بشدة غيرة الرشيد على العرض وحرصه على شرف بني هاشم فظل ساكتاً

ثم سمعا الاذان لصلاة الظهر فنهض الرشيد ونهض اسماعيل واستأذن وخرج

الفصل السابع والستون

الحسن والحسين

اما الرشيد فامر صاحب وضوئه فجاءه بالماء فتوضأ وخرج للصلاة في الجامع فصلى بالناس جماعة ورجع الى داره فانفذ بعض خاصته للقبض على والد جعفر واخيه وجميع اولاده وعلى قصورهم ودورهم واستباح ما فيها فاستولى رجالهُ على ما وجدوه هناك من الجواري واستبقوهم لخدمتهم الاّ ريحان وعتبة فانهما فضّلا اللحاق بمن قتل فقاوما بعض الذين جاؤا

للنهب فقتلوهما . ووجه الرشيد مسروراً الى معسكر جعفر في النهروان فاخذ جميع ما فيه من مضارب وخيام وسلاح وغير ذلك

واصبح الرشيد يوم السبت وقد قتل من البرامكة وحاشيتهم الف انسان وترك من بقي منهم لا يرجع الى وطنه وحبس يحيى بن خالد والد جعفر والفضل بن يحيى اخاه في مطمورة وامر بجثة جعفر فصلبت على جسر بغداد

فلما اطمأن خاطره من هذا القبيل ذهب الى زبيدة امرأته واخبرها بما كان فاستحسنت ذلك ولكنها تذكرت الصبيين فقالت « لقد فعلت فعل اهل الحزم ونجيت الخلافة من الاعداء ولكن ما الذي فعلته بالصبيين ؟ »

فاطرق واعمل فكرته فابتدرته قائلة « اذا اردت محو العار الذي لحقنا فبادر الى ازالة اثره لان بقاء الصبيين وصمة باقية . »

فقال « وهل تعلمين مقرهما ؟ »

قالت « اذا شئت دللت خادمك على مكانهما »

فقال « اخبري مسروراً عن ذلك »

فدلته على مخبأهما ومضى الرشيد الى قصره وجلس ينتظر مجيئهما

وكان الغلامان قد خبأهما الفضل بن الربيع على يد ابي العتاهية في بيت على شاطئ دجلة وأوقف عليهما الحراس فذهب مسرور اليهما وحملهما الى قصر الخلد بعد ان قتل رياشاً وبرّة الخادمين القائمين على تربيتهما

ولما جاء مسرور بالغلامين ادخلهما على الرشيد وكان جالساً على وسادة وحده

فدخل الغلامان وهما يدرجان ويضحكان ووجهاها يطفحان سروراً وسذاجة وطهارة يحسبان الرجل جاء بهما الى فرجة او وليمة . فلما رأى الرشيد جمالهما انقبضت نفسه اسفاً على ما سينالهما من الاذى لعلمه انهما بريئان طاهران . ولكنه كان قد صمم على محو اثر تلك الجناية من الوجود فتجلد ودعاهما اليه فاسرعا وترامیا عليه وهما يتلفتان لمشاهدة ما في تلك القاعة من الرياش الفاخر والالوان الزاهية

فسال الرشيد اكبرهما « ما اسمك يا قرة عيني ؟ »

قال « الحسن »

فقال للصغير « ما اسمك يا حبيبي »

قال « الحسين »

فاعجب الرشيد بمنطقهما لان لغتهما مدنية ونصاحتهما هاشمية ثم أعمل فكرته في ماهو مقدمٌ عليه من الامر الخطير وهو والدٌ محبٌّ لأولاده ولو لم يكن والداً لكان الاقدام على ذلك العمل اسهل عليه لان الحنوّ لا ينضج و يبلغ اشدّهُ الاّ في قلوب الوالدين والوالد لا يقتصر حنوه على اولاده بل هو يتعوّد ذلك حتى يحنّ الى كل ولد — وزد على ذلك ان في الغلامين دمًا هاشميًا والقرابة من اسباب الانعطاف فعظم الامر على الرشيد ولبث حيناً يفكر والغلامان يلاعبانهِ و يعبثان بلحيته وطوقه حتى كاد الحنو يغلب عليهِ فتذكر ما هو فيهِ وخاف غلبة الضعف فعاد الى الحزم وسرعة الفتك لئلاّ يحول بينه و بين ذلك شافعٌ فعمد الى قتلهما على ان لا يرى ذلك بعينه ولا يسمعهُ باذنهِ . فتصادمت عواطفهُ وجاشت اشجانهُ فغلب عليه البكاء واغرق فيه حتى منعه من الكلام . والغلامان يعجبان لبكائه . اما هو فنظر اليهما والدمع يترقرق في عينيه وقال « يعز عليَّ حسنكما وجمالكما ... لا رحم الله من ظلمكما » ثم قال « يا مسرور اين المفتاح الذي دفعته اليك .. وامرتك بحفظه ؟ »

قال « هو حاضر يا امير المؤمنين »

قال « فأتني بهِ »

ثم دعا بجماعة من الغلمان وامرهم ان يذهبوا مع مسرور الى تلك الحجرة و يحفروا فيها حفرة عميقة وأومأ الى مسرور ان يقتل الغلامين و يدفنهما في تلك الحفرة — أومأ بذلك وهو يبكي بكاءً شديداً حتى ظن مسرور انهُ رحمهما ولا يلبث ان يعدل عن قتلهما فاذا هو قد مسح عينيه ونهض واشار الى مسرور ان يمشي فاطاعه ومضى بهما الى تلك الحجرة ثم عاد واخبر الرشيد انهُ قتلهما ودفنهما هناك وقتل الرجال الذين ساعدوهُ على ذلك

وامر الرشيد من يومئذ ان لا يذكر البرامكة في مجلس ولا يستعان بمن بقي منهم في شيءٍ ابداً . فخرجوا على وجوههم في البلاد شاردين متنكرين جائعين (١) عارين واصبح الناس يتمثلون بنكبتهم مثل تمثلهم بثروتهم وسخائهم . وخلا الجو لاعدائهم فنالوا ما تمنوه من التنكيل بهم وتولوا مصالح الدولة بعدهم ولا سيما الفضل بن الربيع فانهُ تقلد الوزارة وصار اليهِ الحل والعقد — فسبحان مبدّل الاحوال

انتهت الرواية

(١) اعلام الناس للاتليدي ١١٧ وابن خلكان ١٠٥ ج ١

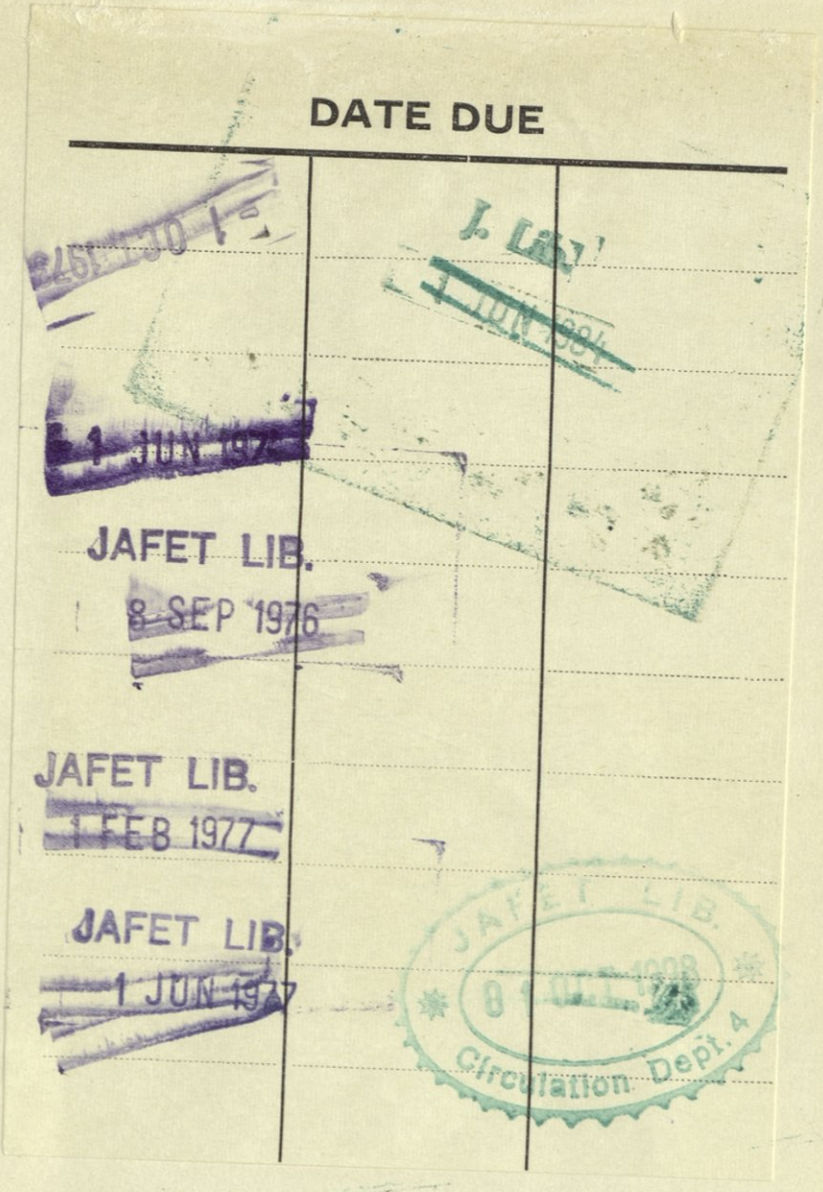
DATE DUE
JAFET LIB.
8 SEP 1976
JAFET LIB.
1 FEB 1977
JAFET LIB.
1 JUN 1977
JAFET LIB.
Circulation Dept. 4

892.78:Z39aba2A:c.1
زيدان، جرجي
العباسة اخت الرشيد
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
81044332

892.78 :Z39aba2A
زيدان
العباسة اخت الرشيد
Borrower's
DATE
Borrower's Number
892.78
Z39aba2A